

جيش الشعب
(الصورة الكاملة)
بقلم: مجموعة من المفكرين والمبدعين والباحثين
دلتا للنشر والتوزيع

جيش الشعب

الصورة الكاملة

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشروالتوزيع والدعاية

دار دلتا للنشر



رئيس مجلس الإدارة

المحاسب

أحمد التلاوى

الناشر

سليمان القلشى

مستشار النشر

أحمد سويلم

الطبعة الأولى
الكتاب : الجيش المصري خير أجناد الأرض
المؤلف : أحمد سويلم   سليمان القلشى
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٧ × ٢٤
رقم الإيداع : ١٥٧٩ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 2 - 9 - 85265 - 977 - 978

العنوان : ٧ شارع الموسيقارعلى إسماعيل الدقى

التليفون : ٣٣٣٧٨٣١٩ - ٣٣٣٨٧٠٣٩

email : elyoumnew@gamil.com

جيش الشعب
الصورة الكاملة

أشراف

أحمد سويلم   سليمان القلشى

دلتا للنشر والتوزيع

بسم اللّه الرحمن الرحيم

(وَأَعِـدُّوا لَهُـمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِـنْ قُـوَّةٍ وَمِـنْ رِبَـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُـمْ وَآخَرِيـنَ مِـنْ دُونِهِـمْ لَا تَعْلَمُونَهُـمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُـمْ)

الأنفال ٦٠

مآثر
و شهادات

قال رسول الله (ﷺ) :

﴿إذا فتح الله عليكم مصر.. فاتخذوا منها جنداً كثيفاً فهم خير أجناد الأرض.. وهم فى رباط إلى يوم القيامة﴾.

★★★

وقال نابليون الثالث بعد حرب المكسيك:

﴿لم نحظ بانتصار واحد.. وبعد أن وصلت الكتيبة المصرية لم نمن بهزيمة واحدة﴾.

وقال البارون بوالكونت وقد أذهلته معارك الجيش المصري فى سوريا عام ١٨٣٢:

﴿إن المصريين هم خير من رأيت من جنود﴾.

★★★

وقال المارشال الفرنسي مارمون عندما تولي قيادة الحلفاء فى حرب القرم:

﴿لا ترسلوا لي فرقة تركية.. ولكن أرسلوا كتيبة مصرية﴾.

★★★

وقال الطيار الإسرائيلي الأسير سمحا مردخاي روزين فى حرب أكتوبر:

﴿لقد اندهشت من دقة تصويب المدافع المصرية المضادة للطائرات بما يؤكد أن مستوى رجالها عال جداً.. والدليل على ذلك كثرة ما أسقطوه من طائرات﴾.

★★★

ويقول الجنرال أندريه بوفر:

﴿أبرزت حرب رمضان أن الدفاع مهما كان حصينا – كقلاع خط بارليف – فسوف يظل عرضة للاختراق والتدمير ما دامت القوات المهاجمة من القوة والكثافة والتصميم بالقدر الذى يضمن لها الغلبة﴾.

★★★

مقدمة

بقلم / سليمان القلشي

خرجت الى الدنيا لأرى اللون الكاكى بكثرة فى بيتنا فملابس أبى كانت فى كل مكان فى البيت تؤكد أن الوالد كان يخدم فى القوات المسحلة المصرية ... وبما أننى أفتقدت هذا الرجل وأنا لم اتجاوز من العمر ٦ سنوات فلم أملك معه ذكريات طويلة ..كل الذى أتذكره وهو يطل علينا بطلته المهيبه ببدلته العسكرية مبتسما كعادته مطبطبا علينا جميعا وهو يحمل فى العادة أكياس الفاكهة ... وأوقات آخرى وهو يوقظنا من النوم عند مجيئه ليلا ليعطينا الحلوى التى جلبها لنا .. ونفرح كثيرا بها وهو ينظر إلينا وهو فى غاية السعادة ... وأوقات آخرى أتذكرة وهو يخلع بدلتة العسكرية ليضعها فى الدولاب الخشبى الذى ظل معنا فترة طويلة بعد رحيلة عن دنيانا.. حتى عند وفاته مات الرجل وهو يرتدى بدلته العسكرية ... خرجت الى الدنيا لأرى احترام ووقار الى العسكريين والبدلة العسكرية لأن أمى رحمة الله عليها كانت محبة لوالدى لدرجة غير عادية وظلت تحترم ذكراه ومنها الذكرى العسكرية طوال عمرها الذى أمتد لثلاثين عاما بعد وفاة والدى ...!!!

وبعد ذلك بسنوات رأيت ابن خالى طالبا فى الكلية الحربية ثم ضابطا بالجيش المصرى ولا يمكن تصور كم كان هذا الرجل محل احترام وهيبه منا جميعا فى العائلة وكنا ننتظره ونحن أطفال عند مجيئه فى

إجازته علي أحر من الجمر وهو يجيئنا بملابسه العسكرية فارضا هيبته على نفسه وعلى الجلسة التى فيها يكون وجاء حرب ٧٣ وأنا شاب صغير فى أول الرحلة الثانوية وإستعدادا لهذه الحرب كنت أراسل على الجبهه أحد أقاربى من الجنود القابعين على الجبهة لأشجعه والغريب أن هذا الجندى كان فلاحا ولا يجيد القراءة والكتابة ومع ذلك كان يحضر أحد زملائه من المؤهلات ليقرأ له الخطاب ويرد عليها بخطه ويحكى كيف كانت هذه الخطابات تقرأ على الكثير من الجنود ... ويشترك الكثير منهم أيضا فى الرد معه على تلك الخطابات ...!!! وتخرجت فى الجامعه لأجد نفسى مرشحا لأكون ضابطا إحتياطيا بالقوات المسلحة وبما أننى أحمل فى نفسى من صغرى إهتماما كثيرا بالجيش فتحمست للترشيح وقت أن كان البعض من الشباب يفضلون الخدمة الوطنية فى الجيش كجندي وليس ضابط احتياط حتى ينتهوا بسرعه منها ويتفرغوا للعمل المدنى ووجدت نفسى فى كلية ضباط الاحتياط بفايد لأجد نفسى فى رحلة غريبة عني لم أكن أتصور نفسى يوما فيها، فالحياة العسكرية بقدر ما هى قاسية بقدر ما تملؤك بالزهو بالنفس والثقه فيها والكثير والكثير ولأول مره آرى نفسى أصحو صباحا الساعة الخامسة فجرا لأخوض طوابير وتدريبات عسكرية تتسم بالجديه وأحيانا بالقسوة وأرى وجوه بشرية تراها لأول مرة وأنت شاب غض صغير تتسم دائما هذه الوجوه بالجدية والبعد كل البعد عن الدعابة ومع ذلك كانت المواقف القاسية فى تلك الأيام تخرج لى دائما مواقف كوميدية لا يمكن أن أنساها ابدا بخاصة مع البشر فأنا دائما من إهتماماتي التفحص فى وجوه البشر وسلوكهم. وكانت جدية الحياة العسكرية تخرج دائما ما هو لطيف وتدعو أيضا إلى الإبتسامة بجانب ما تراه من الصرامة ... عشت ثلاثة أشهر فى أجواء غريبة كان أحلاها وأجملها هو التقارب الكبير بيننا كطلبة فى الكلية وبخاصة ونحن نأكل فى الميز الكبير أو فى أماكن إقامتنا فى العنابر العسكرية ولا يمكن بأى حال من الأحوال

أن أنسى مشهد زيارات الأهل للطلبة فى أواخر الأسبوع وكميات الأكل التى يحملونها لأولادهم فى الكلية وبما أننى كنت مغتربا ومن الطريف أن لم يكن أحد من أهلى يعلم حتى أين أنا فلذلك لم أكن أتمتع بهذه الزيارات من الأهل الآخرين .. ليلتهم الطعام كل الموجودين فى العنبر والذى كان يصل عددهم إلى ما يقرب من الخمسين طالب .. فى جو مرح أسرى لا يمكن أن أنساه وحرصت دائما على أن لا أتناساه . وانتقلت بعد ذلك ثلاث شهور آخرى فى الكلية الحربية بالقاهرة وما أدرك بالكلية الحربية أنها مثال نادر للحياة العسكرية فى صورتها الأولى فى فايد كان هناك جديه ولكن فى الكلية الحربية كان هناك صرامه عارمه في العسكرية وشباب غض فى بداية العشرينات من عمره وهم طلبة الكلية الحربية هم المسؤلون عن طلبة الإحتياط الذين كان أكبر سنا وتعليما ولكن كان طلبة الحربية مثالا نادرا من التمسك بالتقاليد العسكرية الصارمة التى كان يحاول طلبة الإحتياط أن يخرجوا منها .... وكنت دائما أسأل نفسى ما تلك الحياة وكيف يستقبلها كل واحد فيها بهذا الحماس وتلك القوة وكيف تكون تلك الأسوار المحيطة بالكلية فاصلا تفصل بين حياة الشاب المدنى خارجها وحياة الشاب العسكرى بداخلها.. فرق شاسع بين الحياتين !!! وفى يوم التخرج شاهدت فرحة عارمة فى عيون الكثيرين وبخاصة بعد أن وجد الجميع أنفسهم وهم يرتدون الزى العسكرى حاملين الدبورة على أكتافهم ....!!! وتنتقل حياتى العسكرية بعدها إلى الحياة العملية على الأرض بصفتى ضابطا بالقوات المسلحة ولأجد نفسى فى (براني) تلك المدينة الساحلية التى تقرب من حدودنا مع ليبيا لتكون خدمتى بمطار براني العسكرى محاطا بمسئولية كبيرة أمام رؤسائي من الضباط الأعلى فوجدت نفسى مسؤلا عن سرية للخدمات ومرة آخرى مسؤلا عن (الحملة) أى سيارات ومعدات الكتيبة ...!! فكانت الكتيبة دفاع مطارات من المشاه وأرى شخصيتى تتغير بصورة كبيرة عن عما كانت فى السابق فأصبحت الجدية شئ مهم فى حياتى ... وأصبحت

المتابعة لكل من يتبعنى فى عملى شغلى الشاغل ... ! ! ! ومن هنا علمت أن الحياة العسكرية لها قدسيتها وهيبتها ولكن فعلا الذى لاحظته فى كل مكان ذهبت إليه فى الخدمة العسكرية أن تكوين الجيش ما هو إلا من كل فئات الشعب المصرى ومن كل مكان فى ربوع المحروسة ؟؟؟ وبعد انتهاء خدمتى العسكرية والتحاقي بالعمل المدنى وبعد فترة كنت دائما أسأل نفسى لماذا لا تكون الحياة المدنية مثل الحياة العسكرية على الأقل فى الجدية فى العمل والإنضباط والمتابعة .....! ! ! وكنت أراهن زملائى على أنه لو تم ذلك لتغيرت مصر ! ! ؟ وحينما قامت الثورة العظيمة فى يناير ونزل الجيش ميدان التحرير كنت من أشد المتحمسين لذلك ومع أن البعض كان متخوفاً من ذلك لأن رئيس الجمهورية المثار عليه كان أحد قادة الجيش ... كنت أراهن على أن هذا الجيش العظيم سيقف بجوار شعبه وفعلا كانت الوقفة التاريخية له التى ساند فيها الجيش المصرى الثورة وكانت التحية العسكرية من أحد أعضاء المجلس للشهداء دليلا دائما على تلاقى الشعب والجيش فى نقطة واحدة ! ! ! ومع كل الذى حدث .. كان شيء داخلى يؤكد على أن الذى سوف ينقذ هذه البلد هو الجيش وإنسحب الجيش تاركاً الحياة السياسية ذاهباً إلى مكانه الطبيعى بعد أن وقف بجانب الشعب .....! ! ! وبعد أن استولى الإخوان على الحكم فى مصر وبدأنا نرى آلاعيبهم الخبيثة فى أخونة مفاصل الدولة كان السؤال ذا شقين فى تلك الأونة الأول هل تنجح هذه الفئة الباغية أن تفرض سيطرتها الفكرية علي الجيش وهو الذى عاش طوال حياته جزءا لا يتجزأ من النسيج المصرى العام .. هل يمكن أن نرى جيشنا إخوانيا ؟ والسؤال الآخر :هل يمكن لنا أن نتصور أن يترك هذا الجيش العظيم شعبه تحت أسر تلك الفئه الباغيه لتخرج من مصر نسيجها ونرى أنفسنا شعبا أخرونعيش حياة آخرى غير تلك الحياة التى عشناها عبر آلآف السنين ؟؟ وكان السؤال فى الشارع هل الجيش سيتركنا لهؤلاء كنت أشجع هذا السؤال فى كل مكان أذهب

أو أجلس فيه هل سيتركنا ويتخلى عنا الجيش وكنت دائما أجد نفسى أقول لا يمكن أن يصمت الجيش وكنت دائما أجد نفسى أقول لا يمكن أن يصمت الجيش تجاه ذلك ومع أن هذه الفترة كان قائد الجيش الفريق السيسى فى ذلك الوقت يصب اهتماماته بصوره كبيرة على التدريبات العسكرية والانضباط العسكريه ورجوع العلاقة الحميمة بين الجيش وشعبه بعد أن وصلتها بعض الأتربة من جراء المرحلة الإنتقالية فى الدولة : وهب الشعب فى ٣٠ يونيو وكالعادة وقف الجيش بجوار شعبة وقفة تاريخية لا يمكن أن تنسي وذهب الإخوان بغير رجعه ..!!! ليتأكد الجميع أن هناك رابطاً يربط بين الجيش والشعب لا يمكن لأحد أن يؤثر فيه وتصور البعض فى الخارج أوهاما كثيرة وتخيل أن ما حدث كان انقلابا والذى يقول ذلك بالطبع لا يعرف معني الجيش المصرى ولا يعلم جيدا من هو الشعب المصرى، الجيش المصرى هو جزء من نسيج هذا الشعب قدم إليه الشعب المصرى كل ما يملك لكى يظل قويا مدافعا عن الأرض والعرض وعندما كانت مفاصل الدولة كلها فى اهتزاز شديد أثناء الثورتين كان الجيش هو الركيزة الأساسية التى سندت الدولة لتقوم ولا تقع. إن ما قدمه الجيش المصرى لشعبه فى الثورتين يناير – يونيو مثالا نادرا على المستوى العالمى ولم يقدر أن يصفه أحد من علماء السياسية والاقتصاد ...أنها ظاهرة مصرية خالدة كان السؤال الذى ظل يراودنى طوال تلك السنوات وإلى الآن ما سر هذة العلاقة الحميمية والقوية والصلبه بين الشعب وجيشة ... لماذا وكيف ساند الجيش الثورتين ؟؟ لماذا كان الشعب المصرى على يقين أن جيشه لن يتركه فى محنته الكبرى مع الإخوان؟؟ لماذا أخرج الجيش كل ما يملك من أموال كان يضعها لحفظ التسليح ليضخها فى الاقتصاد المصرى فى محنتة بعد الثورتين؟؟ كل تلك الأسئلة ظلت تراودنى ولكن كنت دائما أريد أن أرد على تلك الأسئلة بطريقة علمية بحثيه ؟؟؟ فعرضت على زملائى فى دار نشر دلتا الاستاذ الشاعر الكبير أحمد سويلم والصحفى الشاب النابه محمد هشام عبيه

والأستاذ حاتم صادق الكاتب والباحث فى التراث الإسلامى .. أن نعمل على أصدار كتاب لايكون مؤلفه كاتباً واحداً ولكن نستعين بعدة باحثين فى مجالات متعددة نتحدث فيه عن تلك العلاقة وأسرارها ولماذا تلك العلاقة صارت بهذا الشكل الحميم.. والحقيقة أن الزملاء تحمسوا جدا للفكرة، وكان لابد من عرض الأمر على الأستاذ أحمد التلاوى رئيس مجلس الإدارة ووافق الرجل على الفور وتحمس بصورة كبيرة للفكرة وأكد أنه أقل واجب يقدم للمكتبة المصرية والعربية والعالمية مثل هذا الكتاب.

وبدأنا هذا العمل الشاق منذ شهور لنقدمه هدية إلى جميع المصريين بفئاتهم المختلفة ونجيب على السؤال: لماذا تلك العلاقة القوية بين الشعب المصرى وجيشه؟ نتمنى أن ينال رضا القارىء واهتمامه.

الجيش المصري

★ فى التاريخ

★ فى المجتمع

★ فى ميدان القتال

إحياء الجيش الوطنى

عودة الروح للعسكرية المصرية فى عهد محمد على

عميد / طارق الحريرى

إطلالة عبر التاريخ

يؤرخ للجيش المصرى الحديث بداية من عصر محمد على الذى حكم مصر فى الفترة من عام ١٨٠٥ حتى عام ١٨٤٨ فقد كان كان آخر عهد انخرط فيه المصريون فى قوات عسكرية نظامية وطنية هو الأسرة الثلاثين قبل أفول الحضارة المصرية القديمة ويعود السبب فى اعتبار أن ابتعاث العسكرية المصرية يبدأ من عصر محمد على ليس فقط لأنه أنشأ بالفعل جيش عصرى بمعايير زمانه لكن - وهذا هو الأهم - أسس قاعدة هذا الجيش العريضة اعتمادا على الجنود المصريين بعد قطيعة طويلة منذ انقضاء عصر الأسرات لأنه طوال قرابة ٢٢ قرن من الزمان تم إقصاء المصريين عن واجب الدفاع عسكريا عن وطنهم ولم يكن يستعان بهم إلا للضرورة القصوى فى مرات قليلة إلى حد الندرة لفترات صغيرة ويتم بعدها الاستغناء عن دورهم بعد زوال خطر التهديدات الخارجية حدث ذلك على سبيل المثال عندما زحف الجيش السلوقي الجرار من الشام على مصر عندما كانت تحت الاحتلال البطلمي وفشل بطلميوس الرابع في إيقافهم وولى الأدبار فاجتاح السلوقيين سيناء وعندها اندفع الجنود المصريين الذين كانوا يشكلون احتياطي للقوة البطلمية بدون أوامر واشتبكوا مع جحافل القوات المغيرة وأظهروا بسالة منقطعة المثيل فقلبوا ميزان المعركة وتحولت الهزيمة إلى نصر مبين وانسحب السلوقيين مع قائدهم أنطيوخس الثالث وقد اشتهرت هذه المعركة فى التاريخ باسم معركة رفح وجرت وقائعها عام ٢١٧ ق . م وكنموذج آخر معركة المنصورة التى جرت وقائعها سنة ١٢٥٠ ميلادية بعد هزيمة الجيش السلطانى

هزيمة منكرة فى دمياط التى احتلها الفرنسيون بقيادة ملكهم لويس التاسع وعندما تقدم الفرنسيون نحو المنصورة أعلن النفير العام في البلاد فهرول «عوام الناس» وهو المصطلح الذى استخدمه المؤرخون فى ذلك الوقت للدلالة على أبناء الشعب بأعداد كبيرة من كافة أنحاء مصر إلى المنصورة للتصدى للغزاة ووقتها بدأ يظهر المماليك ودارت معركة كبيرة أنتهت بنصر عظيم توج بأسر لويس التاسع ولولا جموع المصريين من أبناء الشعب الذين هبوا لحماية وطنهم لما تحقق هذا النصرالذى كان معركة فارقة نحو أفول الحروب الصليبية .

كان سبب إبعاد المصريين عن الجيش هو محاولة إخماد روح المقاومة لدى الشعب المصرى والخوف من وجود عناصر مسلحة من أبناء البلد فى الجيش يمكن أن تتمرد أو تشارك فى الثورات الشعبية التى لم تكن تتوقف طوال فترات استعمار مصر لتنتنهى هذه الجريمة تاريخيا مع تحجيم المصريين لهيمنة الاستعمار العثمانى بعد اليقظة التى أفاقتهم بها أصوات مدافع الحملة الفرنسية والتى أشعلت روح الكفاح والثورة ضد هذا الاستعمار الجديد الوافد من أوروبا الذى اضطر للجلاء عن مصر سريعا بعد ثورتين شعبيتين مجيدتين واستمرت بعدها الروح الجديدة المتأججة بقوة أجبرت الباب العالى فى الأستانة عنوة على قبول إرادة المصريين بتنصيب محمد على واليا على مصر. وبصفة عامة لعب المصريون طوال الحقبة الكئيبة التى أقصاهم فيها المستعمرون عن شرف الخدمة العسكرية والتى توالت قرن بعد قرون دورا ما كان يمكن الاستغناء عنه فى صناعة السلاح وإمداد الجيوش بالمؤن والمال وكافة الاحتياجات الإدارية لكن مع هذا لم تتوقف ثوارات وتمردات الشعب بضراوة واستبسال طوال عصور الاستعمار على تعدده فى مختلف مراحله .

ويستقر الرأى لدى الباحثين فى مجمل تاريخ العالم على أن المصريين هم أول من قدم فكرة الجيش كقوة نظامية تقوم بالدفاع عن البلاد من

هجمات القبائل العابرة أو الطامعين فى خيرات البلاد بعد نشأة ومولد كيان الدولة ذات الحضارة الزراعية المستقرة على ضفاف النيل وقد طور المصرى القديم السلاح وأساليب القتال اعتمادا على هيكل تنظيمى متدرج فى القيادات والوظائف تأسس على منظومة حربية دقيقة التنظيم تديرها أقسام متخصصة تقوم بالإشراف على التجنيد وصناعة وتخزين السلاح وتأمين الاحتياجات الإدارية وإسناد الوظائف وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش وكثيرا ماكان يشارك فى المعارك وفى أوقات السلم كان يتم الاستعانة بالقوات في مهام الأشغال العامة والزراعة والتجارة مع البلدان المجاورة وكأن الاستعانة بالجيش فى دعم المشروعات القومية جين متوارث منذ الاف السنين باق حتى اليوم حيث تلعب القوات المسلحة الآن دورا هاما فى توطيد أركان دولاب العمل الوطنى من مشروعات البنية الأساسية والمساهمة فى مواجهة الأزمات ورفع العبئ عن كاهل المواطنين عندما تستدعى الضرورة وفى الحقبة القديمة أيضا كان من يعرف اللغات الأجنبية فى الجيش يذهب إلى بيبلوس أوإلى بلاد بونت أو أقاصى مناطق النوبة ليقايض على احتياجات البلاد من الدول المجاورة كما أختص البعض بنقل المعادن الثمينة من الصحراء الشرقية وفى أوقات الطوارئ والأزمات كانت تضاف للقوات الأساسية قوات أخرى تتم تعبئتها بالتجنيد والخلاصة فإنه كان جيش قومي يخضع لأوامر وقواعد وقوانين دقيقة تضاهى جيوش العصر وبلغ من مجد مدرسة العسكرية المصرية فى ذلك العصر أن بعض معاركها مازالت تدرس حتى الآن فى أعتى الأكاديميات العسكرية فى العالم كنماذج لبراعة التخطيط وطبيعة الأداء.

الابتعاث الجديد

لاخلاف على أن عودة الروح للعسكرية المصرية بعد الانقطاع الطويل هو ماتم إنجازه فى عهد محمد على الذى استطاع أن يبنى جيشا عظيما كان واحدا من أقوى جيوش العالم فى زمنه ولم تكن عملية إنشاء هذا الجيش أمرا سهلا بل كادت محاولة بناؤه كجيش نظامى عصرى تفتك بمحمد على وتطيح به من سدة الحكم فالقوة العسكرية فى الدولة كانت تتألف من «الباشبوزق» ومعنى هذا المصطلح هو القوات شبه النظامية غير الخاضعة للسيطرة وهى أشبه بالميلشيات فى عصرنا الحالى وجانب منهم كان أقرب إلى المرتزقة وكان الباشبوزق فوضويين وغير منضبطين رافضين لتراتبية المنظومة العسكرية وهم فى ذلك الوقت كانوا خليطا من الشراكسة والأتراك والألبان والمغاربة وعندما حاول محمد على أن يصنع منهم قوة نظامية تمردوا عليه وكادوا أن يخلعوه هنا استخدم محمد على دهائه وقام بإعداد مجموعة من الضباط ليكونوا نواة للجيش الذى ينوى بناؤه اهتم أن يعلمهم قواعد العلم العسكرى الحديث وتمت هذه الخطوة الأولى فى مشروعه لبناء جيش عصرى فى مدينة أسوان بعيدا عن أعين الباشبوزق والمتربصين به واستعان لتنفيذ غايته بأحد أمهر ضباط نابليون وهو الكولونيل «چوزيف انتيلمى سيف» الذي عرف بعد ذلك بسليمان باشا الفرنساوى واليه يرجع الفضل الاكبر في تاسيس الجيش المصري على النظام الحديث وعند البدء بالتجنيد فى المرحلة التالية تم إحضار عدة الاف من السوادنيين وبدأت عملية تدريبهم بمدرسة فى «بنى عدى»

لكنهم لم يصلحوا لهذا الدور ونظرا لعدم جدوى تجنيد الاتراك والألبان وغيرهم في الجيش الجديد بسبب مافطروا عليه من حب الشغب والنفور من النظام والطاعة لذلك اضطر فى النهاية إلى تجنيد المصريين وفى البداية وجد إعراض وتهرب من أبناء الشعب بسبب اعتقادهم أن الأمر يرتبط بالسخرة وللحاجة للشباب فى شؤون الزراعة لكن الأمر اختلف بمرور الوقت عندما اتضحت للمصريين طبيعة الجيش فرغم صرامة وصعوبة الحياة العسكرية إلا أن الجنود نالوا رعاية فى المأكل والمشرب والملبس وأماكن الإعاشة والرعاية الصحية مما أفهم الشباب الذين ألحقوا بالخدمة وذويهم أنهم غير مستخدمين فى السخرة.

بناء المؤسسات

أولا: المدارس الحربية

نجح تجنيد المصريين نجاح فاق كل التوقعات مما جعل محمد على يوغل فى التجربة بثقة ويتوسع فى حجم القوات بدرجة كبيرة وعندما تضاعفت أعداد المجندين وصاروا بعشرات الألاف استقدم من فرنسا بعض الضباط الأجانب ليساعدوه علي تنظيم الجيش كما أرسل عددا من ضباطه الشبان إلي أوربا لتلقى العلم العسكرى وحينما عادوا للوطن حلوا محل الخبراء الأجانب في المدارس الحربية التى كانت قد بدأت تتعدد وتتنوع طبقا لقواعد بناء جيش عصرى حديث وهكذا عندما اطمئن محمد على إلى نجاح مشروعة واتسعت قاعدة جيشه بدأ فى إنشاء العديد من المدارس العسكرية التى لامناص عنها لإحداث النقلة اللازمة نحو ارتقاء أوضاع الجيش الجديد علميا وفنيا مثلما هو الوضع فى أقوى جيوش عصره فأنشأ سنة ١٨٢٥ مدرسة قصر العينى الإعدادية للتعليم الحربي وكانت تعرف بالمدرسة التجهيزية الحربية وكان الطلبة يعدون فيها للإلتحاق بالمدارس الحربية العليا ثم نقلت الى ابي زعبل بعد ان خصص قصر العيني لمدرسة الطب وأنشأ ت أيضا لتعظيم قدرات الجيش المدارس العسكرية المتخصصة مثل مدرسة المشاه (البيادة) وكانت بدايتها فى الخانكة ثم انتقلت إلى دمياط واستقرت أخيرا فى أبى زعبل وكانت من أهم المدارس المتخصصة مدرسة الطوبجية (المدفعية) التى أقيمت بطرة وكان طلبتها يدرسون بجانب العلوم العسكرية العامة الحساب والجبر

والهندسة والميكانيكا والرسم الهندسى وفنون الاستحكامات، ويتدربون على رمايات المدفعية وبلغ من علو شأن هذه المدرسة ومايدرس بها أن ألحقت بها مطبعة وزودت بمستشفى وفى أعقاب حرب المورة أنشأ ابراهيم باشا ابن محمد على وقائد الجيش المصرى العظيم فى ذلك العهد مدرسة الفرسان (السوارى) بعد أن لفت نظره أسلوب تنظيم وأصطفاف ومناورة الخيالة الفرنسيين قبل المعارك وأثنائها فادرك اهمية تنظيم الفرسان وعلى اثر عودته الى مصر شرع في تشكيل فرق الخيالة على النظام الاوروبي واستقدم لهذا الغرض عددا من الخبراء الأوربيين واختير لهذه المدرسة قصر مراد بك فى الجيزة وفى الإسكندرية أنشأت مدرسة حربية كما أنشأت مدرسة للموسيقات العسكرية فى الخانكة التى أقيمت بها أيضا مدرسة أركان حرب بالقرب من المعسكر العام للجيش كانت نواتها الاولى ١٨ ضابطا ومدة الدراسة ثلاث سنوات ويعين خريجوها فى وحدات الجيش الرئيسية كما أقيمت فى بولاق مدرسة الهندسة العسكرية وكان طلبتها يتخصصون فى اعمال هندسة الالغام والاستحكامات والكبارى والطرق والترع ونظرا لضخامة أعداد الخيول والبغال المستخدمة فى جيوش ذلك الزمان أنشئت مدرسة الطب البيطرى بجوار المستشفى العسكرى وكان عدد طلابها ١٢٠ وقد تولى ادارتها بعد الطبيب الفرنسى «هامون» المصريون واستقر بها الوضع بعد ذلك فى شبرا ولأن الجيش قام على أسس علمية وتوج بثقافة عسكرية رفيعة كان لابد أن يكون الجنود قادرين على مواكبة التطور الحادث فى كافة المناحى العسكرية فألحقت مدارس لمحو الأمية بوحدات الجيش كافة والاسطول أيضا لتعليم القراءه والكتابة والحساب للجنود، وكانت القيادة تشجع المتفوقين منهم بترقيتهم قبل اقرانهم.

ومن اللافت أن مشروع محمد على لبناء جيش عصرى وقوى كان ذا مردود وتأثير ضخم على سياسته فى مجال التعليم العام فى البلاد بعد مرحلة انحطاط فظيعة نتيجة الاستعمار العثمانى حيث اقتصر التعليم في

عهد العثمانيين على الأزهر والكتاتيب، واندثرت المدارس التي أنشأت في عصر المماليك ويظهر هذا التأثير على سبيل المثال عندما تم تكليف رئيس اطباء الجيش الطبيب الفرنسى «انطوان براثيليمي كلوت» المعروف بكلوت بك بمهمة تنظيم الادارة الصحية للجيش المصري فاهتم بجدية ودأب بتنظيم الأوضاع الصحية ولما كانت الخانكة فى ذلك الوقت مقرا للمعسكر العام للجيش اقترح على محمد علي انشاء مستشفى عسكري بابي زعبل فاقتنع محمد علي باقتراحه وانشا المستشفى الذي صار فيما بعد مستشفى عاما لمعالجة الجنود وغيرهم من أبناء الشعب وصار نموذجا للمستشفيات التي أقيمت فيما بعد وتلى ذلك اقتراحا مثل نقلة نوعية للرعاية الصحية فى مصر وكان الاقتراح ان ينشئ بجوار المستشفى مدرسة لتخريج الاطباء من ابناء البلاد فرحب محمد علي باقتراحه وانشا بابي زعبل سنة ١٨٢٧ مدرسة الطب التي صارت معول بناء النهضة الطبية في مصر وتولى كلوت بك ادارتها ثم نقلت المدرسة ومعها المستشفى الى قصر العيني سنة ١٨٣٧ واستمرت من يومها حتى الآن مقرا لكلية طب جامعة القاهرة ومن اللافت أن من الذين قام بدور جوهرى فى نهضة التعليم العام ابراهيم أدهم باشا الذى أسس الصناعات العسكرية وتولى تطوير المدارس الحربية وقد لعب دوره الهام فى نهضة التعليم العام عندما كلف بوظيفة مدير ديوان المدارس أى وزير التعليم بلغة العصر واستمر فيها عشر سنوات متصلة وفى بضع سنوات متفرقة فيما بعد.

ثانيا: التصنيع الحربى

كان التصنيع الحربى أحد الروافد الرئيسية لارتقاء التصنيع فى مصر فى ذلك العهد فلقد تأسست استراتيجية بناء الجيش على أن تقوم الدولة بتصنيع احتياجاتها من السلاح وكانت النظرة الثاقبة لمحمد على هى أنه لايجب أن يكون جيش مصر تحت رحمة الدول الأجنبية المنتجة للسلاح وهكذا بدأت عمليات تصنيع للمعادن على نطاق واسع من سبك

وصب وتشكيل لصناعة البنادق والمدافع والسيوف بكميات ضخمة تكفى احتياجات الجيش سواء كان القوات البرية أو البحرية ونظرا لأن الذين انخرطوا فى صفوف الجيش بلغ عددهم قرابة ٢٥٠,٠٠٠ (مأتان وخمسون ألف فرد) أقيمت الفابريكات لتصنيع الملابس الازمة لهذا العدد الهائل بمقاييس ذلك الوقت وهكذا خطت مصر نحو نقلة نوعية وكمية غير مسبوقة فى مجال التصنيع الذى تمدد لتغطية كافة احتياجات البلاد غير العسكرية أما عن الصناعات الحربية التى تم إنشائها فقد بلغت مستوى من الإتقان والجودة يضاهى أعظم مايصنع لجيوش ذاك الزمان مما أبهر الجنرال «أوجست مارمون» من أشهر قادة جيش نابليون وعضو الأكاديمية الفرنسية للعلوم فعبر عن ذلك قائلا كما جاء فى كتاب للأمير عمرطوسون «زرت دار الصناعة وعنيت بها فحصا وتقصيا، فالفيت البنادق التي تصنع فيها بالغة من الجودة مبلغ ما يصنع في معاملنا وهي تصنع على الطراز الفرنسي، وتتخذ فيها الاحتياطات والوسائل التي نستعملها نحن لضمان جودة الاسلحة، وتتبع النظام نفسه الذى نتبعه نحن في تصريف العمل وتوزيعه والرقابة عليه، وكل ما يصنع فيها يعمل قطعة قطعة، ومعمل القلعة يضارع احسن معامل الاسلحة في فرنسا من حيث الاحكام والجودة والتدبير» وتلخيصا يمكن القول أن الصناعات الحربية وقتها تمثلت فى المجالات والأماكن الآتية:

كان المركز الرئيسى للصناعات الحربية ترسانة كبيرة ممتدة فى منطقة القلعة بلغت من علو شأنها أنه عندما اندلع بها حريق خرب معظم أجزاء الترسانة وهدم نحو خمسين منزلا من المنازل المجاورة للقلعة وقتل في هذه الكارثة نحو اربعة الاف شخص وكانت أهم الصناعات فى هذه الترسانة صناعة البنادق الذى يعمل به ٩٠٠ عامل ينتجون ٦٥٠ بندقية كل شهر تكلفة كل بندقية اثنى عشر قرشا مصريا وكان لرؤساء العمال مرتبات ثابتة أما العمال فتدفع لهم اجور يومية ولأن السيوف كانت تستخدم على نطاق واسع فى جيوش ذلك الوقت ألحق بهذا

المصنع قسم لإنتاج السيوف والرماح للفرسان وحمائل السيوف وحقائب الجنود وكل ما يلزم لتسليح الجنود من المشاة والفرسان وحاجة الخيل من اللجم والسروج وغيرها.

وكان أعظم مصانع هذه الترسانة مصنع انتاج المدافع الذى كان يستهلك كميات لم يسبق لمصر أن استهلكت مثلها من قبل من الفحم والحديد وحاز هذا المصنع عناية خاصة لأنه كانت تتم فيه الصناعة الأكثر ثقلا من خلال عمليات صب المدافع حيث كان يصنع فيه كل شهر من ثلاثة إلى اربعة مدافع من عيار اربعة وثمانية ارطال وتصنع فيه احيانا مدافع الهاون ذات الثماني بوصات ومدافع يصل قطرها إلى ٢٤ بوصة. وكان بترسانة القلعة مصنع البارود وتسسب تخزينه بها إلى الكارثة التى وقعت فى المنطقة لهذا نقل مصنع البارود إلى المقياس بطرف جزيرة الروضة وروعى فيه أن يكون فسيحا وبعيدا عن المناطق السكنية وتبعه عدة معامل فرعية فى اهناسيا والفيوم والبدرشين والطرانة وإمعانا فى الأمان أقيم مخزن البارود والقنابل فى سطح جبل المقطم ومع ازدياد عدد القوات أنشأ مصنع آخر للبنادق فى الحوض المرصود كان ينتج ٩٠٠ بندقية كل شهرمن مختلف الانواع فمنها مايلبى حاجة المشاة وبالمثل ماهو مخصص للفرسان أوللطوبجية (المدفعية) تماشيا مع الأسلوب المتبع في الجيش الفرنسي وفى إطار الصناعات الحربية أقيمت الترسانة البحرية فى الإسكندرية بعد معركة نافارون التى شاركت مصر فيها لمساعدة السلطان العثمانى ضد الدول الكبرى وهى المعركة التى خسرت فيها مصر عدد كبير من سفن أسطولها ووقتها استقر عزم محمد على على إنشاء ترسانة لصناعة السفن حتى لايعتمد على شراء السفن الحربية من الغرب مما كان يكبد خزينة الدولة مبالغ كبيرة بسبب استغلال السماسرة ومغالاة الدول المنتجة وتم استقدام الخبراء على أعلى مستوى لبناء الترسانة البحرية وأرسلت بعثة إلى فرنسا لإعداد الكوادر وهى البعثة التى ضمت رفاعة الطهطاوى وخصص فى ترسانة القلعة مصنع لإنتاج

الــواح النحــاس الــتي تبطــن بهــا الســفن الحربيــة لوقايتهــا وكانــت هــذه الترسـانة لاتقـل عـن مثيلاتهـا فـى الـدول الكـبرى وصنـع فيهـا أسـطول كان واحـد مـن أعظـم أسـاطيل ذلـك الزمـان.

ثالثا: الحصون والاستحكامات

اهتـم محمـد علـي بوضـع خطـة محكمـة لحمايـة ثغـور البـلاد وتجلـى ذلـك بإقامـة عـدد ضخـم مـن القـلاع والاسـتحكامات للدفـاع عـن عـن الدولـة فاصلـح قلعـة صـلاح الديـن بالقاهـرة وطـور مـن إمكانياتهـا وحسـن خدماتهـا وسـلحها بالمدافـع وبنـى علـى مقربـة منهـا قلعـة اخـرى مقابلـة أعلـى جبـل المقطـم تعـرف بقلعـة محمـد علـي وأمـد طريقـا صاعـدا لهـا مـن قلعـة صـلاح الديـن لتكـون هـذه القلعـة كاشـفة لنطـاق حـول القاهـرة لم يكـن يغطـى فـى مجـال الرؤيـة مـن قبـل واصلـح قـلاع الاسـكندرية وانشـأ عـددا كبـيرا آخـر بهـا وفـى تخومهـا فاسـتدعى لهـذا الغـرض مهندسـا حربيـا مـن فرنسـا متخصصـا فـى فنـون الاسـتحكامات يدعـى «جليـس وانعـم عليـه برتبـة البكويـة وكلفه بدراسـة سـواحل مصـر ووضـع مشـروع لحصونهـا واسـتحكاماتها ولبيـان ضخامـة هـذا المشـروع يكفـى الإشـارة إلى أن الإسـكنرية وحدهـا كان بهـا ٢٧ مـن القـلاع والاسـتحكمات فـى مواقـع طابيـة قايتبـاي وكـوم الناضـورة والدخيلـة والسـلمية والمكـس والقمريـة وطابيـة أم كبيبـة والملاحـة القديمـة والملاحـة الجديـدة ومسـلة فرعـون وقبـور اليهـود القديمـة وقبـور اليهـود الجديـدة وبـرج السلسـلة وبـاب شـرقي وصـالح اغـا وبـاب سـدرة وكـوم الدمـاس والاطلـة والفنـار الكبـير والفنـار الصغـير والـتراب والاسـبتالية الجديـدة والاسـتبالية القديمـة وخلـف منـزل الفرنسـيس والمفحمـة بالإضافـة إلى حصـون أبـى قـير فـى مواقـع قلعـة أبـو قـير وطابيـة كـوم الشوشـة وكـوم العجـوز والسـد نمـرة و السـد نمـرة ٢ والسـد نمـرة ٣ و السـد نمـر٤ وانتشـرت الحصـون والاسـتحكمات فـى كافـة المـدن والمواقـع السـاحلية ذات الأهميـة ومنهـا دميـاط ورشـيد والبرلـس.

قوة الجيش

بلغ حجم الجيش الذى كان عماده الجندى المصرى فى عهد محمد على حدا غير مسبوق ونمت قواته عددا وتسليحا ما جعله الجيش الذى يشار إلى مكانته بعد جيوش الدول الكبرى وتألف هيكله من:

قوات لمشاة:

وكانت تتكون من ٣٠ ألاي في كل ألاى ٤ أورطة (٣ للصف، ١ للاستكشاف). تتكون أورطة الصف من (٤ بلوكات) كل بلوك يتألف من ١٦٠ جندي و٨ جاويش و١٦ أومباشي و٤ ترمبتجي «ضارب الطبل». ويقود الأورطة خمسة ضباط. فيما تتكون أورطة الاستكشاف من (٣ بلوكات) كل بلوك يتألف من ٢١٨ جندي. وكان يتم اختيار جنود المشاة من الشباب الأقوياء أصحاب اللياقة البدنية العالية وسرعة العدو .

الفرسان:

كانت تتكون من ٢٠ ألاى (٨ ألايات منها تستعمل الدروع) في كل ألاى ٦ أورطة (٥ للرماح، ١ للقربينات «بندقية قصيرة»)، كل أورطة تتكون من ١٣٦ جندي يقودهم ٥ ضباط.

المدفعية:

كانت تتكون من مايوازى ٣٠ ألاى ثمانية منها مستقلة والباقى صلب تنظيم مع وحدات المشاه والفرسان ويتكون الألاى المستقل من ١٢ بطارية (٣ راكبة، ٦ للاستحكامات، ٣ للميدان) حيث يتكون ألاي المدفعية الراكبة من (٦ بلوكات) بينما يتكون ألاي المدفعية المشاة من (١٨ بلوك).

قوات المهندسين: ٤

وكانت تتكون من ٤ أورط كل أورطة تتكون من ٨ بلوكات (١ للألغام، ١ للكباري والجسور، ٦ لحمل البلط «بلطاجية»). وتقوم تلك الأورط بإنشاء الحصون والاستحكامات والمعسكرات وعمل الجسور والكباري والطرق واستغلال الغابات والمناجم.

القوات البحرية:

تكونت القوات البحرية من السفن مختلفة الأحجام مثل الغليون أو القباق وهو أكبر أنواع السفن البحرية القديمة حجماً يصل عدد مدافعها الى مائة وستة وثلاثين مدفعاً كبيراً وصغيراً قوتها من الأفراد حوالي الألف بحار وتوازى الآن «البارجة» والفرقاطات وهى القطعة التالية للغليون وتحمل إلى ٦٤ مدفعاً كبيرا وصغيرا و٥٠٠ جندى ويقابلها الآن «الطراد» والقراويط و هى أقل من الفرقاطة وأكبر من الإبريق وتحمل القرويطة من ٢٢ إلى ٤٥ مدفعاً كبيراً وصغيراً وقوتها ٢٠٠ بحار والأباريق والإبريق هو مركب حربي له صاريان مربعان ويحمل من ١٦ إلى ١٨ مدفعا صغيراً و ١٠٠ بحار أما الغولتات مركب حربيٍ ذو صاريتين وهو ضيق وطويل خفيف الحركة ويحمل ٢٢ مدفعاً صغيراً و١٠٠ بحار وأخيرا الكواتر وهو زورق كبير يتصف بالسرعة و يحمل ١٢ مدفعا صغيراً ومن ٣٠ إلى ٥٠ بحارا

وعندما علم محمد علي ان اوروبا ادخلت البخار في سفن أساطيلها أمرعلي الفور ترسانة الإسكندرية ببناء مجموعة من السفن البخارية الحربية والتجارية وفى المجال الحربى ألحق بالأسطول ٣ فرقاطات بخارية مدرعة تسليحها ٣٦ مدفع وهي فرقاطة النيل بخارية انشأت كاملة في بريطانيا وفرقاطة حديدية بنيت في اوروبا و ركبت الاتها في مصر وأخيرا الفرقاطة الشرقية التى بنيت كاملة في مصر و صفحت وركبت الاتها بقوة ٥٥٠ حصان في بريطانيا

تعداد الجيش

كان آخر إحصاء للجيش المصرى فى ذلك العهد الذى تم عام ١٨٣٩ وقد أورده كلوت بك فى كتابه «لمحة عن مصر» وبناء على احصاء كلوت بك الذى كان ذا مكانة نافدة وفرت له مايلزم من وسائل التحقيق والتمحيص كانت أعداد الجنود كالتالى:

جنود نظامية من مشاة وفرسان ومدفعية ١٣٠٢٠٢ جندي جنود غير نظامية (باشبوزق) ٤١٦٧٨ جندي الرديف ٤٧٨٠٠ جندي عمال الفابريقات المدربون على القتال ١٥٠٠٠ جندي طلبة المدارس الحربية الجاهزون للقتال ١٢٠٠ طالب وبذلك كان إجمالى جنود جنود البر فى هذا العام ٢٣٥٨٨٠ جندى يضاف إليهم جنود البحرية وكان يقدرعددهم بحوالى ٣٠ ألف جندى ليصل بذلك الإجمالى العام للجيش المصرى فى عام ١٨٣٩ إلى قرابة ٢٧٠ ألف فرد مابين جندى وضاط صف وضابط وكانت تعداد السكان فى هذا التوقيت يقارب ثلاثة ملايين ونصف نسمة أى أن نسبة المنخرطين فى الخدمة العسكرية كان يقارب ٧٫٨ ٪ من قوة السكان وهى نسبة كبيرة للغاية بلغة العصر إذ يبلغ تعداد جيش الولايات المتحدة الأمريكية أقوى جيش فى العالم الآن مليون و٤٠٠ ألف فرد بينما إجمالى عدد السكان ٣٢٤ مليون نسمة وبذا تكون النسبة بين المنخرطين فى

الخدمة العسكرية من إجمالى عدد السكان ٠,٤٣ ٪ تقريبا وقد بلغت نفقات الجيش المصرى فى ذلك العام ٧٥٤٦٠٤ جنيهاً مصرياً فى وقت قاربت فيه إيرادات الدولة أقل قليلا من ثلاثة ملايين جنيه وكانت حوالى ٢,٨٥٠,٠٠٠ أى أن إجمالى نفقات الجيش بالنسبة لإجمالى إيرادات الدولة كانت ١٩,٦ ٪ مما يعنى أن الجيش كان يستهلك حوالى ٢٠٪ من إيرادات الدولة وهو رقم فادح تحت أى مسمى بمقاييس ذاك الزمان وأى زمان فى إنفاق الدول وإذا كانت طموحات محمد على فى التوسع وبناء إمبراطورية وراء الإنفاق العسكرى إلا أنه كان لهذا التوجه مردود هائل على تحولات البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى الواقع المصرى.

الانعكاس على الواقع

الحياة الاجتماعية

لعب الجيش المصرى فى عهد محمد على دورا هاما فى إحداث نقلة جوهرية للحياة الاجتماعية فالقاعدة الكبيرة من شباب المواطنين التى التحقت بالخدمة العسكرية الإجبارية انتقلوا من حياة العزلة فى قراهم إلى نمط جديد من الحياة اليومية القائمة على النظام واحترام الكرامة بدرجة كبيرة وعلى سبيل المثال كان الضباط الشراكسة والأتراك المتعجرفين ينادون الجنود المصريين بلفظ فلاح للحط من شأنهم لأن الأتراك طوال فترة الاستعمار العثمانى كانوا يعاملون الفلاح المصرى بتجبر وإحتقار وهنا مراعاة لقواعد العسكرية التى كانت متبعة فى جيش نابليون صدرت أوامر حاسمة بعدم استخدام لفظة فلاح مع الجنود ومن هذه الواقعة بدأت تظهر قيمة العسكرية فى ترسيخ الكرامة والحفر نحو مفهوم الكبرياء الوطنى للفرد البسيط الذى وجد نفسه محل عناية فى جوانب الصحة والملبس وتوفير قدر ملائم من الاحتياجات الضرورية والطعام بأسلوب غذائى صحيح لم يكن معروف من قبل وتعود المجندون على أرتداء زى الجندية الذى عرفهم أهمية الملبس العملى المختلف عن الجلباب وقد ترسخت قيمة الفرد فى الجيش المصرى فى الحروب والانتصارات التى خاضها بقيادة إبراهيم باشا قائد الجيش اورغم إنه كان يتصف بالصرامة والقسوة إلا أنه كان لايأكل إلا من نفس أكل الجنود ويرتدى نفس نوعية ملبسهم وينام فى ميادين القتال على الأرض مثلهم وتمثلت النقلة النوعية الأخرى فى جانبين هما التعامل مع أدوات العصر من سلاح ومعدات والتعلم فى

مدارس محو الأمية المنتشرة فى جميع الوحدات لتعليم الجنود الأميين القراءة والكتابة ومبادئ الحساب.

توازيا مع القوة البشرية المنخرطة فى الخدمة العسكرية تحت السلاح والتى اتسعت اتساعا عظيما استوجب تسليحها وتغطية احتياجاتها الإدارية قاعدة صناعات حربية ومدنية ضخمة وهنا انبثقت قوة أخرى تماشيا مع الإرادة السياسية لمحمد على فى الاعتماد على الذات تمثلت هذه القوة فى قاعدة عريضة من العمال والصناع المهرة والكوادر العلمية ونتيجة لهذه الطفرة نمت أطر جديدة لجوانب الإدارة وضبط النواحى التنظيمية والفنية انتجت فئة جديدة من العاملين فى هذه الحقول بعد أن صارت للجيش مخازن ومعسكرات ومبانى (قشلاقات) ومدارس ومستشفيات وهكذا ولدت من كل هذه الفئات طبقة جديدة قوية وفاعلة استجدت على الواقع المصرى غيرت من التركيبة الاجتماعية وهنا تجدر الإشارة إلى أنه مع التباعد عن الدولة العثمانية تعمق التمصر لدى عناصرهذه الطبقة من الأصول غير المصرية وصار ولائهم التام لمصر وعلى سبيل المثال فلقد حارب فى صفوف الجيش عناصر من أصول تركية ومقدونية أبلو بلاء حسنا وقتل منهم قتل فى الحرب مع تركيا بعد أن رست هويتهم كاملة على بر مصر ومن بين قواعد الطبقة الجديدة نشأت هيئة الحكم لدولة حديثة تواكب العصر وبالطبع لم تكن هذه الطبقة مشكلة فقط ممن ارتبطوا بالبعد العسكرى لمشروع محمد على لكن هذا البعد كان حجر زاوية فى بناء الدولة الجديدة ولقد أزاحت الطبقة الجديدة سابقتها من تجار وكبار ومماليك وتراجع نفوذ علماء الازهر الذى استمرعلى نظامه القديم ولم يساير حركة التقدم نتيجة الجمود وانتقل مركز الثقافة من الازهر الى المدارس والمعاهد والبعثات وانكمش العلماء الذين لم يكن لهم دور فى حركة التجديد ووالعمران بعد ان رعت الطوائف التي تخرجت من المدارس الحربية والبحرية ثم المعاهد المدنية لاحقا شؤون الدولة واضطلعت بمهامها.

البعثات والبزوغ الثقافى

تحققت النقلة النوعية فى مشروع النهضة كنتاج لرؤية ثاقبة أدرك من خلالها محمد على أهمية التواصل مع المراكز الحضارية فى الغرب وعندما اكتشف أن استقدام الضباط والعلماء والخبراء الأجانب لن يفى بطموحاته لبناء جيش عصرى ودولة قوية فكر خارج الصندوق وقرر أن يرسل البعثات إلى الدول المتقدمة أو العظمى وفى ذلك الوقت لم يكن أحد يفكر بهذا الأسلوب من الحكام فى دول العالم قاطبة وكان أول من أقدم على هذه الفكرة فيما بعد إمبراطور اليابان عام ١٨٦٢ ومرت بعثته على مصر للتعرف على تجربتها الرائدة ولأن محمد على كان رجل دولة بعيد النظر غير متعصب لعرق أو دين لذلك أوفد البعثات دون اعتبار إلا للجدارة والاستحقاق ففى الأرسالية الأولى إلى إيطاليا كان الإسم الوحيد الذى عرف منها هو الموفد هو «نقولا مسابكى» أفندى لتعلم الطباعة وأسس عند عودته مطبعة بولاق أولى مطابع الشرق لطبع منشورات وكتب وتعليمات الجيش أما عندما بدأت البعثات على نطاق واسع أطلقت البعثة الأولى إلى فرنسا لغاية أساسية هى تلقى العلوم العسكرية ومايتعلق باحتياجات الجيش فى مجالات دراسة الفنون الحربية والادارة العسكرية والهندسة البحرية والمدفعية والملاحة الحربية وصناعة الأسلحة وصب المدافع والكيمياء والميكانيكا والإدارة العامة والقانون وعين رفاعة الطهطاوى أماما للبعثة تحول أثنائها إلى دارس فكان أرفع المبعوثين شأنا وأثرا علما وتنويرا وبعد نجاح التجربة فى مجالها العسكرى توالت البعثات فى كافة مجالات الصناعة والعلوم الطبيعية والإنسانية مع استمرار المجال العسكرى وبلغ إجماليها فى ذلك العهد تسع بعثات شملت مئات الدارسين أولاها محمد على عناية بالغة وكان يتابع بنفسه متابعة حثيثة أحوال المبعوثين أثناء دراستهم فى الخارج وتكشف إحدى رسائله للبعثة الأولى مدى حرصه الشديد على اجتهاد الدارسين وتحصليهم وتعلمهم كل

ماهو جديد من علوم خطا بها الغرب نحو عصر القوة وصارت بها دوله قوى عظمى وجاء فى هذه الرسالة:

«قدوة الاماثل الكرام الافندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، ننهي اليكم انه قد وصلنا اخباركم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة اشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة، وما فهمنا منها شيئا، وانتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون، فقياسا على قلة شغلكم في هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم،وهذا الامر غمنا غما كثيرا، فيا افندية ما هو مامولنا منكم، فكان ينبغي لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله واثار مهارته، فاذا لم تغيروا هذه الباطلة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم الى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم انكم تعلمتم العلوم والفنون فان ظنكم باطل، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة، فكيف تقابلوهم اذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغي للانسان ان يتبصر في عاقبة امره، وعلى العاقل الا يفوت الفرصة وان يجني ثمرة تعبه، فبناء على ذلك انكم غفلتهم عن اغتنام هذه الفرصة. وتركتم انفسكم للسفاهة ولم تتفكروا في المشقة والعذاب الذي يحصل لكم من ذلك ولم يجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا اليكم لتتميزوا بين امثالكم، فان اردتم ان تكتسبوا رضانا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر، ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه في خلاص هذه العلوم، ويكتب في كل شهر ما يتعلمه في هذا الشهر زيادة على الشهر السابق، وان قصرتم في الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه، وهو اما من عدم اعتنائكم، أو من تشويشكم، واي تشويش لكم، هل هو طبيعي او عارض، وحاصل الكلام انكم تكتبون حالتكم كما هي عليه حتى نفهم ما عندكم، وهذا مطلوبنا

منكم، فاقرءوا هذا الامر مجتمعين وافهموا مقصود هذه الارادة، وقد كتب هذا الامر في ديوان مصر في مجلسنا في اسكندرية بمنه تعالى، فمتى وصلكم امرنا هذا فاعملوا بموجبه، وتجنبوا وتحاشوا عن خلاف.»

انفتحت مصر إذن على الآخر الذى كان أكثر قوة وعلما وفكرا وأنتجت هذه البعثات لدى النخبة الجديدة التى تشكلت فى معاهد ومدارس وبيئة الغرب ذهنية جديدة بعيدة عن تراث التغييب والجمود الفكرى وتحجر الرؤية وشهدت مصر حركة واسعة من الترجمة لم تعرفها من قبل طوال تاريخها ودارت المطابع فى أنحاء كثيرة أغلبها كان فى الجيش لتصدر الكتب المترجمة بأعداد ضخمة فى كافة مجالا العلوم الطبيعية وفى القانون والمجالات الفكرية التى لم تكن مصر تعرف عنها شيئا من قبل وانفتح المصريون على العصر الذى كانوا بعيدين عنه حيث كان العثمانيون يحرصون على أن تبقى مصرقابعة فى وهاد التخلف وهكذا أثمرت هذه البعثات نقطة تحول فارقة فى تاريخ هذا الوطن وبدأت الأفكار الجنينية عن الحرية والمواطنة وطبيعة الدولة الحديثة تتوالد وتتكاثر وتحفر فى الواقع الاجتماعى والسياسى للمصريين وكلها أفكار لم يكن محمد على معنيا بها حيث لم يكن يحركه سوى طموحه الشخصى لبناء إمبراطورية كان الجيش أداتها الرئيسية لكن للتاريخ مجراه ودهائه لدى الأمم العريقة وهكذا فى مفارقة غير مسبوقة صار الجيش طاقة النور التى أسبغت ضيائها على العقل المصرى بعد أن طالت عصور الظلام والانحطاط.

مولد الصحافة

لزم التطور فى المجال العسكرى فيما يخص الفرد سواء فى المستويات العليا من الضباط ومساعديهم بصفة خاصة أو المستويات الأدنى من ضباط الصف والجنود بصفة عامة لزم هذا التطور المراجع التى تثبت المعرفة وتوحد المفاهيم لذا أنشئت العديد من المطابع فى معاهد الجيش ومدارسه

لطبع الكتب العلمية فى كافة المجالات بما فيها الطب والهندسة وفى مجالات مانسميه اليوم بالثقافة العامة فتعززت فضيلة القراءة بعد أن انتشر الكتاب والمطبوعة التى تحوى التوجيهات والأوامر والإرشادات على نطاق واسع ومن هذه الزاوية بدأت مصر تعرف مصر الصحافة من خلال الجيش عندما أنشأت المطابع الأميرية كأول مطبعة مصرية بعد الحملة الفرنسية وكانت تقوم بطبع مايحتاج اليه الجيش من الكتب اللازمه للتعليم ونشرماينبغى نشره من القوانين والتعليمات العسكرية ثم صدرت عن هذه المطبعة فى ٣ ديسمبر عام ١٩٢٨ الوقائع المصرية وكانت صفحاتها تقسم طوليا نصفين أحدهما باللغة التركية والأخر باللغة العربية وتصنف إعلاميا بأنها البذرة الأولى في عالم الصحافة المصرية و العربية حيث كانت الصحافة في ذلك الوقت فنا مستحدثا وفى البداية كانت الوقائع المصرية توزع على ضباط الجيش ثم اتسع توزيعها لتشمل موظفي الدولة وطلاب البعثات وكانت مادتها تحتوى على القوانين الصادرة والتعليمات واللوائح ثم طورها رفاع الطهطاوى حيث اهتم بالبعد الخبرى بعد أن عين بها مجموعة من المحررين وصارت افتتاحيتها مقرونة بالمقال السياسى وهكذا أصبح الجيش منطلقا هاما فى تحريك الواقع الراكد فى تفاصيل الحياة العامة للمصريين بعد زمن طويل من نفى المتعلمين بعيدا عن المعرفة ودارت عجلة التغيير نحو بناء الدولة الحديثة ومفهوم المواطنة حتى أن الوقائع المصرية تحولت فيما بعد على يد الشيخ محمد عبده إلى منبر للرأى والتنوير وفيما بعد أيضا شق المواطن المصرى طريقه نحو الصحافة وتعدد إصدارتها من أصحاب الرأى .

هكذا حارب الجيش العظيم

«دولة قوية متماسكة تحقق الإمكانية الواجبة للبقاء فاعلة ومؤثرة لن يتحقق لها ذلك بدون جيش عصرى له من القدرات مايحمى كيان البلاد فى الداخل والخارج» كان هذا هو الدرس الذى خلص إليه محمد على قبل أن يبنى الجيش ويضع لبناته الأولى برعاية سليمان باشا الفرنساوى فى أسوان فمنذ اليوم الأول لتوليه الحكم عاصر الرجل فتن ومؤامرات لم يستطع التغلب عليها - رغم دهائه وقدراته الفائقة على المناورة فى كواليس الحكم - إلا بالقوة المسلحة وهذا ماحدث بعد هزيمة قواته فى النجيلة من الألفى الذى حاصر دمنهور بعد أن نصبه الأتراك الذين تواطؤ معهم هم والبريطانيين حاكما على مصر لكنه توفى أثناء هذا الحصار فقاد محمد على تجريدة كبيرة على المماليك الذين يهددونه فى صعيد مصر نجح فيها فى التخلص منهم واضطر للعودة سريعا للقاهرة بعد احتلال البريطانيين للإسكندرية وحصارهم مدينة رشيد فى أعقاب هزيمتهم داخلها ونجحت قوات المدد التى وصلت البحيرة فى هزيمة قوات الاحتلال هزيمة منكرة فى موقعة الحماد وكانت كل هذه الأحداث خلال عامين فقط من توليه الحكم ثم أضطر بعد مماطلة طويلة إلى القيام بحملة عصيبة ضد الوهابيين فى الجزيرة العربية لكنه نجح فى النهاية فى بسط نفوذه عليها وبعدها أدرك أنه لن يفلح فى البقاء فى سدة الحكم وتحقيق طموحه الشخصى وتأمين مجاله الحيوى ضد أطماع العثمانيين ومؤامرتهم وكذا بريطانيا التى تتنمر له إلا بعد بناء جيش قوى اضطر فى نهاية المطاف بعد أن شرع فى بنائه إلى

الإستعانة بالمصريين كجنود يحملون على كاهلهم عبأ الحروب والمعارك وهذا مانجحوا فيه بجدارة منقطعة النظير جعلتهم مضرب الأمثال فى كل ماخاضوه من معارك وحروب طاحنة فى كريت والموره وسافكتريا **وتريپولتسا وتريپ** ولي وكلاماتا واركاديا حتى استولوا على المورة كاملة وأخضعت لسيطرة القوات المصرية التى حققت انتصارت باهرة بعد أن كان الجيش التركى الجرار قد انهار انهيارا كاملا أمام الثوار اليونانيين فى حربهم للإستقلال وفى مرحلة تالية خرج الجيش المصرى يطوى المسافات والمدن والحاميات حتى استولى على الشام كاملة وتقدم ليحتل ولاية أدنة فى الأناضول وبعدها دارت معركة كبرى فى موقعة قونية انتصر فيها الجيش المصرى انتصارا ساحقا مما فتح الطريق إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية في طريق ليس به جيش ولا مقاومة فهبت أوروبا لتنقذ الخليفة الذى تداعى فعقد «صلح كوتاهية» الذى بسط سيطرة محمد علي الشام وإقليم أدنه مع تثبيت الأستانة له على مصر وكريت والحجازمقابل جلاء الجيش المصري عن باقي الأناضول لتتسع حدود مصر الشمالية وتصل إلى مضيق كولك بجبال طوروس لكن الأتراك كعادتهم نقضوا الاتفاق وقاموا بهجوم كبير على الجيش المصرى حيث دارت المعركة فى نصيبين فانهزم العثمانيون هزيمة نكراء بعد ساعتين من بدء المعركة ومنيوا بخسائر فادحة بلغت ٤ ألاف مابين قتيل وجريح وأسر ١٥ ألفا فقضت هذه المعركة على القوة الحربية للعثمانيين ونظرا لقسوة هذه الهزيمة لم يتحملها السلطان الذي توفي بعدها بأيام وجن جنون الأروبيون عندما علموا بوجود توجها بين بعض العثمانيين للالتفاف حول محمد أملا فى إنقاذ الدولة العثمانية من التفكك وتماهيا مع هذا التوجه انضمت جميع وحدات الأسطول العثماني للأسطول المصرى في الإسكندرية وفي ذات التوقيت كان الجيش المصري يحتل ميناء البصرة ويتقدم باتجاه الأحساء والقطيف وعند هذا الحد تكالبت أوروبا كاملة بكل قواها بعد أن دوت مدافع محمد على على مقربة من آذانها م لتمنع مولد إمبراطورية جديدة قوية

وفتية ستصبح حجر عثرة أمام أهدافها الإستعمارية ومصالحها وانتهى الأمر بإبرام معاهدة لندن التى قلصت من نفوذ محمد على.

بعد وفاة محمد على جرت مياه فى النهر وتغيرت أحوال مصر صعودا وهبوطا ازدهارا وانكسارا لكن المياه التى جرت لم تجرف حصون المعرفة وقلاع التنوير وصار لمصر جيش عاد بعد أزمنة طويلة ليبقى لتنطوى صفحة كئيبة من الاستبعاد والإقصاء تكبدتها مصر بعيدا عن شرف الجندية بعد أن سطرت صفحة جديدة لم تكن غاية محمد على فيها ما آلت إليه البذرة التى غرسها صفحة جديدة لم تكن فقط فى تاريخ العسكرية المصرية ولكن فى تاريخ هذا الوطن الذى غادر عصور الظلام والانحطاط من بوابة الجيش الذى مر منذ ذلك الوقت بمراحل من التراجع والضعف و القوة والمنعة حتى صار اليوم أقوى جيوش المنطقة العربية .

الجيش المصري في مواجهة التدخل الأجنبي

الثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢م) نموذجاً

د. نبيل السيد الطوخي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

كلية الآداب - جامعة المنيا

كان الجيش المصري عبر العصور القلب النابض لمصر وشعبها وتاريخها وتراثها، وكان الجيش المصري القديم هو أقدم وأعرق مؤسسة عسكرية في التاريخ، وكان ذلك الجيش هو الدرع والسيف الذي عمل على حماية مصر القديمة ومنجزاتها الحضارية العظيمة من قوى العدوان والتخريب والهجمات البربرية. كان هذا الجيش هو الحصن الحصين والدرع الواقي لمصر القديمة ولحضارتها الشامخة في مواجهة كل من تسول له نفسه الإعتداء على حدودها المقدسة، والحامي لأمن مصر من أي تهديد قد يواجهها[1] ويستقر الرأي لدى الباحثين في مجمل تاريخ العالم على أن المصريين هم أول من قدم فكرة الجيش كقوات نظامية تقوم بالدفاع عن البلاد من هجمات القبائل العابرة أو الطامعين في خيرات البلاد بعد نشأة ومولد كيان الدولة ذات الحضارة الزراعية المستقرة على ضفاف النيل،[2] وكفاح الجيش المصري ضد الغزاة والأعداء كفاح متصل عبر التاريخ، وصفحات التاريخ قد سجلت للجيش المصري مواقفه الخالدة ضد هؤلاء الغزاة منذ أول استعمار في تاريخ مصر وهو غزو الهكسوس لها حوالي عام ١٧٣٠ ق.م[3] وكانت تلك المعارك الحربية الضارية التى خاضها الجيش المصري من أجل تحرير بلادهم من دنس الغزاة الهكسوس صفحة مجيدة

---

١ - د. محمد رأفت عباس. الجيش في مصر القديمة عصر الدولة الحديثة (١٥٥٠ - ١٠٦٩) ق.م الجزء الأول، الخصائص والشئون العسكرية، سلسلة الجيش المصري، سلسلة تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالتعاون مع الشئون المعنوية للقوات المسلحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥ . ص٣٣. وجدير بالذكر أن الجندية في مصر القديمة كانت من أهم المهن التى تسبغ الشرف على صاحبها، وتمنحه ميزة - إن لم تكن ميزات - على أقرانه، بل أكثر من ذلك فإن الجندي حظى بالتقدير والأحترام مثلما حظى الكاهن نفسه لمزيد من التفاصيل انظر. د. عبد الرحمن زكي. الجيش في مصر القديمة، سلسلة الجيش المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠١٤، ص٦.

٢ - عميد: طارق الحريري. جيش الوطن في العصر الحديث، قراءة جديدة لمراحل تطور ودور العسكرية المصرية (الحلقة الأولى) مقال منشور بمجلة المصور، عدد رقم ٤٧٨٥ بتاريخ ٢٠١٦/٦/٢٢مص ٤٦.

٣ - د. عبد الرحمن زكي . المرجع السابق. ص١٣٤، د. محمد رأفت عباس. الجيش في مصر القديمة عصر الدولة الحديثة ١٥٥٠ - ١٠٦٩ ق . م، الجزء الثاني الحروب والمعارك، سلسلة الجيش المصري، سلسلة تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالتعاون مع الشئون المعنوية للقوات المسلحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥. ص٦٣ وما بعدها.

تعجـز عــن وصفهــا الكلمــات في تاريــخ مصــر القديمــة، ومــن ثــم فقــد أدرك المصريــون وقتهــا مــا للقــوة الحربيــة مــن أهميــة كــبرى وبالغــة في ســبيل تحقيـق الأمـن والأمـان والاسـتقرار، وظـل الجيـش المصـري منـذ ذلـك الوقـت يقـوم بـدوره في مواجهـة كل القـوى الطامعـة في مصـر عـبر العصـور، وحققت العسـكرية المصريـة انتصـارات عديـدة وهـي تواجـه الأعـداء، وكان الجيـش المصـري ولا يـزال المدرسـة الكـبرى للوطنيـة المصريـة ومصنـع القيـادات الواعيـة التـي لعبـت دورا مهمـا في تاريـخ مصـر عـبر العصـور.

وسـوف نعـرض لـدور الجيـش المصـري في مواجهـة التدخـل الأجنـبي في وقت وصـل فيـه التدخـل الأجنـبي مـداه، وزاد التذمـر مـن ضعـف الحكومـة وسـوء إدارتهـا وتهاونهـا في حقـوق المصريـين، وتخاذلهـا أمـام التدخـل الأجنـبي، وكان لهـذا كلـه أكـبر الأثـر في قيـام الثـورة العرابيـة (١٨٨١ – ١٨٨٢) وفي أن يكـون الجيـش المصـري طليعـة الحركـة الثوريـة في مصـر وقوتهـا الدافعـة.

أحوال الجيش قبيل قيام الثورة العرابية:

نجـح محمـد علـى في تأسـيس جيـش حديـث مـن المصريـين منـذ عـام ١٨٢٠ واسـتطاع هـذا الجيـش المصـري الجديـد أن يثبـت جدارتـه الحربيـة في المعـارك التـى خاضهـا في أوروبـا أثنـاء ثـورة المـورة وفي الشـام أثنـاء حـروب محمـد علـى ضـد السـلطان العثمانـى[٤]، وكانـت سياسـة محمـد علـى تقضـي بعـدم منـح المصريـين وظائـف كـبرى في الجيـش[٥] لأنـه لم يكـن يثـق فيهـم كقـادة

٤- د. نبيـل السـيد الطوخـي. تاريـخ مصـر الحديث (١٥١٧ - ١٩١٤). دار التيسـير للطباعة والنشـر، المنيا ٢٠٠٧، ص ص ١٢٢، ١٢٣، ولمزيـد مـن التفاصيـل انظـر. عبد الرحمن الرافعي. عصر محمد على، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٨٢. ص ٣٢٢ وما بعدها، عمر طوسون. صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد على الجيش المصري البري والبحـري، مكتبـة مدبولـي، القاهـرة ١٩٩٠ ص ٣٥ وما بعدها، د. فطين أحمد فريـد على. صفحات من تاريـخ مصـر الحديـث، الطبعة الأولى، القاهـرة ٢٠٠٧، ص ١٥ وما بعدها.

٥- د. الكسـندر شـولش. مصـر للمصريين أزمة مصر الاجتماعيـة والسياسـية ١٨٧٨ - ١٨٨٢، تعريب د. رءوف عبـاس حامـد. دار الثقافة العربية القاهرة، ١٩٨٣. ص٣٤

ولا كضابط حيث خاف على سلطته منهم[٦]، وعندما كتب إبراهيم باشا بن محمد على إلى أبيه طالباً فتح باب الترقي أمام المصري للرتب العليا والقيادية رد عليه قائلاً: «ومن المعلوم يا ولدي أنني تجنبت حتى الآن ترقية العرب إلى الرتب العليا، وظللتُ محجما عنها مدة طويلة مقدراً النتائج التى ستترتب عليها بعد مائة سنة»[٧].

لقد كان محمد على يدرك بثاقب بصيرته وقدرته على تكوين رؤية مستقبلية أن المصري لن يتوانى عن الثورة على حكم أسرة محمد على إذا ما تولى المصري المراكز القيادية. ولقد كان محقاً في توقعه ولكن بعد أربعين عاماً فقط وليس بعد مائة عام.

وعندما تولى سعيد حكم مصر (١٨٥٤ – ١٨٦٣) أمر بانتظام أولاد العمد والمشايخ في سلك الجندية، وترقيتهم إلى رتبة الضابط من تحت السلاح[٨] وكان أحمد عرابي ورفاقه من زعماء الثورة العرابية من بين الفلاحين الذين دخلوا الجيش في عهد سعيد وترقوا إلى مراتب الضباط[٩]. ويرى البعض أن هذه الخطوة كانت من أهم الخطوات التى جعلت الجيش المصري يتصدر الحركة الوطنية[١٠].

ولما كان سعيد محباً لتقدم المصريين، فقد أرتقى في عهده الكثيرين منهم إلى المراتب العسكرية العالية ومنهم أحمد عرابي فقد وصل من رتبة جاويش إلى رتبة قائممقام (عقيد) في أقل من ست سنوات، وكان عرابي

٦- د. لطيفة محمد سالم. القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١، ص ٩٧.

٧- نقلاً عن. د. عبد العزيز سليمان نوار. تاريخ مصر الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٨. ص ٣٣٥.

٨- أحمد عرابى. مذكرات الزعيم أحمد عرابي كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية، دراسة وتحقيق د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي، المجلد الأول، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥، ص ص ١٣، ٩١.

٩- د. نبيل السيد الطوخي. المرجع السابق. ص١٥٣.

١٠- د. لطيفة محمد سالم. المرجع السابق. ص ٩٨.

أول من حصل على رتبة قائمقام من المصريين على حد قوله [١١].

وجاء إسماعيل إلى الحكم (١٨٦٣ – ١٨٧٩) ولم يكن نصيراً للضباط المصريين وكان يميز الضباط الشراكسة[١٢] والترك عليهم في المعاملة رغم ما بدا منهم من العجز والجهل وعدم الكفاية، مما ظهر أثره جلياً في الهزائم التى حاقت بالجيش سنة ١٨٧٥ – ١٨٧٦ في حرب الحبشة[١٣] وعاد عرابي ورفاقه من الضباط الوطنيين الذين اشتركوا في حرب الحبشة وقد نمت في أذهانهم بذور الثورة على الأوضاع القائمة[١٤] .

ولم تلبث الوزارة الأوروبية الأولى التى كان يرأسها نوبار باشا[١٥] أن أدركت مصدر الخطر على الوصاية الأجنبية والنفوذ الأجنبي الزاحف، وهو الجيش، فعمدت في غير ذكاء إلى الاصطدام به وتصفيته بإنقاص عدده بحجة أن الحكومة عاجزة عن الإنفاق عليه، إذا أن معظم إيرادات الحكومة خُصصت لأداء أقساط الديون، فرأت تسريح عدد كبير من الجند، وقررت إحالة ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش دفعة واحدة إلى الاستيداع، ولم يكن الضباط قبل هذا القرار ينالون رواتبهم بانتظام، إذ كان متأخراً لهم

---

١١ - أحمد عرابي. المصدر السابق، المجلد الأول، ص ص ٩٢، ٩٣، د. سمير محمد طه. أحمد عرابي ودوره في الحياة السياسية المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.ص ٢٠.

١٢ - الشراكسة من العنصر القوقازي الأبيض، وأصلهم من بلاد القوقاز وقد وفدوا إلى مصر منذ عصر الدولة الطولونية وعلا نجمهم بعد الفتح العثماني لمصر واستمر في عهد محمد على وأسرته. نقلاً عن. أحمد عرابي المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٣، هامش٤، ولمزيد من التفاصيل عن الشراكسة في مصر في القرن التاسع عشر، انظر. د. حلمي أحمد شلبي. الأقليات العرقية في مصر في القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٣، ص ٩٧.

١٣ - عبد الرحمن الرافعي. الزعيم أحمد عرابي. كتاب الهلال، العدد رقم ١٠، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٢. ص ١٦.

١٤ - د. لطيفة محمد سالم. المرجع السابق. ص ١٠٢، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى. قيادة الثورة العرابية. منشور في مصر للمصريين مائة عام على الثورة العرابية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٨١. ص ٢٠٩، هامش٨.

١٥ - لمزيد من التفاصيل عن هذه الوزارة انظر. د. يونان لبيب رزق، تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨ - ١٩٥٣، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨، ص ٥٥ وما بعدها.

مرتبات عشرين شهراً، وهذا وحده كان يكفي لتبرمهم واستيائهم[١٦] فقاموا بمظاهرة يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩، وقد ترتب عليها سقوط وزارة نوبار في ١٩ فبراير سنة ١٨٧٩[١٧] وكان ذلك أول تدخل حقيقي للجيش في النظام السياسي[١٨] منذ تكوين الجيش النظامي في عهد محمد على[١٩]

هزت حركة الضباط وبعنف تلك الطاعة التى ألفوها، وغمرتهم الأحاسيس بأنهم أصبحوا أقوياء، وأثبتت أن هناك تآزراً بين العسكريين والمدنيين، فأعلن علماء الدين تأييدهم للحركة وأفتوا بشرعيتها، وساند الأعيان مطالبها، وتجلى سخط المصريين على ما هو قائم، ومن ثم عُدَّت مبشراً ونذيراً لثورة قادمة [٢٠].

الجيش والثورة:

منذ مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ تفشى السخط والقلق في صفوف الجيش المصري[٢١] وتذمر الضباط الوطنيون، من سوء معاملة عثمان رفقي ناظر الجهادية (وزارة الدفاع) للضباط الوطنيين، وتعصبه لأبناء جلدته من الشراكسة، كما أنه أخرج معظم الضباط المصريين من الجيش إلى المعاش قبل السن القانوني، ويضاف إلى ذلك أنه سن قانون للقرعة العسكرية في ٣١ يوليو سنة ١٨٨٠ يمنع بمقتضاه الترقي من تحت السلاح إلى رتبة

١٦ - عبد الرحمن الرافعي. عصر إسماعيل، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢. ص ١٨٨.

١٧ - نفس المرجع، ج٢، ص ١٨٩ وما بعدها.

١٨ - د.أحمد بيلي. الصفوة العسكرية والبناء السياسي في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣. ص ٢٠٣

١٩ - أحمد شفيق. مذكراتى في نصف قرن، الجزء الأول من سنة ١٨٧٣ إلى ٨ يناير سنة ١٨٩٢، الطبعة الأولى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٣. ص٣٥.

٢٠ - د. لطيفة محمد سالم. التدخل الأجنبي والثورة الوطنية (١٨٧٩ - ١٨٨٢) منشور في. المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تقديم ومراجعة يونان لبيب رزق، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٩. ص٣٠٣.

٢١ - د. أحمد عبد الرحيم مصطفى. مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢. الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة ٢٠١٢. ص ١٣٥.

الضباط مما يعوق ترقي الجنود المصريين وحرمانهم من الوصول إلى أي رتبه، بل ويجعلهم أنفاراً تحت تسلط الضباط من الأتراك والشراكسة[٢٢] وقد دفعت كل هذه المظالم الضباط الوطنيين إلى التذمر، وعلى أثر ذلك تجمع الضباط المصريون في منزل أحمد عرابي (١٦ يناير ١٨٨١) لمناقشة وضعهم داخل الجيش، وأسفر الاجتماع عن تزعم أحمد عرابي لحركة مطالب الضباط وكتبوا عريضة تطالب رئيس مجلس النظار (الوزراء) بعزل ناظر الجهادية وتعيين مصري مكانه[٢٣].

ولم يكن من المتوقع أن تستجيب الحكومة لمطلب الضباط، بطبيعة الحال، بل تقرر اعتقال زعمائهم وتقديمهم للمحاكمة العسكرية وهم: أحمد عرابي، وعلى فهمي، وعبد العال حلمي، وفي أول فبراير سنة ١٨٨١ عقد مجلس عسكري لمحاكمتهم بديوان ناظر الجهادية بقصر النيل، وأثناء المحاكمة كان زملاء الضباط قد خرجوا على رأس فرقهم العسكرية وهاجموا مقر المحاكمة، فهرب المجلس العسكري، وخرج الضباط الثلاثة ومعهم بعض فرق الجيش وتوجه الجميع إلى قصر عابدين، وطلبوا من الخديو توفيق (١٨٧٩ – ١٨٩٢) عزل ناظر الجهادية وأصروا على البقاء، حتى تجاب مطالبهم، فصدر الأمر بعزل عثمان رفقي وتعيين محمود سامي البارودي ناظر للجهادية في أول فبراير سنة ١٨٨١[٢٤]، وقد ترتب على هذا الحادث نتائج خطيرة، فانتصار العسكريين قد منحهم الثقة بأنفسهم

---

٢٢ - لمزيد من التفاصيل انظر. أحمد عرابي. المصدر السابق، المجلد الأول ص ٢٢٥ وما بعدها، عبد الرحمن الرافعي. الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣، ص ٨٨ وما بعدها. د. عبد المنعم الدسوقي الجميعي. وقائع الثورة العرابية دراسات وثائقية. منشور في. مصر للمصريين مائة عام على الثورة العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٧٧، د. لطيفة محمد سالم. القوى الاجتماعية في الثورة العرابية، ص ١٥٢ وما بعدها.

٢٣ - عبد الرحمن الرافعي. المرجع السابق. ص ص ٨٩، ٩٠، د. عاصم الدسوقي. محاضرات في معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، الطبعة الثالثة، مؤسسة (ابن خلدون)، القاهرة ٢٠٠٨. ص ١٠٨، د. أحمد بيلي. المرجع السابق. ص ٤٠٤.

٢٤ - د. عاصم الدسوقي. المرجع السابق. ص ص ١٠٨، ١٠٩، د. نبيل السيد الطوخي. المرجع السابق. ص ٢٠٠. ولمزيد من التفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعي. المرجع السابق. ص ٩٣ وما بعدها.

وبمقدرتهم على تغيير الأوضاع القائمة وفق ما يشاءون كذلك كان لهذا الانتصار صدى قويا فى الأوساط الشعبية [٢٥]، فقد بارك الشعب حركة الضباط حيث وجد فيها تنفيساً عن آلامه وتقديراً لآماله فى التخلص من ربقة التدخل الأجنبى، كما أصبح عرابى وزملاؤه موضع اعجاب الأمة وتقديرها وتردد اسمه على أفواه الناس كأول فلاح مصرى يقف فى وجه الطغيان ويعبر عن آمال الشعب وآلامه، فلم تمض عدة أسابيع على حاث قصر النيل حتى انهالت عرائض الفلاحين من جميع أنحاء البلاد على عرابى يبثون إليه شكواهم وما يقع عليهم من مظالم ففتح عرابى قلبه للجميع[٢٦]، ولما اطمأن إلى أن الجيش فى قبضة يده، والأمة تناصره، شرع فى أحداث الانقلاب الذى كان يرجوه فى نظام الحكم، أو بعبارة أخرى أخذ يتأهب لمتابعة الثورة التى بدأها يوم أول فبراير ١٨٨١[٢٧].

وجد الخديو أن نفوذ الضباط أخذ فى الازدياد، فبدأ يعمل على تحجيم وضعهم وتحديد نفوذهم بمختلف الوسائل، فعزل البارودى وولى مكانه صهره داود يكن، والحق أن الخديوى كان يتآمر بغية الحاق الهزيمة بعرابى والقادة العسكريين الوطنيين[٢٨]، وقد انتهى الأمر بأن وضع الجيش نفسه لأول مرة منذ العصر الفرعونى موضع القوة المنفذة لإرادة القوى الوطنية ، وتمثل ذلك فى اتفاق عرابى مع زملائه على حشد الجيش لمواجهة الخديو فى ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١،

---

٢٥ - د. محمد محمود السروجي، الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة ٢٠١٢، ص ٤٣١

٢٦ - د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى، المرجع السابق، ص ٧٩

٢٧ - عبد الرحمن الدافعى . الزعيم أحمد عرابى، ص ٥٣ .

٢٨ - د. احمد عبد الرحيم مصطفى ،، الثورة العرابية، سلسلة المكتبة الثقافية، عدد رقم ٣٠، دار القلم، القاهرة ١٩٦١. ص ص ٥٧، ٥٨، د . أنور عبد الملك دور الجيش فى الثورة الوطنية المصرية ١٩٥٢ - ١٩٦٧ . منشور فى . فريق من الباحثين بإشراف الدكتور أنور عبد الملك، الجيش والحركة الوطنية مصر، فيتنام، باكستان، إندونيسيا، اليابان، الصين، الكونغو، ترجمة حسن قبيسى، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢ - ص ٦٢

وبالفعل سار عرابى إلى ميدان عابدين بفرقته وفرق زملائه من فرسان ومشاه ومدفعية، يحوط بهم آلاف من أفراد الشعب، وتقدم عرابى إلى الخديو بمطالب الأمة وهى :

١. اسقاط وزارة رياض باشا والغرض من هذا المطلب اسقاط الوصاية الأجنبية التى تمثلها هذه الوزارة .

٢. دعوة البرلمان إلى الإنعقاد . والهدف منه إسقاط نظام الحكم المطلق .

٣. زيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف . والغرض منه توفير الأداءة الرئيسية التى لا غنى عنها لدعم الاستقلال وحماية البلاد .

٤. التصديق على جميع القوانين العسكرية السابق وضعها إبان تولى البارودى نظارة الجهادية، والغرض من هذا المطلب تحسين حالة الضباط والجنود والحفاظ على حقوقهم [٢٩] .

ويرد الخديوى توفيق على عرابى قائلاً « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد احساننا «فرد عرابى بجملته الخالدة» نحن خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثا وعقاراً فوالله الذى لا إله إلا هو أننا لا نورث ولا نستعبد بعد هذا اليوم» [٣٠].

وكان لابد أن ينحنى الخديو مرة أخرى للعاصفة، فالجيش والشعب من وراء عرابى، فأقال رياض فى الحال وكلف محمد شريف باشا بتشكيل الوزارة مرة أخرى فتألفت فى ١٤ سبتمبر ١٨٨١ حيث عاد البارودى فيها ناظراً للجهادية مرة أخرى، وسافر عرابى على رأس فرقته

---

٢٩ - لمزيد من التفاصيل أنظر، أحمد عرابى، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٩٧ وما بعدها، عبد الرحمن الرافعى . الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى، ص ١٢٤ وما بعدها، د. لطيفة محمد سالم . التدخل الأجنبى والثورة الوطنية، ص ص ٣١٨، ٣١٩، د. عبد العظيم رمضان . الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ - ١٩٣٦) مكتبة الأسرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٠، نبيل السيد الطوخى . المرجع السابق ص ٢٠١ .

٣٠ - أحمد عرابى . المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٩٩ .

إلى رأس الوادى بالشرقية، كما رحل عن القاهرة أيضا عبد العال حلمى بفرقته وبذلك كف - مؤقتاً - تدخل الجيش فى السياسة[٣١]. وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على أن احمد عرابى لم يكن من النوع الذى يسعى إلى السلطة والثورة من أجل الحكم، وإنما كان يضع مصالح وآمال مصر أمام أى هدف آخر [٣٢] .

ويرى البعض أن عرابى بعد ثورة ٩ سبتمبر ١٨٨١ أصبح حاكم مصر الحقيقى، وبرز باعتباره زعيماً وطنياً وشعبياً وديمقراطياً فى نظر المصريين، وأصبح مصدر السلطة الحقيقية فى مصر بعد انتصاره فى ملحمة عابدين يظاهره الجيش والأمة فى وقت واحد [٣٣]

التدخل الأجنبى السافر :

وبعد تأليف شريف وزارته قدم طلباً إلى الخديو توفيق بدعوة مجلس شورة النواب للإنعقاد، ووافق الخديو، وأجريت الانتخابات، وعقد مجلس شورى النواب أولى جلساته فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١، ورأت إنجلترا وفرنسا فى تشكيل مجلس النواب ما يمثل خطورة على مصالحهما، لأن قيام نظام برلمانى سوف يجعل من التدخل الأجنبى الأوروبى أمراً صعباً، على حين أن نظام الحكم المطلق المستبد يسهل أمور التدخل،

---

٣١ - د. أحمد زكريا الشلق . تطور مصر الحديثة فصول من التاريخ السياسى والاجتماعى، الهية العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١١، ص ١٦٦ . ولمزيد من التفاصيل عن وزارة محمد شريف باشا الثالثة ١٤ سبتمبر ١٨٨١ - ٤ فبراير ١٨٨٢ أنظر . د. يونان لبيب رزق - المرجع السابق، ص٩٢ وما بعدها .

٣٢ - د. عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص ٩٢، وجدير بالذكر أن عرابى رفض الخضوع للسطان العثمانى مقابل كرسى الخديوية، لأنه يعادى التدخل الأجنبى لا لمصلحة السلطان وإنما لمصلحة مصر، وكان عرابى لا يريد إلا تحرير بلاده وليس له طمع أصلاه فى الاستئثار بالمنافع الشخصية . لمزيد من التفاصيل أنظر . د. رفعت السعيد الأساس الاجتماعى للثورة العرابية، الطبعة الثالثة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤ . ص ١٣٢ وما بعدها .

٣٣ - د. لويس عوض - تاريخ الفكر المصرى الحديث من عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩، الجزء الثانى، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠١ ـ، ص ١٨٧ .

وعلى هذا فقد أرسلت الدولتان مذكرة مشتركة فى ٧ يناير ١٨٨٢ توحى كلماتها بالاستياء من قيام نظام برلمانى فى مصر، وتذكر صراحة أن هذه الأحداث توجب التدخل لحماية عرش الخديو [٣٤] .

وقد قوبلت هذه المذكرة بثورة عارمة أدت إلى تكاتف الجيش والوطنيين ومجلس النواب ضد إنجلترا وفرنسا، ومع أن الحكومة رفضت المذكرة فإن الخديو قبلها بالشكر والعرفان مما كان له أبعد الأثر فى تطول الحوادث فقد نجحت إنجلترا وفرنسا بذلك فى زيادة الهوة والإنقسام بين العرابيين والخديو [٣٥]، ولم يكتفيا بذلك، إذ طلب قنصلا الدولتين من شريف باشا بإيعاز من الرقيبين الأوربيين ألا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية، وقدما فى ٢٦ يناير ١٨٨٢ مذكرة بهذا المعنى [٣٦]

وتحرج موقف شريف باشا وعرض على النواب تأجيل النظر فى الميزانية غير أن النواب تمسكوا بحق المجلس فى إقرار الميزانية باعتبار أن ذلك حق من حقوق الأمة الممثلة فى المجلس النيابى، وأمام اصرار الطرفين على موقفهما بالنسبة لمناقشة الميزانية استقال شريف باشا، وتألفت وزارة البارودى فى ٤ فبراير ١٨٨٢ واعتبرت وزارة العرابيين، حيث عين عرابى ناظراً للجهادية والبحرية فى الوزارة الجديدة التى وضعت برنامجاً شاملاً للإصلاح، وبادرت الوزارة بإعلان الدستور فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ وإقرار حق مجلس النواب فى مناقشة الميزانية، وهنا احتج الرقيبان الانجليزى والفرنسى وطالباً قنصليهما بالتصرف [٣٧]

٣٤ - د. عاصم الدسوقى، المرجع السابق، ص ص ١١١ ، ١١٢ . ولمزيد من التفاصيل عن نص المذكرة المشتركة ومعانى فقراتها أنظر، د. محمد فؤاد شكرى . « مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ - ١٨٩٩ ـ الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م ص ١٩٥ وما بعدها .

٣٥ - د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى . المرجع السابق . ص ٨٥ .

٣٦ - عبد الرحمن الرافعى - المرجع السابق، ص ١٨٢ ، د . أحمد بيلى، المرجع السابق . ص ٢٢٣ ، د. صبرى حافظ . فى منفى العرابيين، الحلقة رقم ٤ بعنوان . خيانة الثورة .. ومؤامرات الثورة المضادة، منشور فى صحيفة التحرير بتاريخ ٢٣ نوفمبر ٢٠١٣ . ص ١٥ .

٣٧ - د. عاصم الدسوقى . المرجع السابق . ص ص ١١٢ ، ١١٣ ، نبيل السيد الطوخى . المرجع السابق . ص ٢٠٣ ،

مؤامرات الثورة المضادة :

وكانت الصعاب تكتنف الثورة من كل جانب بحيث عرقلت تحقيق أهدافها الإصلاحية وحولت جهودها إلى مكافحة الأعداد الداخليين والخارجيين، فلكى يثبت الثوار الوضع الجديد كان لزاما عليهم أن يطهروا الجيش من أعداء الثورة وأن يحاولوا القضاء على المحسوبية فى صفوفه لمصلحة الأتراك والشراكسة، ولهذا أحالوا منه قرابة ثلاثمائة ضابط إلى الاستيداع، وتآمر هؤلاء الأعداء والشراكسة الذين كان يتزعمهم عثمان رفقى مع القوى المعادية للثورة لتدبير انقلاب يهدف إلى مقتل عرابى وقادة الجيش من الوطنين وزعماء الحركة الوطنية، غير أن هذه المؤامرة اكتشفها الثوار، وأجرى التحقيق مع المتآمرين وحكموا على أربعين منهم وعلى راسهم عثمان رفقى فى ٣٠ أبريل ١٨٨٢ بالنفى المؤبد إلى أقاصى السودان، مع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين [٣٨]، ورفض الخديوى توفيق التصديق على الحكم بناء على نصيحة القنصلين الإنجليزى والفرنسى حتى لاتزداد قوة العرابيين، فأهاج ذلك العرابيين ن ثم تم التواصل إلى حل وسط حيث وافق الخديو على نفى المتآمرين من خارج مصر دون تحديد الجهة، وعدم تجريدهم من الرتب والنياشين (٩ مايو ١٨٨٢) [٣٩] .

على أن هذا التعديل لم يحسم الخلاف بين الخديو والوزراء، مما أدى إلى قيام نزاع بين الخديوى وبين العربيين . حاول الأخيرون خلاله عزل توفيق والتخلص من أسرة محمد على وإعلان الجمهورية، ولكنهم

ولمزيد من التفاصيل عن نظارة محمود سامى البارودى (٤ فبراير - ٢٦ مايو ١٨٨٢ أنظر د . يونان لبيب رزق المرجع السابق، ص ٩٧ وما بعدها، كامل مرسى . أسرار مجلس الوزراء، المكتب المصرى، الحديث، القاهرة ١٩٨٥، ص ٥٨ وما بعدها .

٣٨ - لمزيد من التفاصيل أنظر عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق، ص ٢٣٨ وما بعدها، د.أحمد عبد الرحيم مصطفى . المرجع السابق، ص ص ٨٧، ٨٨ أحمد زكريا الشلق، المرجع السابق، ص ص ١٦٧، ١٦٨، جوان كول . الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط، ترجمة عنان على الشهاوى، مراجعة وتقديم عاصم الدسوقى، المجالس الأعلى الثقافة القاهرة ٢٠٠١، ص ٣٣٠ .

٣٩ - د. عاصم الدسوقى - المرجع السابق. ص ١١٣ ، د. نبيل السيد الطوخى، المرجع السابق . ص٢٠٤

لم يجدوا فى ذلك تأييداً من سلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب وباقى أعضاء المجلس الذين ينتمون إلى طبقة كبار الملاك، والذين انحازوا فى هذا الموقف العصيب إلى جانب الخديوى، وصاروا يعملون لإسقاط وزارة البارودى، وهكذا تآمر الخديوى والجراكسة وكبار الملاك الزراعيين على الثورة فى الداخل، بينما صارت فرنسا وإنجلترا تعملان ضدها من الخارج [٤٠] وبعثتا بأسطولهما إلى ميناء الإسكندرية فى ٢٠ مايو ١٨٨٢ استعداداً للتدخل المسلح، وقابل الشعب المصرى وصولهما بالاستياء العام[٤١] وفى ٢٥ مايو ١٨٨٢ قدمت انجلترا وفرنسا مذكرة مشتركة إلى البارودى بصفته رئيساً لمجلس النظار وقد تضمنت المطالب الآتية :

١. رحيل عرابى مؤقتاً عن مصر، مع احتفاظه برتبته ومرتبه .

٢. رحيل على فهمى وعبد العال حلمى إلى داخل البلاد، بشروط مماثلة .

٣. استقالة النظارة [٤٢]

وكان من الطبيعى أن ترفض وزارة البارودى الاستقالة، بل أن هذا الطلب زاد من تماسك العرابيين حيث أقسم الجميع (البارودى وكبار الضباط) يمين الدفاع عن البلاد والولاء للثورة، وقام الشيخ محمد عبده بمهمة تحليف الضباط اليمين [٤٣] .

---

٤٠ - د. السيد رجب حراز . المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى ١٥١٧ - ١٨٨٢ . دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٩٣ . ولمزيد من التفاصيل أنظر د . أحمد عبد الرحيم مصطفى . المرجع السابق . ص ص ٩٢، ٩٣، د . يونان لبيب رزق، المرجع السابق ص ص ١٠٠، ١٠١ .

٤١ - الإمام محمد عبده، مذكرات الإمام محنمد عبده، سلسلة أدباء القرن العشرين، عدد رقم ٢٨ تصور من الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١١، ١٨٢ . د. أحمد عبد الرحيم مصطفى . المرجع السابق . ص ١١٤ ولمزيد من التفاصيل أنظر د . أحمد عبد الرحيم مصطفى . المرجع السابق ص ص ٩٣، ٩٤ .

٤٢ - د . أحمد عبد الرحيم مصطفى . مصر والمسالة المصرية، ص ٢١٤ . ولمزيد من التفاصيل أنظر عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ٢٥٠

٤٣ - د . عاصم الدسوقى . المرجع السابق ص ١١٤ ولمزيد من التفاصيل أنظر د. لطيفة سالم، المرجع السابق ص ٣٣٤، محمد حافظ دياب، انتفاضات أم ثورات فى تاريخ مصر الحديث، سلسلة تاريخ الجانب الآخر إعادة قراءة للتاريخ المصرى، الطبعة الأولى دار الشروق ٢٠١١، ص ٩٣

ورفضت الأمة المصرية هذه المذكرة، وأرسلت التلغرافات لتأييد الوزارة الوطنية، ومع ذلك فقد وافق عليها الخديو، وطلب من النظار قبولها، ولكنهم اعترضوا على ذلك وقدم محمود سامى البارودى استقالته فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجاً على التدخل الأجنبى وقبول الخديو له، فقبلها الخديو بناء على نصيحة انجلترا وفرنسا [٤٤]، وبدأت محاولات لإبعاد عرابى أو رشوته، لكنها لم تجد شيئاً أمام صلابة الزعيم الوطنى، الذى ازداد تمسك الشعب به [٤٥]، وأمام ضغط كافة طبقات الأمة اضطر الخديو توفيق وهو صاغر إلى إعادة عرابى ناظراً للجهادية والبحرية فى ٢٨ مايو سنة ١٨٨٢ قائلا أنه إنما يعيده إليها ازاء الرغبة العامة للشعب [٤٦] وعودة عرابى إلى منصبه كانت بمثابة الرد العملى على سياسة الدولتين (انجلترا وفرنسا) إزاء مصر ن وهكذا فشلت مذكرة ٢٥ يناير فشلاً ذريعاً، بالرغم من لهجتها الصارمة، فى حمل المصريين على الإذعان [٤٧]، ولم يبق أمام انجلترا وفرنسا سوى التدخل العسكرى .

الجيش المصرى يقاوم الاحتلال الإنجليزى :

وقفت السياسة الإنجليزية من الثورة موقف المعارضة، وبذلت قصارى جهدها من أجل تحطيمها والقضاء عليها سواء بالرغبة فى نفى قادتها أو حل مجلس نوابها أو تسريح جيشها، ولكنها فشلت أمام تصميم قوى الثورة التى تمكنت من فرض نفسها، وأخيراً وجدت انجلترا أنه لابد من التدخل الحربى واستعمال القوة لتجبر الثورة على الاستسلام [٤٨]،

٤٤- د . عبد المنعم الدسوقى الجميعى، المرجع السابق، ص ٨٩ .

٤٥- د. أحمد زكريا الشلق . المرجع السابق ص ١٦٨ .

٤٦- نقلا عن د . أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق . ص ٩٥، ولمزيد من التفاصيل أنظر . عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق ص ص ٢٥٩ ، ٢٦٠

٤٧- د . أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصر والمسألة المصرية، ص ٢١٦ .

٤٨- د . لطيفة محمد سالم . القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، ص ٢٤٤ .

ولكى تثبت انجلترا عجز عرابى عن حفظ الأمن ولتتيح لنفسها فرصة التدخل، دبرت مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونية عام ١٨٨٢ [٤٩] وراح ضحيتها كثيرون من الأهالى والأجانب [٥٠]، ولقد كان هذا الحادث هو الذى عجل بتدخل بريطانيا المنفرد .

ضرب الإسكندرية :

وكان الإنجليز عقب مذبحة الإسكندرية يبحثون عن وسيلة للإحتلال وقد وجدوها أخيرا كما يجد الذئب الوسيلة لافتراس الحمل، فقد وجد الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى من الترميمات التى كانت تقوم بها القوات المصرية فى حصون الإسكندرية وسيلة لتحقيق غرضه، فطالب بالكف عن أعمال التحصين الجارية فى الحصون، ولم يكتف بذلك، بل طلب أن تسلم له الحصون التى يزعم أنها تهدد الأسطول البريطانى [٥١]، وصمم قادة الثورة على رفض الإنذار والدفاع عن البلاد، ورفض مجلس الوزراء [٥٢] هذا الإنذار وقرر المقاومة وأرسل بالإحتجاج التالى «لم تعمل مصر

---

٤٩ - د . محمد محمود السروجى . المرجع السابق . ص ٤٣٧ . ولمزيد من التفاصيل أنظر محمد رشيد رضا. تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الجزء الأول ، سلسلة تراث النهضة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢ ، ص ٢٤٦ وما بعدها ، عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص٢٦٦ وما بعدها ، د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، المرجع السابق . ص٩١ وما بعدها . د. لطيفة و محمد سالم . المرجع السابق ، ص٢٢ وما بعدها .

٥٠ - اختلفت الروايات فى تقدير عدد القتلى والجرحى من الجانبين لمزيد من التفاصيل أنظر البرت فارمان . مصر وكيف عدر بها ، ترجمة عبد الفتاح عنايت ، مراجعة . على جمال الدين عزت عثمان ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ . ص ٢٩٠ ، عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق ص ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، د لويس عوض المرجع السابق ص ٢٢٦ ، د. نبيل عبد الحميد سيد أحمد . الأجانب وأثرهم فى المجتمع المصرى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٢٢ ، الجزء الأول (التحديد القانونى للأجانب واثرهم الاقتصادى والسياسى) مكتبة نانسى ، دمياط ٢٠٠٤ ، ص ٥٥ .

٥١ - محمد عبد الرحمن حسين . نضال شعب مصر ١٧٩٨ - ١٩٥٦ ، سلسلة الثورة والحرية ، عدد رقم ١٣ ، دار الكتاب والوثائق القومية ، القاهرة ٢٠١١ ، ص ٥٩ .

٥٢ -جدير بالذكر أن الظروف التى كانت تمر بها البلاد أجبرت الخديو توفيق بتكليف اسماعيل راغب بتأليف النظارة الجديدة (١٨ يونيو ١٨٨٢ -★ ٢١ أغسطس ١٨٨٢) بناء على نصيحة مشددة من الدول

شيئاً يقضى بإرسال هذه الأساطيل المتجمعة، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأميرال إلا بعض إصلاحات إضطرارية فى أبنية قديمة، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا، فمن حقنا، بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو ومباغت يقوم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الإنجليزية إنها باقية بيننا، ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع، ولا أية طابية، دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح، فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم، وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم إما عن هجوم الأساطيل، أو عن إطلاق المدافع، على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الإسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق الإنسان ولقوانين الحرب» [٥٣] . وفى الساعة السابعة صباح يوم الثلاثاء الموافق ١١ يولية سنة ١٨٨٢م أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب، وأخذ الأسطول البريطانى فى إطلاق قذائفه على الإسكندرية، ولم تجاوبها مدافع القلاع إلا من بعد إطلاق مدافع الأسطول نحو ٢٠ طلقة، ثم استمر القتال بين الأساطيل الإنجليزية وقلاع الإسكندرية يعد ذلك إلى منتصف النهار، ثم أخذت نيران الاستحكامات فى التناقص حتى تم تدميرها قبل الغروب [٥٤] .

الأجنبية، وقد شغل عرابى ناظر الجهادية والبحرية فيها . لمزيد من التفاصيل أنظر . كامل مرسى . المرجع السابق . ص ٦٣ وما بعدها .

٥٣ - نقلا عن عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق . ص ٣٠٧ .

٥٤ - محمود فهمى المهندس، البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والآواخر، دراسة وتحقيق، ومراجعة د . لطيفة محمد سالم، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٢٢٩، عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق . ص ٣١٥ وما بعدها، عباس محمود العقاد . ضرب الإسكندرية فى ١١ يوليو، كتاب اليوم، يصدر عن دار أخبار اليوم، عدد يوليو ١٩٥٢، ص ٥٥ .

وبدأت الحرب بين أكبر إمبراطورية فى العالم حينذاك ومصر التى تخلى عنها الجميع حينذاك، والتى لا تملك من السلاح إلا أقله [٥٥]، ودارت معركة غير متكافئة، استبسل فيها المصريون استبسالاً عظيماً، ويصف جون نينيه عميد الجالية السويسرية فى مصر سنة ١٨٨٢ حماسة المصريين فى الدفاع عن وطنهم فيقول «ومع ذلك فما كان أبدع هذا المنظر، منظر الرماة المصريين الذين، كانو قائمين على مدافعهم وهى مكشوفة فى العراء وكأنهم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم إذ لم يكن لهم دوارع واقية ولا متاريس وكانت معظم الحصون بلا ساتر، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذى سقطوا فى حومة الوغى ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه، وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار، ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم، بل إن عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التى استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة فى صدورهم وهم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد فى آلامهم [٥٦]

وفى هذه المحنة جاد كل فرد فى الأمة المصرية بما يملك لمؤازرة الثورة ومواصلة القتال، ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ما قام به الأهالى من تضحية وجهاد، رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج، وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده «تحت مطر الكلل (القذائف المشتعلة) ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الإسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانو يضربونها وكانوا يغنون يلعن

---

٥٥ - د . عبد العزيز سليمان نوار . المرجع السابق . ص ٣٤٤ .

٥٦ - نقلا عن عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق، ص ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، د. عماد أبو غازى، ملحمة الصمود المصرى فى مواجهة جيش بريطانيا العظمى، مقال منشور فى مجلة ديوان، العدد ٢٣ بتاريخ يوليو ٢٠١٥ ، ص ٢٨ .

الأميرال ومن أرسله [٥٧]، وقال عرابى «وفى أثناء القتال تطوع كثيراً من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات [٥٨] .

وقال محمود فهمى المهندس «ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيره الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم، والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول [٥٩] .

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على التعاون الوثيق بين الجيش والشعب وتآزرهما ضد الإنجليز، والحقيقة أن الشعب المصرى بدأ فور ضرب الإسكندرية فى التطوع للدفاع عن البلاد طوعا واختياراً [٦٠] وحدثت حركة تطوع واسعة من قبل الفلاحين للإنضمام إلى صفوف الجيش فى تلك الفترة للدفاع عن الوطن [٦١]، وهكذا وقف المصريون وإن حاقت بهم الهزيمة موقع الدفاع والكرامة، وبلغ عدد الضحايا بين المصريين فى الإسكندرية نحو ألفين غير من جرحوا، أما الإنجليز فلم يزد قتلاهم عن

---

٥٧ - محمد عبده ، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده . تحقيق وتقديم د. محمد عمارة ، الجزء الأول، الطبعة الأولى ، دار الشروق ١٩٩٣ . ص ٤٧٨ .

٥٨ - أحمد عرابى . مذكرات الزعيم أحمد عرابى . كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ، دراسة وتحقيق د . عبد المنعم ابراهيم الجميعى ، المجلد الثانى ، دار الكتب والوثائق القومية ٢٠٠٥ ، ص ٥٧٤ .

٥٩ - محمود فهمى المهندس . المصدر السابق . ص ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

٦٠ - د . سمير محمد طه . المعارك العسكرية للعرابيين . بحث منشور فى مصر للمصريين مائة عام على الثورة العرابية . مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

٦١ - نفين علوان . التجنيد العسكرى وأثره على المجتمع الريفى فى مصر (١٨٢٠ - ١٨٨٢) الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٩ ، ص ٦٥ ، د . طاهر عبد الحكيم . الشخصية الوطنية المصرية قراءة جديدة لتاريخ مصر مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢ . ص١٦٤ .

خمسة وجرحاهم عن تسعة عشر[٦٢] .

موقف الخديو توفيق من الاحتلال :

ومنذ ١١ يوليو ١٨٨٢ كانت هناك لغتان فى مصر فالخديوى ورجاله يتكلمون لغة التسليم للإنجليز حتى قبل بدء القتال، وعرابى ورجاله يتكلمون لغة الجهاد حتى النهاية، ووصل الأمر إلى أن الخديوى توفيق كان فى قصره لا يخفى ابتهاجه بضرب الإسكندرية ولا يخفى شماتته فى هزيمة الجيش المصرى [٦٣]، لقد اصبح حلمه بالتخلص من عرابى ومن الحركة الوطنية «قاب قوسين أو ادنى» ولا يهمه إذا تم ذلك بقوة البوارج الإنجليزية أو أن ضاعت مصر كلها واستقلالها من أجل الحفاظ على كرسى عرشه [٦٤] وأصبح توفيق قلباً وقالباً مع الانجليز لدرجة أنه منع الخبز عن القوات المصرية وأمر بإرساله للقوات البريطانية وكان الخديو توفيق متفقاً مع الإنجليز على التدخل حتى أنه طلب إليهم فى يوم ٧ يوليو ١٨٨٢ أى قبل أربعة أيام من ضرب الإسكندرية، إنزال الجنود البريطانيين إلى البر فوراً عقب الضرب [٦٥] . ولم يقدم توفيق بأى عمل يعارض به التدخل الأجنبى وفى ١٩ يولية ١٨٨٢ راح يشجع استعجال نزول القوات البريطانية إلى الأرض المصرية فى اسرع وقت[٦٦]، وكلف

---

٦٢ - محمود الخفيف . أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ٢٠١٢ . ص ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

٦٣ - د. لويس عوض . المرجع السابق ص ٢٤٣ ، محمد صبيح ، كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة ٢٠١٢ ص ٢٨٠ .

٦٤ - د. عماد أبو غازى . المرجع السابق . ص ٣٤ .

٦٥ - د. لطيفة محمد سالم . التدخل الأجنبى والثورة الوطنية . ص ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

٦٦ - لورد كرومر . الثور العرابية ، ترجمة عبد العزيز عرابى ، مكتبة الأسرة ن الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ ، ص ١٩٦ ، د. عبد العظيم رمضان . المرجع السابق. ص ص ٣٣ ، ٣٤.

الإنجليـز بالمحافظـة علـى النظـام بالإسـكندرية (٦٧) ويكتـب الخديـو إلى عرابـى يـوم ١٧ يوليـو ١٨٨٢ وهـو فـى كفـر الـدوار مـع جنـوده حيـث قامـوا بعمـل اسـتحكامات منيعـة لصـد القـوات الإنجليزيـة ومنعهـا مـن التوغل داخـل البلاد قائـلاً بأنـه ليـس هنـاك أدنـى خصومـه ولا عـداوة مـع الإنجليـز، ويطلـب منـه أن يكـف عـن التجهيـزات العربيـة، ويأمـره بالحضـور إلى سـراى راس التـين (٦٨)، غـير أن عرابـى رفـض طلـب الخديـو واسـتمر فـى اسـتعدادته، واتهـم الخديـو بالخيانـة وأنـه سـبب مـا نـزل بمصـر مـن مصائـب، ودعـا عرابـى إلى عقـد جمعيـة عموميـة مـن الـذوات والأعيـان والعلمـاء والموظفـين وممثلـين عـن كافـة الطوائـف ليعـرض عليهـم الموقـف ومـا يجـب عملـه رداً علـى موقـف الخديـو المؤيـد للإنجليـز، وعقـدت الجمعيـة العموميـة اجتماعهـاً فـى مسـاء يـوم الاثنـين ١٧ يوليـو سـنة ١٨٨٢ وقـررت بالإجمـاع الاسـتمرار فـى قتـال الإنجليـز (٦٩)، وقـد رفـض الخديـو قـرارات الجمعيـة العموميـة وأصـدر أمـراً فـى ٢٠ يوليـة سـنة ١٨٨٢ بعـزل عرابـى مـن منصبـه بدعـوى أنـه لم يتوقـف عـن التحصينـات والاسـتعدادات الحربيـة، واجتمعـت الجمعيـة العموميـة مـرة أخـرى فـى ٢٢ يوليـة سـنة ١٨٨٢ وقـررت بقـاء عرابـى بمنصبـه ليقـوم بالدفـاع عـن البـلاد ضـد العـدو (٧٠).

وتليـت فتـوى شـرعية أثنـاء الاجتمـاع مـن الشـيخ عليـش والشـيخ حسـن العـدوى والشـيخ محمـد أبـو العـلا الخلفـاوى «بمـروق توفيـق عـن الديـن كمـروق السـهم مـن الرَّميـة، لخيانتـة دينـه ووطنـه (٧١)» وقـد أدت هـذه الفتـوى علـى

٦٧ - د . أحمد عبد الرحيم مصطفى . المرجع السابق ص ٢٧٨.

٦٨ - لمزيد من التفاصيل انظر . سليم خليل نقاش، مصر للمصريين، الجزء الخامس، سلسلة تاريخ المصريين، عدد رقم ١٠٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ . ص ١٢٦ .

٦٩ - نفس المصدر، ج ٥ . ص ١٢٧، محمد صبيح . المرجع السابق . ص ٢٨٧ ولمزيد من

٧٠ - د . عبد المنعم الدسوقى الجميعى . المرجع السابق، ص ص ١٠٤، ١٠٥، ولمزيد من التفاصيل أنظر عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق ص ٣٤٢ وما بعدها د . حسين فوزى النجار، أحمد عرابى مصر للمصرين، سلسلة أعلام العرب عدد رقم ١٤١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ . ص ص ١٧٢، ١٧٣ .

٧١ - عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق . ص ٣٤٩ وما بعدها.

تماسك الأهالى والرأى العام خلف عرابى فى هذه اللحظة العصيبة [٧٢] .

كما اتخذت الجمعية العمومية قراراً بعدم إطاعة أى أمر من أوامر الخديوى ووزارئه المقيمين معه فى الإسكندرية «حيث أن الخديو خرج عن الشرع الشريف والقانون المنيف» [٧٣] وعلى الرغم من عدم صدور فتوى شرعية بإسقاط توفيق من على عرش الخديوية، إذ تلاحقت الأحداث سريعاً، ولكنه على أية حال اعتبر شبه معزول أمام قوى الشعب[٧٤] وهكذا خان الخديو توفيق بلده وجيشه وقاوم ثورة الشعب بقيادة عرابى، واستعان بالجيش الإنجليزى ليحمى عرشه فكان أن نال غضب الشعب[٧٥]، أما عرابى فنال ثقة الأمة وتأييدها لدوره المهم فى الدفاع عن البلاد ضد عدوان الإنجليز ومناصريهم، وقد أطلق عليه فى ذلك الوقت «حامى حمى الديار المصرية» [٧٦] وكان الناس يتجهون بوجوههم إلى السماء ويرفعون أكفهم كلما ذكر عرابى قائلين «الله ينصرك يا عرابى» [٧٧] .

معارك كفر الدوار :

بعد سقوط الإسكندرية، تحصن عرابى بجيشه فى كفر الدوار استعداداً لجولة ثانية مع الغزاه وهنا استطاع الجيش المصرى أن يثبت أمام الإنجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع يعيد كل الهجمات بل يدفع العدو

٧٢ - أحمد شفيق . المصدر السابق . ج١، ص ١٧٨ .

٧٣ - حلمى النمنم، الأزهر الشيخ والمشيخة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢، ص ١٦٤ .

٧٤ - عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق . ص ٣٥٢ .

٧٥ - د . لطيفة محمد سالم . التيار الدينى فى الثورة العرابية ١٨٨١ - ١٨٨٢ . بحث منشور فى الدين والدولة فى العالم العربى، أعمل ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . تحرير ـ د. عاصم الدسوقى . مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص ٥٦ .

٧٦ - عباس الطرابيلى . أسرة محمد على ايجابيات وسلبيات - مقال منشور بصحيفة المصرى اليوم بتاريخ ٢٠١٦/٧/١٦. ص ٤ .

٧٧ - عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق، ص٣٥٦، عاصم الدسوقى . المرجع السابق . ص ١١٦.

بهجمات مضادة إلى ما يقرب من أبواب الإسكندرية، ولو لم يكن هناك باب آخر لدخول مصر غير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بالنجاح وما نجح الإنجليز فى احتلالها [٧٨] .

وكانت أولى المعارك التى دارت بين الجيش المصرى والإنجليز هى معركة الرمل فى ٥ أغسطس ١٨٨٢، ودام القتال فيها ثلاث ساعات ونصف، وحمل المصريون على الإنجليز حملة قوية، وأضطروهم إلى التقهقر إذ ولو الأدبار منهزمين [٧٩] .

معركة عزبة خورشيد (٧ أغسطس ١٨٨٢) :

وهاجم الإنجليز مقدمة الجيش المصرى فى كفر الدوار على ثلاث جبهات فلما ألتقوا بالمصريين صمد هؤلاء لقتالهم ودافعوا فى هذه المعركة دفاعاً مجيداً، ودام القتال فى هذه المعركة نحو أربع ساعات انتهت بتقهقر الإنجليز منهزمين، وتكبد الإنجليز خسائر فى الأرواح أكبر من خسائر الجيش المصرى [٨٠] .

معركة ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ :

هجم الإنجليز على كفر الدوار يوم السبت ١٩ أغسطس وزحفوا بقوات كبيرة، جاء جانب منها بالقطارات المسلحة من جانب القبارى، ودارت معركة شديدة بينهم وبين المصريين، فصدهم المصريون عن التقدم بعد أن كبدوهم خسائر كبيرة، ودام القتال ثلاث ساعات حتى غروب الشمس،

٧٨ - محمود الخفيف - المرجع السابق . ص ٣٨٨ .

٧٩ - نفس المرجع . ص ٣٩٨ ، د . احمد عبد الرحيم مصطفى . كفاحنا ضد الغزاه فى العصر الحديث . منشور فى د. عبد المنعم أبو بكر وآخرون كفاحنا ضد الغزاة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ ، ص ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، عادل أحمد سركيس . الخيانة هزمت عرابى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ ، ص ٧٣ .

٨٠ - لمزيد من التفاصيل أنظر . عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق . ص ٣٦٤ ن محمود الخفيف . المرجع السابق . ص ٤٢٠ ، د . لويس عوض . المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

وكان يتولى قيادة الجيش المصرى فى هذه المعركة طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه رضا باشا ومصطفى بك عبد الرحيم وعيد بك محمد وأحمد بك عبد الغفار والقائمقام أحمد بك عفت والقائمقام سليمان سامى داود ن وبدوى بك حكمدار المدفعية، وانتهت المعركة بارتداد الإنجليز إلى الإسكندرية (٨١) .

وتعتبر هذه المعركة أشد معارك جبهة كفر الدوار، كما كانت انتصاراً للقوات المصرية ضد الهجوم الشامل من القوات الإنجليزية، وقد عاود الإنجليز الهجوم على مقدمة كفر الدوار يوم ٢٠ أغسطس واستمر ضرب المدفعية بين الطرفين لمدة ساعتين انسحب بعدها العدو، وهذه المعركة تعتبر أيضاً من المعارك الهامة التى أثبتت صمود الجيش المصرى وهاجمت القوات الإنجليزية مقدمة كفر الدوار يومى ٢١ ، ٢٢ أغسطس، ودافع عنها المصريون خير دفاع، واضطرت القوات الإنجليزية إلى الإنسحاب (٨٢) .

واستمرت معارك كفر الدوار حتى قرب نهاية الحرب، فهاجمت القوات الإنجليزية مقدمة كفر الدوار فى ٤ سبتمبر و ٨ سبتمبر ١٨٨٢ ولكن القوات المصرية استطاعت وقف الهجوم المتتالى للإنجليز (٨٣)، والواقع أن هذه الجبهة كانت محصنة تماماً وقد فشل الجيش الإنجليزى فى اختراقها طوال خمسة أسابيع (٨٤) وهكذا كانت وقائع كفر الدوار

٨١ - لمزيد من التفاصيل أنظر ، عبد الرحمن الرافعى . الزعيم أحمد عرابى ، ص ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، محمد فيصل عبد المنعم ، معارك الثورة العرابية ، كتاب التعاون السياسى ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٤٤ وما بعدها ، محمد عادل أحمد سركيس . المرجع السابق ، ص ٧٤ ، د. عماد أبو غازى المرجع السابق ص٣٥ .

٨٢ - عبد الرحمن الرافعى - المرجع السابق ، ص ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، د. عماد أبو غازى ، المرجع السابق ص ص ٣٥ ، ٣٦ : لويس جرجس ، يوميات من التاريخ المصرى الحديث ١٧٧٥ - ١٩٥٢، سلسلة تاريخ المصريين ، عدد رقم ١٢٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ، ص٢٠٧ ، د. صلاح أحمد هريدى . دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٨٠٥ - ١٨٨٢) الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠٦ ، ص ٤٥٥.

٨٣ - لمزيد من التفاصيل أنظر ، أحمد عرابى . المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، د. سمير طه . المرجع السابق ، ص ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، د. عماد أبو غازى ، المرجع السابق . ص٣٦ .

٨٤ - د. سمير طه ، المرجع السابق ، ص ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

سجلاً مجيداً فى تاريخ صراع المصريين ضد الغزاه والمستعمرين، وواحدة من الصفحات المشرقة فى تاريخ العسكرية المصرية .

أمة عظيمة فى ساعة المحن :

وجدير بالذكر أن المصريين وقفوا بجوار جيشهم فتطوع الكثيرون فى الجيش جنودا يجودون بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن الوطن، وبدأت حركة التطوع فى القاهرة والأقاليم عقب ضرب الإسكندرية، والحق أن المصريين أثبتوا أنهم أمة عظيمة فى ساعة المحن، فقد تطوعوا لإمداد الجيش بكل ما يستطيعون من نفس ومال وغلال وعتاد ومئونة وخيول ومواشى، وجادوا بكل ما فى مقدورهم بحق أن هذا واجب تفرضه عليهم الوطنية والدين[٨٥] . وعن كرم المصريين وسخائهم يذكر أحمدعرابى فى مذكراته «قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خزائن الحكومة درهم ولا دينار لأن المراقب الإنكليزى المستر (كولفن) أخذ الأموال الموجودة فى خزينة المالية وأنزلها فى الدوننمة (سفن الأسطول) الإنكليزية قبل إعلان الحرب بأيام وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الخزينة العمومى حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث امنوا عليها[٨٦] ويذكر محمود فهمى المهندس» وتباهت الأمة المصرية وتفاخرت سكان المدن والأقاليم فى جميع أنحاء القطر المصرى فى جمع الإعانات اللازمة للعساكر من نقود وغلال وملبوسات ومأكولات ولحوم وخضروات وتبون وخيول وبغال لجر المدافع والخيالة، وكذا الستات والهوانم والبرنسات، وصارت الإعانات ترد يومياً إلى ديوان الجهادية ومركز كفر الدوار، ومراكز جهاز إقامة العساكر حتى كانت المهمات الواردة من طرف أرباب الإعانات فى مركز كفر الدوار تلالا وآكاما» [٨٧]

---

٨٥ - صلاح عيسى . الثورة العرابية ، الطبعة الثانية ، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٤١٩

٨٦- عبد الرحمن الرافعى - الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى . ص ٣٦٩ .

٨٧ - المصدر السابق ، الجزء الثانى ، ص ٦٠٤

وعن دور المرأة المصرية فى الوقوف بجوار الجيش يذكر جون نينيه أن «سيدات الحريم وأميرات أسرة محمد على وأمهات وأخوات الجنود يتنافسن بكل حمية فى جميع الأعمال التى تمكنهن من خدمة الجيش [٨٨] .

ويمكن القول أن الأمة المصرية أمدت الجيش المصرى بسخاء من مال وعتاد ورجال، وقل أن نجد فى تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزائن الدولة والتى قامت على ما بذل الشعب طائعاً من أقواته وأمواله ودماء رجاله [٨٩]، وقد وقف الجيش المصرى فى خطوط دفاعه مستنداً على الأمة المصرية بكافة طوائفها والتى اثبتت بحق أنها أمة عظيمة فى ساعة المحن .

منشورات الخديو إلى المصريين :

أما الخديو توفيق فاصدر منشوراً فى ٧ أغسطس أثناء اشتعال القتال بين الجيش المصرى وجيش الاحتلال يحذر فيه المصريين من الانضمام لعرابى العاصى ويتوعد كل من ينحاز إليه بالعقاب[٩٠] ثم اصدر الخديو منشوراً آخر بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٨٨٢ يحذر فيه الأمة المصرية من مناصرة عرابى العاصى ويدعوها لمناصرة الانجليز ومساعدتهم لأنهم ينوبون عنه فى محاربة العصاه [٩١] .

ولم يكن هذا أول أمر يصدره الخائن توفيق إلى الجيش المصرى وإلى موظفى الدولة، بإطاعة أوامر قوات الاحتلال، ففى ١٤ أغسطس سنة

---

٨٨ - المصدر السابق، ص ٢٤٧ .

٨٩ - جون نينيه . رسائل من مصر (١٨٧٩ - ١٨٨٢) تصدير أنور لوقا، ترجمة فتحى العشرى، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥ . ص ٤٠١ ولمزيد من التفاصيل عن دور المرأة فى الثورة العرابية أنظر. د. سامية محمد عبد محمد عبد الرحمن الشرقاوى . المرأة فى مصر فى القرن التاسع عشر ودورها فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية، مكتبة الأداب، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠١٠ . ص٣٥٩ وما بعدها .

٩٠- محمود الخفيف . المرجع السابق، ص ٣٩٩ .

٩١ - عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق . ص ٣٦٦ .

١٨٨٢م أصدر أمراً بالترخيص للجيش البريطانى باحتلال القناه [٩٢] . .

ولما تأكدت الجماهير من خيانة الخديو توفيق خرجت تهتف «يا توفيق يا وش القملة .. مين قالك تعمل دى العملة» وتواتر الدعاء عليه : «البغل فى الإبريق يا رب خد توفيق [٩٣]

ورغم هذه المنشورات، فإن التأييد الشعبى لعرابى وللثوار كان جارفاً، بل إن بعض سيدات الأسرة العلوية الحاكمة تضامن مع الثورة وتبرعن بحليهن وأموالهن وجياد مزارعن لصالح المجهود الحربى [٩٤] .

معارك الجيش فى الميدان الشرقى :

قبل أن نتكلم عن معارك الجيش فى الميدان الشرقى يجدر بنا أن نتعرف اولا على قوة الجيش المصرى ن فقد كان الجيش النظامى المصرى لا يزيد عن ١٩,٠٠٠ مقاتل موزعين بين مختلف المواقع، وقد انضم إلى هذا الجيش عدد من المتطوعين والعربان، ولكن الوقت لم يكن يسمح بتدريبهم على الحركات النظامية فلم يكن منهم فائدة [٩٥] ـ أما الجيش الإنجليزى فقد بلغ عدده قبل معركة التل الكبير ٥٠,٦٠٠ مقاتل، ويتضح من ذلك أن عدد الجيش الانجليزى كان يزيد عن ضعف عدد الجيش المصرى، وهذا وحده كان نزيراً بسوء العاقبة [٩٦] .

---

٩٢ - د . لويس عوض . المرجع السابق، ج ٢ ص ٢٦٤ . ولمزيد من التفاصيل أنظر سليم خليل النقاش، المصدر السابق، ج ٥ ص ٢١٤

٩٣ - د. لويس عوض، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٢٦٤

٩٤ - نقلا عن محمد حافظ دياب - المرجع السابق، ص ٩٨

٩٥ - د . عماد أو غازى . المرجع السابق ص ٣٧ .

٩٦ -عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق . ص ٣٦٧ ، ولمزيد من التفاصيل أنظر . داود بركات . الثورة العرابية بعد خمسين عاما رؤية صحفية الأهرام ١٩٣١ - ١٩٣٢ ، دراسة وتعليق د. لطيفة محمد سالم، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ،٢٠٠١ ، ص ٢٠٦ .

وجديـر بالذكـر أن اهتمـام الإنجليـز بالميـدان الشـرقى بـدأ منـذ بدايـة الحـرب، وذلـك لإمـكان اسـتخدام قوتهـم البحريـة عـن طريـق القنـاة، ولان استحكامات كفـر الـدوار أثبتـت صعوبـة اقتحـام هـذه الخطـوط وكفـاءة القـوات الموجـودة بهـا [٩٧] .

وقـد بـدأت نـذر الهجـوم فـى الميـدان الشـرقى فـى يـوم ٢٦ يولـو ١٨٨٢ عندمـا اقتحمـت احـدى السـفن الإنجليزيـة القنـاه عنـد بورسـعيد، وألقـت مراسيها فـى بحـيرة التمسـاح يـوم ٢٧ يوليـو ١٨٨٢، واحتل الإنجليز السـويس فـى ٢ أغسـطس ١٨٨٢ دون قتـال، وفـى يـوم ٢٠ أغسـطس احتـل الإنجليـز بورسـعيد دون مقاومـة أيضـاً، كمـا احتلـوا القنطـرة والإسماعيليـة والشـلوفة . وبذلـك جعـل الإنجليـز قنـاة السـويس قاعـدة حربيـة للزحـف علـى مصـر[٩٨] .

ولـو ردم عرابـى القنـاة لاسـتحال علـى الإنجليـز أن يدخلـو بأسـاطيلهم علـى الإسماعيليـة وأن ينزلـوا جنودهـم فـى السـويس وبورسـعيد كمـا فعلـوا وقـد قـال ولسـلى قائـد الحملـة البريطانيـة مـا نصـه «لـو أن عرابـى قـد أفلـح فـى سـد القنـاة كمـا أراد لكنـا مـا زلنـا إلى الآن فـى البحـار البعيـدة نحـاول محاصـرة مصـر ! إن تأخـره أربعـاً وعشـرين سـاعة قـد أنقذنـا !» [٩٩] .

وقـد كان أول التحـام بـين المصريـين والإنجليـز فـى الميـدان الشـرقى – فـى نفيشـة التـى لم تكـن محصنـة فسـقطت فـى يـد الأعـداء فـى ٢٣ أغسـطس ١٨٨٢ [١٠٠] .

---

٩٧ - عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق، ص ٣٦٦ وما بعدها .

٩٨ - د . سمير محمد طه . أحمد عرابى ودوره فى الحياة السياسية المصرية، ص ٢٣٩ .

٩٩ - لمزيد من التفاصيل أنظر . عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق ص ٣٧٧ وما بعدها، د. سمير طه، المرجع السابق، ص ٢٣٩ وما بعدها، د. عبد العظيم رمضان، أسرار هوجة عرابى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١، ص ١٧٠، لوتسكى . تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة د . عفيفة البستانى، دار التقدم، موسكو ١٩٧١ . ص ٢٧٢.

١٠٠ - نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، كفاحنا ضد الغزاه فى العصر الحديث، ص ٣٢٩ .

ولقام الجيش المصرى بسد ترعة الإسماعيلية فى نقطة (المجفر) غرب الإسماعيلية ليمنعوا ورود المياه العذبة إلى الجيش البريطانى، هاجم الجنرال ولسلى (المجفر) يوم ٢٤ أغسطس واحتلها بجنوده [١٠١] وتابع الانجليز زحفهم فاستولوا على المسخوطة يوم ٢٥ أغسطس بعد معركة عنيفة دارت بينهم وبين الجيش المصرى، وكان يقود الجيش المصرى فيها الفريق راشد باشا حسنى، وخلال القتال وقع المهندس محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى وأكفأ ضباطه فى الأسر وذلك نتيجة لعدم اتخاذ احتياطات الحراسة اللازمة بالنسبة له، وكانت عملية أسره ضربة قاسية أصابت الجيش المصرى معنوياً فى الميدان أصابة بالغة فى وقت بالغ الحرج [١٠٢] .

واستولى الانجليز على المحسمة يوم ٢٥ أغسطس وهى محطة تبعد عن نفيشة غربا باثنين وعشرين كيلو مترا، وصارت المسافة بينهم وبين التل الكبير مسافة لا تتجاوز أربعة وعشرين كيلو مترا، وكان الاستيلاء على المحسمة على جانب كبير من الخطر، لأنه الخطوة الأولى التى اتخذها الانجليز للوصول إلى معسكر الجيش المصرى فى التل الكبير، وبعد أن استتب الأمر للإنجليز فى المحسمة وبفضل المعلومات التى وصلت للإنجليز من الخونة والجواسيس عن ضعف الدفاعات فى القصاصين فقد اسرع الجنرال ولسلى بدفع لواء الفرسان تجاه بلدة القصاصين وتمكن من احتلالها يوم ٢٦ أغسطس، وأصبحت القوات الإنجليزية على بعد خمسة عشر كيلومترا من منطقة دفاعات المصريين الرئيسية فى التل الكبير [١٠٣] .

---

١٠١ - تعتبر نفيشة أول محطة غربى (الإسماعيلية) حيث تبعد عنها نحو ٣ كم كما تتفرع عنها ترعة الإسماعيلية إلى فرعين يتجه أحدهما إلى السويس ويمر الآخر فى خط أنابيب إلى بورسعيد . لمزيد من التفاصيل أنظر. محمد فيصل عبد المنعم . المرجع السابق ، ص ١٥٤ ، محمد عبد الفتاح أبوالفضل ، تأملات فى ثورات مصر « الثورة العرابية » الجزء الخامس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ ، ص ١٥٧ .

١٠٢ - محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، المرجع السابق ص ص ١٥٧ ، ١٥٨

١٠٣ - لمزيد من التفاصيل أنظر . عبد الرحمن الرافعى . الزعيم أحمد عرابى . ص ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، محمد فيصل عبد المنعم ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ وما بعدها ، محمد عبد الفتاح أبو الفضل . المرجع السابق . ص ١٥٨ ، ولمزيد من التفاصيل عن واقعة أسر محمود فهمى المهندس . أنظر محمود فهمى المهندس . المصدر السابق ، ص ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

انتقال عرابى إلى الميدان الشرقى :

بعد أن تم أسر محمود فهمى باشا، وبعد احتلال المحسمة والقصاصين انتقل عرابى من كفر الدوار إلى التل الكبير، وعلى طول تلك المسافة كانت الجماهير تستقبله فى كل محطة طالبة النصر وتردد «اللّه ينصرك يا عرابى»، يا مولانا يا عزيز أهلك عسكر الانجليز، ياسيمور يا وش القملة ! مين قالك تعمل دى العملة، يا محنى ديل العصفورة وجيوشنا هى المنصورة [١٠٤] .

وكانت الثقة فى النصر متناهية والعمل من أجله واضحاً، وتشاور عرابى وقادة الجيش فيما يجب عمله، فاتفقوا على مهاجمة مواقع الانجليز فى القصاصين لاستردادها، وازداد نشاط الجواسيس البريطانيين والخونة فى توصيل أدق المعلومات عن المصريين ومواقعهم للقوات البريطانية [١٠٥] .

معركة القصاصين الأولى (٢٨ أغسطس ١٨٨٢) :

هاجم الجيش المصرى مواقع الإنجليز فى القصاصين بقيادة الفريق راشد باشا حسنى، وكان هجوماً شديداً، فاستولوا على المواقع الأمامية للإنجليز، ولكن الفرسان البريطانين مالبثوا أن ضغطوا على القوات المصرية، فاضطرت للإنسحاب منها إلى التل الكبير بعد أن كبدت القوات البريطانية خسائر جسيمة، وكادت تجبرها على الإنسحاب لولا تدخل لواء الفرسان البريطانى [١٠٦] .

١٠٤ - عبد الرحمن الرافعى . الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى، ص ٣٨٠ ، محمد عبد الفتاح أبوالفضل، المرجع السابق . ص ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

١٠٥ - نقلا عن عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص ٣٨١ ، د . لطيفة محمد سالم . القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، ص ٢٤٧ ، وجدير بالذكر أن الأهالى أرسلوا إلى الجيش المصرى بالتل الكبير كل ما يلزم الجيش من مواد الأغذية، بل أن الأهالى أكثروا من إرسال الفاكهة والحلوى على اختلاف أنواعها، فكانت تنقلها عربات السكة الحديدية . أنظر أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق ص ٣٣٠ .

١٠٦ - محمد عبد الفتاح أبو الفضل، المرجع السابق، ص ١٦٠ .

إعلان السلطان العثمانى عصيان عرابى (٦ سبتمبر ١٨٨٢) :

بدل من أن تعاون دولة الخلافة (تركيا) مصر فى محنتها العسكرية منذ بداية التهديد البريطانى بالأساطيل والجيوش وقف السلطان التركى الضعيف والمتردد والخاضع كلياً لمطالب الغرب لينفذ ما يأمرون به فى احدى ولاياتها (مصر) . فقد بادر السلطان العثمانى تحت ضغط من بريطانيا بإعلان عصيان عرابى يوم ٦ سبتمر ١٨٨٢م [١٠٧]، ولا شك أن اعلان عصيان عرابى والحرب قائمة هو تدبير منطو على المكر والخبث وضعته انجلترا لإضعاف قوة المقاومة فى مصر وتمكين جيشها من احتلال البلاد [١٠٨] .

وقد ابتهج الخديو توفيق بهذا المنشور وعهد إلى سلطان باشا توزيع نسخ من جريدة

(الجوائب) التى نشرته والاتصال بضباط الجيش المصرى لإطلاعهم عليه ، ووزع عليهم منشورات بهذا المعنى، وتنقل سلطان باشا فى البلاد لدعوة العمد والأعيان إلى مساعدة الإنجليز وقد أحدثت هذه المنشورات تأثيراً كبيراً فى حالة الجنود والضباط المعنوية فخارت قواهم ويئسوا من الفوز وضعفت حميتهم الدينية إذ اعتبروا انفسهم « عصاه على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله [١٠٩] .

وجدير بالذكر أن انجلترا استطاعت بهذا المنشور تغيير ميزان المعركة ليس حربيا فقط بل وسياسيا أيضا، وأحمد عرابى على حد قول إحسان عبد القدوس هزم سياسيا قبل أن يهزم عسكريا وهو يقود الثورة لصد الغزو البريطانى [١١٠] .

١٠٧ - نفس المرجع ، ص ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ولمزيد من التفاصيل أنظر محمد فيصل عبد المنعم . المرجع السابق. ص ١٥٧ وما بعدها ، د . سمير طه . المعارك العسكرية للعرابيين ، ص ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

١٠٨ - محمد عبد الفتاح أبو الفضل . المرجع السابق ، ص ١٦١

١٠٩ - عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق . ص ٣٨٥ .

١١٠ - نفس المرجع ، ص ٣٨٥ ، د . عبد المنعم الدسوقى الجميعى . المرجع السابق ، ص ١٠٩ ، ولمزيد من

معركة القصاصين الثانية (٩ سبتمبر ١٨٨٢) :

تعد هذه المعركة أكبر معركة وقعت بين الجيش المصرى والانجليز، هجم فيها المصريون بقيادة الفريق راشد باشا حسنى على مواقع الانجليز فى القصاصين يريدون استردادها للمرة الثانية واحتدم القتال نحو ثلاث ساعات، ولكن المعركة انتهت بتراجع المصريين بعد أن كادوا يوقعون بالجيش الإنجليزى، والسبب فى ذلك يرجع إلى خيانة الأميرالاى على بك يوسف خنفس الذى سلم خطة الجيش المصرى لولسلى وخيانة شيخ العرب سعود الطحاوى ورجاله الذين ضللوا محمود سامى البارودى فلم يصل ميدان المعركة فى الوقت المحدد بفضل الأموال التى دفعها سلطان باشا بأوامر الخديو لهم [١١١] .

وذكر أحمد عرابى فى مذكراته أن « راشد باشا حسنى و على باشا فهمى ومن معهما من الجيش ثبتوا ثبات الأبطال حتى آخر النهار، وجرح راشد باشا حسنى فى قدمه برصاصة وعلى باشا فهمى برصاصة فى ساقه [١١٢] .

ويقول جون نينيه عن هذه المعركة إن اصابة القائدين الباسلين « راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى فيها كانت خسارة كبرى منى بها الجيش المصرى لا تقل فى فداحتها عن أسر محمود باشا فهمى [١١٣] .

التفاصيل أنظر . أحمد عرابى المصدر السابق ، المجلد الثانى ، ص ص ٦٨٤ ، ٦٨٥

١١١ - احسان عبد القدوس . البحث عن ثورة ، سلسلة الثورة والحربية عدد رقم ٢٣ ، دار الكتب والوثائق القومية ٢٠١١ . ص ٥٣ .

١١٢ - لمزيد من التفاصيل أنظر . أحمد عرابى . المصدر السابق . المجلد الثانى ، ص ص ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٣٨٦ وما بعدها ، محمد عبد الفتاح أبوالفضل ، المرجع السابق ، ص ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، د . عماد أبو غازى . المرجع السابق . ص٣٧ .

١١٣ - أحمد عرابى ، المصدر السابق ، المجلد الثانى ، ص ٦٩٩

معركة التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢) :

بعد إصابة راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى استدعى عرابى على باشا الروبى من مريوط، وعهد إليه بالقيادة فى معركة التل الكبير، ولم يكن على حد قول الرافعى على حظ من الكفاية الحربية، أضف إلى ذلك أنه حضر قبل المعركة بيوم واحد، وهو وقت لا يكفى لتعرف مواقع القتال فى تلك الناحية، ووضع الخطط الصالحة للدفاع، وكان الجيش المصرى بالتل الكبير لا يزيد عن عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف جندى، والباقون كانو من الجنود الذين لم يسبق لهم إطلاق بندقية واحدة، أضف إلى ذلك أن خيرة الجنود لم يكونوا بالتل الكبير بل كانوا فى كفر الدوار، بقيادة طلبه باشا عصمت أو فى دمياط بقيادة عبد العال باشا حلمى، وهؤلاء لم يشتركوا فى المعركة قط، بينما كان الجيش الإنجليزى بقيادة ولسلى يتكون من ثلاثة عشر الف (١١٤) .

واستعان القائد البريطانى ولسلى بالخونة من المصريين أعوان الخديو ومنهم القائد الخائن على يوسف خنفس (١١٥) والأميرالاى عبد الرحمن بك حسن الذى كان معهوداً إليه حراسة مقدمة الجيش المصرى والذى انسحب منها متعمداً ليلة الزحف وكذلك تعمد الأميرالاى على خنفس ترك قواته لمنطقة دفاعاتها فى وسط الخط الدفاعى واستخدم بعض الأدلاء لإرشاد قوات البريطانيين لحظة تقدمها من خلال دفاعات المصريين فى ظلمة الليل، كما استعان الإنجليز بالخونة من عرب الهنادى للعمل كأدلاء للإنجليز فى تقدمهم الليلى بالإضافة إلى كثير من الضباط المواليين للخديو (١١٦) .

---

١١٤ - نقلا عن عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق . ص ٣٨٧ .

١١٥ - نفس المرجع ص ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، محمود الخفيف المرجع السابق ، ص ٤٧٢ .

١١٦ - على يوسف الشهير بخنفس . زعم البعض أنه من صميم المصريين ، والحق أنه من حثالة الأتراك وكان مع الأسف الشديد قائد قلب الجيش المصرى وهو الذى اشترى سلطان زمته للإنجليز ، فانسحب بفرقته فافسح الطريق لجيش ولسلى ، أنظر أحمد عبد الرحيم مصطفى . المرجع السابق . ص ٣٣٣ ، محمد جبريل

فتح خنفس وأمثاله الطريق أمام الجيش البريطانى، فكانت معركة التل الكبير معركة حارب فيها ضد المصريين الجنيه الإنجليزى أكثر مما حارب فيها الجندى الإنجليزى، فقد أبلغ خنفس قيادته أن طلائعه الاستكشافية اثبتت أن الإنجليز لا ينوون الهجوم، وبعد ذلك بقليل وعند فجر يوم ١٣ سبتمبر فوجئ المصريون بالأعداء وفى مقدمتهم الأميرالاى عبد الرحمن ومن خلفه خنفس [١١٧] وأخذ المصريون على غرة فى الميمنة والميسرة، وصمد للدفاع آلايان من السودانيين بقيادة الميرالاى محمد بك عبيد وظلوا يدافعون ضد الإنجليز حتى استشهد معظمهم وقتل قائدهم البطل محمد عبيد [١١٨] .

واستبسل أيضا فى القتال آلاى من البيادة بقيادة أحمد بك فرج، وألاى عبد القادر بك عبد الصمد [١١٩] أما حسن رضوان قائد المدفعية فإنه اصلى الإنجليز بمدافعه ناراً حامية، وأوقع بهم خسائر جسيمة مع تفوق مدفعيتهم ومازال يقاتل حتى سقط جريحاً، ولما حمل أسيراً إلى ولسلى وأقبل حسن يقدم إليه سيفه - على حسب مألوف الحروب - لم يشأ ولسلى أن يأخذه إقراراً منه بشجاعته وسمو جنديته ! [١٢٠] .

ولم يزد عدد الجنود الذين اشتركوا فى المعركة عن ثلاثة آلاف، أما الباقون فقد تولاهم الذعر فألقوا أسلحتهم ولاذوا بالفرار، ولم تزد المعركة أكثر من عشرين دقيقة، لم تزد خسائر الإنجليز منها عن ٥٧ قتيلاً منهم ٩ ضباط و ٤٨ صف ضابط وجندى و ٤٠٢ جريحاً منهم ٢٧ من الضباط،

. مصر من يريدها بسوء ؟ كتاب الحرية عدد رقم ١٢ ، دار الحرية ، القاهرة ، يونيو ١٩٨٦ ، ص ٩٨ .

١١٧ - محمد عبد الفتاح أبو الفضل . المرجع السابق ص ١٦٦ .

١١٨ - د . أحمد عبد الرحيم مصطفى . المرجع السابق ص ٣٣٤ .

١١٩ - عبد الرحمن الرافعى . المرجع السابق . ص ٣٩١ ، د . حازم الرفاعى محمد عبيد وشهداء مصر والسودان المنسيون ، مقال منشور بصحيفة الأهرام بتاريخ ١٦ يوليو ٢٠١٦ ، ص ١٠ .

١٢٠ - د . لويس عوض . المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

أما خسائر المصريين فقد تراوحت ما بين ١٥٠٠ أو ٢٠٠٠ قتيل [١٢١]، وهذا التقدير خيالى على حد قول داود بركات [١٢٢].

ويمكن القول أن معركة التل الكبير كانت سلسلة خيانات وفضائح انتهت بهزيمة الجيش المصرى، وهى هزيمة لا يستحقها الجيش المصرى على الإطلاق، وكانت الخيانة من أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة الجيش المصرى وانتصار الجيش الإنجليزى، كانت الخيانة كبيرة وحلت كلمة جديدة فى أفواه المصريين وهى «الولس كسر عرابى» أو الولس هزم عرابى» وربما كان فى العبارة تورية ذكية، الولس بالمصرية الخيانة والولس هو ولسلى القائد البريطانى [١٢٣].

وبين الخيانة من الداخل ومن الخارج، فى السياسة وفى الميدان، وفى صفوف القوات كما فى النظام الحاكم، جاء الانكسار الأخير فى التل الكبير . لقد بدأ الاستعمار الحديث على حد قول جمال حمدان [١٢٤] ودخل الإنجليز القاهرة فى ١٥ سبتمبر فكانت بداية الإحتلال الإنجليزى، وظل عرابى – زعيم الثورة ورمزها – [١٢٥] والثورة ذاتها موضعاً للهجوم من جانب الكثيرين، اتهم بأنه السبب فى الاحتلال البريطانى علماً بأن هذا الاحتلال كان لابد أن يتم حدثت الثورة أم لم تحدث، وعرابى ورفاقه من العسكريين قد تمردوا ضد الظلم والتفرقة والاستبداد الداخلى والتدخل الخارجى، والتحموا مع شتى قطاعات المجتمع المصرى المتعطشة للتغيير، فى الوقت الذى حاولت فيه الفئات المستفيدة من الأوضاع القائمة أن تتآمر على الثورة وقيادتها، وكون الثورة قد فشلت فى تحقيق

---

١٢١ - د . أحمد عبد الرحيم مصطفى . المرجع السابق ، ص ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

١٢٢ - عبد الرحمن الرافعى . الزعيم أحمد عرابى ، ص ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

١٢٣ - داود بركات ، المرجع السابق : ص ٢٧١ .

١٢٤ - د . محمود الخفيف . المرجع السابق ص ٤٨٩ ، د. عماد أبو غازى . المرجع السابق . ص ٣٨

١٢٥ - د. جمال حمدان . شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى ، دار الهلال ١٩٩٤. ص ٦٥٧ .

أهدافها وواجهت الهزيمة ليس بالحدث الفريد، فى القرنين التاسع عشر والعشرين، فكم من حركة وطنية فى آسيا وإفريقيا واجهت الفشل فى مواجهة تفوق الدول الاستعمارية قبل أن تترسخ الظروف الموضوعية التى أدت إلى انهيار الاستعمار العالمى، فعرابى ورفاقه هم الذين فجروا عوامل الثورة فى مصر ووضعوا حجر الأساس للحركة الوطنية المصرية المناضلة التى لم تخمد جذوتها حتى تحررت مصر من شتى ألوان النفوذ الأجنبى والطبقية والاستبداد الخديوى (١٢٦) .

---

١٢٦ - د . أحمد عبد الرحيم مصطفى .. قيادة الثورة العرابية ، ص ٢٠٨ .

على خط النار

ملاحم الجيش .. وبطولات الشعب

محمد الشافعى

الكاتب الصحفى والمؤرخ

جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢ بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر ..تتويجاً لرحلة طويلة من النضال الوطنى ..

خاضها الشعب المصرى ضد فساد الحكم الملكى.. وعدوانية الاحتلال الانجليزى .

حيث استطاع عبد الناصر الضابط المستنير .. أن يجمع حوله مجموعة من افضل ضباط الجيش وأكثرهم وطنية .. لتكوين تنظيم (الضباط الأحرار) .. وذلك التنظيم الذى خطط ونفذ ثورة يوليو.. وفور إعلان البيان الأول لقيام الثورة.. خرجت جماهير الشعب المصرى لتعلن تأييدها وفرحتها.. وكانت الفرحة الأكبر تكمن فى (أن ضباط الجيش(هم الذين قاموا بهذه الثورة.

ولم تمض عدة أيام حتى كان قادة الثورة يعلنون أهدافها الستة.. وأهمها (انشاء جيش وطنى) .. قوى بما يعنى أن انتماء الجيش لن يكون إلا للوطن.. ولن يراعى فى تحركاته وأعماله إلا (بوصلة الشعب) .. والتقط المصريون الشارة والإشارة لينطلق (قطار الثورة) محملاً بالعشرات من شالفنانين والكتاب والنجوم ليجوب محافظات مصر.. فى الصعيد والدلتا ليجمع مساهمات المصريين فى المدن والقرى والنجوع من أجل تسليح الجيش المصرى.

والجميل ان تلك التجربة الرائعة قد بدأت بعد أشهر قليلة من قيام ثورة يوليو .. لتؤكد النخبة المصرية ممثلة فى النجوم والفنانين مع كبار الأدباء والمفكرين إيمانها بقيم وأهداف الثورة وليضع الشعب المصرى بصمته العبقرية من خلال تبرعاته ومساهماته التى ذهبت لدعم تسليح الجيش .. حتى يقوى ويحقق الهدف الأهم وبين أهداف الثورة الستة(إنشاء جيش وطنى قوى).وهكذا حدث ذلك (الامتزاج البديع) ما بين الجيش والشعب.. فالجديش هو الطليعة المنتخبة من الشعب ورأس الحربة التى تقاوم وتصد كل استهداف أو اعتداء على الوطن.. والشعب هو الظهير الحامى.. والاحتياطى الاستراتيجى .. الذى يقدم كل الدعم

والتأييد لجيش الوطن.. وجاء شعار (يد تبنى .. ويد تحمل السلاح) – والذى أعلنه زعيم الثورة جمال عبد الناصر – ليؤكد على ذلك الامتزاج العبقرى بين الشعب والجيش .. وانطلقت عمليات البناء تشمل كل ربوع مصر.. ولتحتل مصانع الانتاج الحربى) مكانة كبيرة.. والمخططات كانت دقيقة ومحكمة .. فكان لابد من طرح مشروعات عملاقة وقومية .. ومنها مشروع بناء السد العالى.. والذى وافق على تمويلة كل من أمريكا وانجلترا والبنك الدولى.. ولكن وأه من لكن تلك – هذا التمويل كان مشروطا بعدد من الشروط التى تنتقص من السيادة الوطنية المصرية.. وكان من الطبيعى أن يرفض عبد الناصر هذه الشروط.. لتتكشف أبعاد (المؤامرة الكبرى) على مصر .. حيث كان الاستعمار – الذى اجبرته الثورة على الرحيل عن مصر فى ١٨ يونية ١٩٥٦ (عيد الجلاء) – يسعى للعودة سريعاً ليس فقط لاحتلال مصر .. ولكن للتحكم فى أقدارها ومقدراتها.. وعنما رفض عبد الناصر تلك الشروط الاستعمارية المهينة.. اعلن الامريكان والانجليز والبنك الدولى.. الانسحاب من عملية تمويل بناء السعد العالى فى مصر.. يرد عليهم الزعيم جمال عبد الناصر بقوة.. وبعد أقل من أسبوع من قرارهم بسحب التمويل.. وذلك بقراره التاريخى بتأميم قناة السويس.. وذلك فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦.

ورغم أن تأميم قناة السويس حق مصرى أصيل.. تقره كل الأعراف والقوانين الدولية الا انه تحول إلى (شماعة) .. استخدمتها كل القوى الاستعمارية لمحاولة النيل من مصر.. وتبلورت المخططات الاستعمارية ضد مصر .. فى مؤامرة ثلاثية جمعت كلا من انجلترا وفرنسا والكيان الصهيونى... وكل طرف من الثلاثة له أهدافه من وراء ذلك (التحالف الشيطانى) – فانجلترا ترغب فى العودة إلى احتلال مصر.. درة التاج فى المستعمرات البريطانية.. وكأن الانجليز لم يكفهم أكثر من سبعين عامًا احتلوا فيها مصر.. واستنزفوا كل خيراتها.

أما فرنسا فكانت تهدف إلى (تأديب) مصر على دعمها ومساندتها للثورة الجزائرية .. وإحتضان ودعم ثوار الجزائر بالتأييد السياسى والدعم العسكرى .. بينما الكيان الصهيونى كان يهدف الى (وأد) تلك القوة المصرية التى أخذت فى التنامى .. والقدرة على التأثير إقليميا وعالميًا.. وكان الكيان الصهيونى يهدف أيضا إلى تعويض خسائرة بعد أن كشفت مصر وفضحت العمليات الارهابية الصهيونية ضد المصالح الانجليزية والامريكية فى مصر.. لتعطيل إنجاز (اتفاقية الجلاء) بين مصر وانجلترا.. تلك العمليات الارهابية التى اشتهرت باسم (عملية لافون).. واجتمع أطراف المؤامرة الثلاثة فى ضاحية (سيفر) على أطراف العاصمة الفرنسية باريس.. واتفقوا على كل تفاصيل المؤامرة .. والتى تبدأ بإغارة الصهاينة على سيناء يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦.. ثم أصدار انجلترا وفرنسا بيانا يطلب انسحاب مصر والكيان الصهيونى لمسافة عشرة كيلو مترات بعيدًا عن قناة السويس شرقًا وغربًا.. وصدر هذا التحذير الهزلى بينما قوات الصهاينة لم تدخل المسافة عشرة كيلو مترات فى سيناء.. ورفضت مصر هذا الانذار وقبلة الصهاينة.. لتبدأ بعدها الغارات الجوية الفرنسية الانجليزيه على مدى خمسة ايام وتركزت هذه الغارات على مدينة بورسعيد.. وكانت خطة المؤامرة على الجيش المصرى .. الصهاينة من شرق القناة والانجليز والفرنسيون من الغرب .. وعلى الفور أمر عبد الناصر بتعطيل الملاحة فى قناة السويس من خلال اغراق واحدة من المراكب الكبيرة بعرض القناة.. كما أمر بسحب قواتنا من سيناء.. ليصبح الطريق البرى هو البديل الوحيد امام القوات الانجليزيه والفرنسية.. وعند ذلك سيصبحون فى مواجهة مع كل الشعب المصرى .. خاصة بعد أن اعتلى جمال عبد الناصر منبر الأزهر الشريف بعد صلاة الجمعة.. وخطب فى الجماهير معلنًا صيحته الوطنية المدوية(سنقاتل .. سنقاتل) وعلى الفور تكونت مجموعات المقاومة الشعبية فى بورسعيد.. اكثر من عشر مجموعات بقيادة مصطفى كمال الصياد ..وتحت اشراف ضابطى المخابرات سمير غانم وعبد الفتاح أبو

الفضل .. وسارع كل شباب بورسعيد للانضمام لمجموعات المقاومة الشعبية .. خاصة بعد أن وفر السلاح والذخيرة ... التى تم توزيعها على كل أبناء المدينة بلا أى شرط أو ضمان إلا ضمان الوطنية والانتماء .. ورغم احتلال مدينتى بورسعيد وبورفؤاد .. من قبل الانجليز والفرنسيين .. إلا إن أبطال المقاومة خاضوا العديد من المعارك.. ونفذوا العديد من العمليات ضد قوات العدوان وكان محافظ القنال .. وهو السيد محمد رياض وهى المحافظة التى تضم الاسماعيلية وبورسعيد فى ذلك الوقت نموذجا للصمود حيث رفض كل الضغوطات التى مارسها ضده كل قيادات العدوان.. ورغم صعوبة وجود قوات الجيش فى مواجهات مباشرة مع قوات العدوان إلا إن بعض ضباط الصاعقة بقيادة جلال هريدى إستطاعوا التسلل إلى بورسعيد عبر بحيرة المنزلة.. واستطاعت السيدة أم على إخفاءهم فى عيادة طبيب الاسنان الذى تعمل لديه. واستطاع عبد الناصر أن يحرك العالم ضد هذا العدوان الغاشم.. ومنذ اللحظة الأولى للعدوان وقفت العديد من الدول مع مصر ومنها الاتحاد السوفيتى – الهند – يوغوسلافيا.. وأصدر الاتحاد السوفيتى إنذاراً شديد اللهجة إلى المعتدين.. وبعده أصدرت أمريكا إنذاراً آخر ضد المعتدين .. وفى المقابل كانت عمليات المقاومة الشعبية شديدة الايلام للمعتدين.. حيث إستطاع البطل محمد حمد الله ورفاقة خطف الضابط الانجليزى (أنتونى مورهاوس) – والذى انقلب العالم من أجله.. ..حيث اتضح أنه قريب الملكة اليزابيث .. وأصيب الانجليز بسعار شديد بحثًا عن هذا الضابط .. والذى أخفاه الفدائيون داخل صندوق مما أدى إلى موته فى النهاية .. وراح ضابط المخابرات الانجليزى (وليامز) يحقق مع ضباط الشرطة بالمدينة بحثًا عن ضابطهم المخطوف.. ويعذب من يقع منهم فى الأسر. وقامت مجموعة أبطال الصاعقة بقيادة جلال هريدى بتنفيذ عملية جريئة ضد دبابات العدو .. أدت كل هذه العمليات إلى انسحاب الانجليز والفرنسيين من مصر.. ذلك الانسحاب الذى تم فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ .. ليصبح هذا اليوم عيدًا للنصر .. بعد أن شارك

الشعب والجيش جنبا إلى جنب فى مقاومة ودحر العدوان.. وقرر عبد الناصر تعيين السيد عبد اللطيف بغدادى وزيراً لإعمار بورسعيد.. فذهب إلى هناك ومعة كمية كبيرة من (ميدالية بورسعيد) .. ليمنح كل بطل ميدالية .. ويسترد منه السلاح الذى معه .. فى تجربة إنسانية فريدة لم ولن تتكرر فى أى دولة من العالم.. حيث لم يتخلف عن هذه التجربة (لص أو بلطجى أو قاطع طريق أو إرهابى) .. ويلخص البطل الراحل سيد عسران هذه التجربة قائلا (كان الزعيم يثق فى شعبه .. وكان الشعب يثق فى زعيمه) .. واستطاعت مصر أن تدير القناة بأعلى كفاءة رغم انسحاب كل المرشدين الاجانب حيث تعاون المرشدون المدنيون مع ضباط القوات البحرية للقفيام بهذه المهمة الصعبة كما استطاعت مصر أن تخرج من تجربة العدوان الثلاثى وهى أكثر قوة وتأثيراً عربياً وإقليمياً ودولياً .. لتضع بصماتها فى كل الاتجاهات حيث ساندت كل حركات التحرر فى العالم.. وخاصة الثورات العربية ضد الظلم والاحتلال وساهمت مع الهند ويوغوسلافيا فى تأسيس منظمة عدم الانحياز .. واعترفت بالصين الشعبية وذلك ضد رغبة الأمريكان والغرب بشكل عام.. ألخ .

وفى الداخل عملت مصر بقيادة جمال عبد الناصر على المضى بخطى ثابتة وعملاقة فى طريق التنمية.. بداية من مشروع السد العالى .. مرورًا بإنشاء المصانع الكبرى .. واستصلاح مئات الآلاف من الأفدنة .. وإنشاء المدارس والمستشفيات ومراكز الشباب ..وكل هذه الخطوات العملاقة لم تكن على هوى الغرب.. وخاصة الحلف الصهيو أمريكى .. فكان لابد من إعداد مؤامرة أكثر إحكامًا من مؤامرة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.. وذلك لضرب التجربة المصرية حتى لا لايتم استنساخها أو تكرارها فى دول العالم الثالث.. ومعه شمس بدران الذى كان وزيراً للحربية فى ذلك الوقت .. وبدأت فصول المؤامرة صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ .. بضربة هائلة من الطيران الصهيونى على كل المطارات المصرية .. لتفقد مصر ٨٥٪ من سلاحها الجوى .. وبكل الشجاعة والفروسية خرج عبد الناصر على

الشعب فى خطابة الشهير يوم ٩ يونيه ١٩٦٧ معلنا مسؤليتة الكاملة عما حدث .. ومعلنا تنحيه عن السلطة وما إن إنتهى الخطاب الحزين حتى إمتلأت كل شوراع مصر والوطن العربى بالملايين من الجماهير.. التى خرجت لتعلن رفضها لقرار التنحى .. أولاً لثقتها فى شخص عبد الناصر وقدرته على الخروج من هذه الأزمة ومحو آثار العدوان.. والأهم لأن هذه الجماهير التى تحب عبد الناصر رفضت أن يتخلى عن مسؤلياته.. وأرادت أن يتحمل كامل المسؤلية عن محو عار الهزيمة.

وكان عبد الناصر عند حسن ظن الجماهير حيث عدل عن قرار التنحى يوم ١٠ يونيه .. وفى اليوم التالى مباشرة بدأ مسيرة الإصلاح وذلك بتغيير قيادات القوات المسلحة.. حيث أتى بالفريق محمد فوزى الأكثر ضبطا وربطا وإنضابطا ليصبح القائد العام للقوات المسلحة .. وأتى بالفريق عبد المنعم رياض ليصبح رئيس أركان حرب القوات المسلحة .. وهو الأكثر علما وقدرة إستراتيجية وتكتيكية .. وتم تغيير قادة الأسلحة حيث جاء الفريق مدكور أبو العز قائداً للطيران .. وهكذا وضع عبد الناصر مسئولية الجيش فى يد مجموعة من الكفاءات الحقيقية .. وكانت تكليفاته واضحة وحاسمة بضرورة إعادة بناء القوات المسلحة فى أسرع وقت ممكن.. وذلك إستعدادا لمعركة الثأر ورد الكرامة ضد العدو الصهيونى.

وعاد الفريق رياض من الجبهة الأردنية التى كان يقودها فى يونيه ١٩٦٧..ليبدأ على الفور مع الفريق فوزى وضع مجموعة من الأسس والقواعد لبناء جيش قوى.. يأخذ بكل أسباب العلم.. وكان القرار الأهم هو التوسع فى تجنيد حملة المؤهلات المتوسطة والعليا.. وذلك لقدرتهم على استيعاب التكنولوجيه الحديثة.

ورغم مشاعر الغضب والألم التى ملأت قلوب كل مصرى سواء فى الشعب أو الجيش وخاصة بين أفراد القوات المسلحة ..لأنهم ظلموا ولم يخوضوا أى معركة ضد العدو .. وفى أيام قليلة بعد وقف إطلاق النار كان أبطال

الجيش على أتم الاستعداد لخوض معارك نوعية لاستنزاف قدرات العدو.. وجاءتهم الفرصة سريعًا .. عندما أخبر أحد المرشدين القيادة العسكرية في بورسعيد بتحرك قول كبير من مدرعات العدو من القنطرة شرق متجهاً إلى بورسعيد – وعلى الفور تم إعداد فصيلة من الكتيبة ٤٣ صاعقة بقيادة الملازم فتحى عبد الله ومعه الرقيب حسن سلامة... ليعبروا على الفور من عند نقطة رأس العش إلى شرق القناة وكان عدد كل أفراد الفصيلة ٢٨ فرداً معهم مدفع مضاد للدبابات .. وبعض مدافع **RBG7** .. وكان الوحيد الذى يجيد التعامل مع هذا السلاح الجديد هو الرقيب حسن سلامة .. ومع آخر ضوء تحركت قوات العدو بكل الغرور والصلف .. ورغم علمها بوجود القوة المصرية إلا أنها أبدت كل إستهانة وإستخفاف بهذه القوة... وعملت على ضرب القوة المصرية الموجودة فى غرب القناة أولاً .. ثم تقدمت فى إتجاة فصيلة الصاعقة الموجودة فى رأس العش.. لتفاجأ بأبطال مصر يفتحون من النيران من كل ناحية .. وحاول العدو الالتفاف عبر الملاحات لضرب القوة من الخلف ... فكان له الابطال بالمرصاد.. فخرجت من صرخاتهم واستغاثاتهم لكى يأتيهم المدد .. ليعبر البطل ملازم أول عبد الوهاب الزهيرى ومعه فريقه من جنوده إلى الشرق.. ولينجحوا فى تدمير أربع دبابات للعدو.. ويقطعوا خط إمداده .. والأهم أن الزهيرى وجد فى هذه الدبابات كنزاً من الخرائط والوثائق .. وعندما عاد الزهيرى ورجاله إلى الغرب وكان النهار قد أضاء الكون .. وجد البسطاء من أهالى المنطقة قد أعدوا له إفطاراً شهياً من الجبن والبيض ..ورغم سقوط عشرين شهيدا من غرب شرق القناة.. إلا أن خسائر العدو كانت أضعاف ذلك .. إضافة الى تدمير أكثر من عشر دبابات .. والاهم هو إفشال خطة العدو التقدم واحتلال مدينة بورفؤاد .. فهى المدينة الوحيدة التى ظلت محررة فى كل سيناء.. وكان الصهاينة يحاولون احتلالها لمساومة مصر على افتتاح قناة السويس مع اقتسام العائد بالنصف .

وفـى صبـاح الأول مـن يوليـه ١٩٦٧ .. أى بعـد ٢٥ يومـاً فقـط مـن الهزيمـة .. خـرج وزيـر الحـرب الصهيونـى فـى مؤتمـر صحفـى وهـو يـكاد يبكـى ليعلـن تفاصيـل معركـة رأس العـش .. وكيـف استطاعت قـوة مصريـة صغـيرة أن تقهـر (قـول مـدرع للعـدو) .

وكان الرئيـس عبـد الناصـر يتابـع تفاصيـل هـذه المعركـة لحظـة بلحظـة مـن خـلال تليفـون نقطـة إرشـاد رأس العـش .. وأصـدر أوامـره فـى الثانيـة صباحـاً وأثنـاء القتـال بترقيـة كل مـن شـارك فـى هـذه المعركـة إلى الرتبـة الأعلـى.. ليقـدم الجيـش المصرى الدليـل القاطـع علـى أنـه قـد ظلـم فـى معركـة يونيـه ١٩٦٧ .. وأن الفرصـة عندمـا جاءتـه اسـتطاع أن يلقـن العـدو درسـاً لم ينسـه حتـى الآن.. واسـتطاع أن يحقـق مـا لم ولـن يحققـه أى جيـش آخـر .. حيـث نهـض مـن الهزيمـة الى المقاومـة والمواجهـة فـى أقـل مـن خمسـة وعشـرين يومـاً.

منظمة سيناء العربية:

وتوالـت بعـد ذلـك ملحمـة حـرب الإسـتنزاف .. التـى إسـتمرت أكثـر مـن ألـف يـوم.. تلقـى خلالهـا العـدو الصهيونـى ضربـات موجعـة.. ممـا جعلـه يطلـب مـن حلفائـه الأمريـكان أن يبلغـوا مصـر إسـتعداده للإنسـحاب مـن سـيناء كاملـة .. وتقـدم الأمريـكان بمبادرتـين فـى نوفمـبر ١٩٦٨ وفـى مـارس ١٩٦٩ لانسـحاب الصهاينـة مـن سـيناء مقابـل مـرور سـفنهم فـى قنـاة السـويس .. ولكـن الزعيـم جمـال عبـد الناصـر أبـى أن يقـدم علـى (الحـل المنفـرد) وأصـر علـى أن يتـم حـل كل القضيـة العربيـة مـرة واحـدة.. فالإنسـحاب مـن الجـولان مـن قبـل الإنسـحاب مـن سـيناء.. وحـل القضيـة الفلسـطينية قبـل حـل القضيـة المصريـة .. وقـد شـهدت ملاحـم حـرب الاسـتنزاف واحـدة مـن أهـم تجليـات تلاحـم (الجيـش والشـعب).. وذلـك مـن خـلال (منظمـة سـيناء العربيـة) .. تلـك المنظمـة التـى نشـأت بمبـادرة شـعبية.. وبرعايـة عسـكرية .. وذلـك بعـد أحـداث يونيـه ١٩٦٧ .. وكانـت البدايـة مـن البطـل عبـد المنعـم خالـد.. الشـاب السويسـى الـذى بـادر بالإلتحـاق بالمقاومـة الشـعبية بعـد يونيـه

١٩٦٧ ..وكان يعمل سائقاً بشركة البحر الأحمر.. ودائم السفر ما بين السويس والقاهرة.. لإحضار السلاح اللازم لعمليات المقاومة .. وفى احدى سفرياته الى القاهرة ذهب الى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية .. وطلب التطوع للعمل الفدائى بالأرض المحتلة .. وملأ الاستمارة الخاصة بذلك وتوالت عمليات أبطال منظمة سيناء العربية ضد العدو الصهيونى فى عمق سيناء.. وفى المقابل كان البطل ابراهيم الرفاعى قد شكل مجموعته ٣٩ قتال من أبطال الصاعقة البحرية .. وراح ينفذ عشرات العمليات النوعية المبهرة ضد قوات العدو فى كل سيناء شمالاً وجنوباً ووسطاً.. وأدت عمليات المجموعة ٣٩ ومنظمة سيناء الى تسابق كل جنود الجيش المصرى لطلب الاشتراك فى الهجمات ضد العدو .. الذى لم يجد أمامه لوقف هذا الطوفان إلا الإغارة على المدنيين الأبرياء .. وفى كل مرة يلجأ إلى هذه الخسة .

لسان التمساح:

وسوف نكتفى بذكر عملية واحدة من عمليات منظمة سيناء العربية .. وعملية أخرى للمجموعة ٣٩ قتال .. حيث حيث قررت مصر مع بداية مارس ١٩٦٩ تصعيد حرب الاستنزاف لتصبح بطول الجبهة من بورسعيد إلى السويس ومن العمق حتى الطور وشرم الشيخ وبدأ هذا التصعيد بضربة قاصمة وقاسية من المدفعية المصرية بطول الجبهة يوم ٨ مارس ١٩٦٩ .. ليصاب العدو بخسائر فادحة فى الأفراد والعتاد.

وفى اليوم التالى ذهب الفريق عبد المنعم رياض إلى الجبهة ليتعرف عن قرب على ما فعلته ضربة المدفعية فى مواقع العدو .. وبعد مروره على عدة مواقع وصل الى موقع نمرة ٩ بالإسماعيلية .. والذى لا يبعد عن قوات العدو بأكثر من ٢٥٠ متر ..فى أقصر مسافة يقف عندها قائد بهذه الرتبة الكبيرة فى كل حروب العالم .. وبعد أن تفقد الأوضاع وحيا الجنود والضباط .. لاحظ العدو حركة غير اعتيادية فى هذا الموقع

فبدأت مدفعيته إستهداف الموقع لينزل كل الجنود والضباط إلى (المخابئ البرميلية) وترد مدفعيتنا على هذا الهجوم .. ونزل الفريق رياض ومعه قائد الجيش الثانى إلى أحد هذه المخابئ البرميلية .. وفجأة تسقط دانة مدفع عند فتحة هذا المخبأ وتنفجر ..، ليصاب الفريق رياص بعملية (تفريغ هواء) عملت على إصابة كل أغضائه داخل الجسم.. وكان هو الوحيد الذى أصيب خلال هذه الغارة .. ورغم محاولة نقله بكل السرعة الممكنة إلى المستشفى .. إلا أن النزيف الداخلى كان كبيراً ليستشهد هذا البطل العظيم .. وتقام له جنازة حاشدة خرجت من مسجد عمر مكرم وعلى رأسها الزعيم جمال عبد الناصر إلى مسجد جركس فى شارع صبرى أبو علم وسط القاهرة.. وراحت الجماهير التى ملأت كل شوارع المدينة تهتف بصوت واحد (بالجيش والشعب هنكمل المشوار) .. وجاءت أوامر عبد الناصر .. بضرورة الانتقام من الموقع الذى خرجت منه الدانة التى استشهد بها الفريق رياض .. وتم اسناد المهمة للمقدم ابراهيم الرفاعى قائد المجموعة ٣٩ قتال.. والذى أعد خطته بالإغارة على موقع العدو فى لسان التمساح يوم ١٩ إبريل ١٩٦٩ .. وكأنه أراد الاحتفال بذكرى مرور أربعين يومًا على إسشهاد رياض.. وهى عادة مصرية قديمة ..وكان موقع لسان التمساح يبعد عن شاطئ القناة بأكثر من ثلاثة كيلو مترات فى عمق سيناء .. وهو نقطة حصينة مكونة من أربع دشم تطل على مساحة واسعة .. وأعد الرفاعى خطته بعد تقسيم قواته إلى سبع مجموعات .. مجموعة لقيادة القوارب والاستطلاع ..ومجموعة لقطع طريق امدادات العدو .. ومجموعة للقيادة والسيطرة .. وأربع مجموعات وكانت المجموعات بقيادة الضباط أحمد رجائى عطية.. محيى نوح – وئام سالم.. محسن طه .. والعملية كلها بقيادة الرفاعى.. وفى الموعد المحدد عبر الأبطال ووصلوا إلى النقطة الحصينة وراحب كل مجموعة تنفذ المهام الموكلة إليها.. وفوجئ العدو بهذه الخطة المحكمة.. وكانت النتيجة قتل كل من كان داخل الدشم .. وإنزال العلم الصهيونى.. وفك رشاش نصف

بوصة كان فى الساحة التى بين الدشم .. وتدمير دبابتين حاولتا انقاذ الموقع .. ولم يصب إلا فردان من القوات المهاجمة منهما النقيب محيى نوح الذى زاره الزعيم جمال عبد الناصر فى مستشفى المعادى واستمع منه إلى التفاصيل الدقيقة لهذه العملية.

وكانت هذه العملية بداية لعدة عمليات من الاغارة على النقاط الحصينة للعدو مما كان له أكبر الأثر عند العبور العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣.

الهجوم فى وضح النهار:

أما عملية منظمة سيناء العربية .. والتى نفذها فدائيو السويس فحملت إسم (الهجوم فى وضح النهار) ..وتم تنفيذها يوم ٥ نوفمبر ١٩٦٩ .. وشارك فيها مجموعة من الأبطال الفدائيين المدنيين وهم مصطفى أبو هاشم، محمود عواد .. محمود طه – فتحى عوض الله – عبد المنعم قناوى – ميمى سرحان – سعيد البشتلى – عبد المنعم خالد – أشرف عبد الدايم – فايز حافظ أمين – إبراهيم سليمان – أحمد عطيفى .

حيث تم التدريب والتخطيط على إصطياد دورية للعدو الصهيونى مكونة من سيارتين ودبابة تمر يوميا على الشاطئ الشرقى لقناة السويس.. وكان العدو قد مد بطول الشاطئ (سلك حساس) .. موصول بمجموعة من الألغام .. ولكن سلاح المهندسين نجح فى تأمين الألغام .. وقص هذا السلك وربما حدث خطأ ما عند قص السلك مما جعل نقطة مراقبة العدو تشعر بتغيير فى الأوضاع .. مما جعل العدو يدفع بثلاثة جنود معهم أجهزة للبحث عن المتفجرات .. ومعهم خمسة كلاب مدربة على شم المتفجرات.. وبعدهم تسير الدورية المكونة من السيارتين والدبابة .. وكان الأبطال المصريون قد قسموا أنفسهم طبقاً للخطة الموضوعة إلى أربع مجموعات .. مدموعتان للهجوم .. ومجموعتان للحماية والتأمين .. ولكن تغير كل التخطيط فجأة ..حيث اقترب أحد الجنود الصهاينة ومعه

جهاز كشف المتفجرات من مكان دفن المتفجرات .. وانحنى على المكان مباشرة.. فعاجله البطل مصطفى أبو هاشم بطلقة أنهت حياته وبادر كل الأبطال إلى تصويب أسلحتهم إلى السيارتين والدبابة .. ويقفز جنود العدو من السيارتين مثل الفئران .. وقبل أن يتمكنوا من الإمساك بأسلحتهم .. كانت طلقات الأبطال تحصدهم .. ليتم قتل ثمانية منهم .. وكانت الأوامر ضرورة العودة بأسير .. واستطاع البطل محمود عواد الإمساك بأحد الجنود وكان ضخم الجسم .. وسلمه للبطل محمود طه .. الذى ذهب به إلى القارب.. ولم ينج من كل جنود العدو فى الدورية إلا جندى طويل جداً يرتدى نظارة سميكة جداً .. كان يجرى مرعوباً لدرجة أن ركبتيه كانتا ترتطمان فى جبهته.. ورغم أنه كان فى مرمى نيران محمود طه إلا أنه تركه .. لأنه كان مذعوراً وكان يردد كلمة واحدة (والنبى والنبى) .. وهى كلمة لا يقولها إلا المصريون.. وأكد محمود طه أنه تركه لكى يذهب إلى قادته ويحكى عن الرعب والهلع وعن قدرة المصريين على المواجهة والقتال بشجاعة وتحقيق الانتصار على أجهزتهم وجنودهم.

ولم تنتهى العملية عند هذا الحد .. حيث كان البطل محمود عواد يحمل معه علم مصر.. وبسرعة شديدة إستطاع ب (السونكى) حفر حفرة مناسبة غرس فيها العلم .. وأحاطة بمجموعة من الألغام وظل هذا العلم يرفرف لمدة عامين .. حيث تم تكليف القوات المصرية الموجودة غرب القناة بحراستة على مدى الأربع وعشرين ساعة .. وظل العلم يرفرف إلى أن تآكل بفعل الرياح وعوامل التعرية .. وظل السارى مغروساً فى الأرض حتى حرب أكتوبر.. وفى طريق العودة بالقارب عبر القناة غرس الأسير الصهيونى الذى إدعى الموت خنجره فى يد البطل محمود طه الذى لم يصرخ أو يتألم .. وشاهده مصادفة محمود عواد فضرب الأسير على رأسه.. وعاد الأبطال ليتلقوا تهنئة القادة.. مع لوم خفيف لأن العملية تم تنفيذها فى تسع دقائق بدلاً من عشرة.. ولأنهم قاتلوا من الوضع واقفاً.. مما يجعلهم هدفاً سهلاً لأى هجوم من العدو يأتى من العمق.

السد العالى وانتصار اكتوبر:

وتتواصل ملاحم الجيش .. وبطولات الشعب .. وكان السد العالى أعظم المشروعات الهندسية فى القرن العشرين.. ساحة لوحدة الجيش والشعب.. ولن نغال إذا قلنا إن السد العالى قد ساهم بنصيب كبير فى تحقيق إنتصار اكتوبر .. وتبدأ الحكاية بانتداب مجموعة من الضباط المهندسين بالقوات المسلحة للعمل فى السد العالى .. وكان من بينهم المقدم باقى زكى يوسف .. والذى كان مسئولاً عن (الحملة) أو السيارات .. وراح آلاف العمال والمهندسين ومعهم ضباط الجيش .. يسطرون تلك الملحمة العظيمة فى أسوان .. إلى أن وقع عدوان يونية ١٩٦٧.. ليتم استدعاء ضباط القوات المسلحة للإنضمام إلى وحداتهم .. وذهب المقدم باقى زكى يوسف ليصبح مسؤلاً عن (مركبات) الفرقة ١٩ بالجيش الثالث .. وفى مايو ١٩٦٩ .. جاءت الأوامر من الرئيس عبد الناصر بضرورة وضع الخطط للعبور الشامل وتحرير سيناء.. وكان الرئيس عبد الناصر طوال حرب الإستنزاف يتصل يومياً بالفريق محمد فوزى القائد العام للجيش.. ويجتمع أسبوعياً بكل قادة الجيش للوقوف على آخر التطورات .. ومعرفة كل المتطلبات والعمل على تلبيتها .. وبعد أن جاءت الأوامر بوضع خطط العبور الشامل.. عقد اللواء سعد زغلول عبد الكريم قائد الفرقة ١٩ إجتماعاً مع قادة الأفرع بالفرقة.. ودار النقاش طويلاً حول كيفية التغلب على خط بارليف .. الذى ارتفع الى ٢١ متر .. وأصبح عرضه من ١٠ إلى ١٢ متراً .. وكانت كل أفكار القادة تدور حول تلغيم أجزاء من خط بارليف بكميات هائلة من المتفجرات لعلها تساعد فى فتح ثغرة .. أو توجيه مئات المدافع لتضرب على نقطة بعينها .. لعلها أيضا تنجح فى فتح ثغرة فى هذا الخط الرهيب .. وكان خبراء العسكرية فى الشرق والغرب قد أجمعوا على أن فتح ثغرة فى خط بارليف يحتاج إلى (قنبلة نووية) بما يعنى إستحالة عبور القوات المصرية إلى شرق القناة.. وأن مصر ستكتفى بالعمليات الخاصة التى يقوم بها أبطال الجيش والفدائيون ..

وهـذه العمليـات لـن تحـرر سـيناء ووسـط هـذا النقـاش العسـكرى والإسـتراتيجى رفـع المقـدم باقـى يـده .. فقـال لـه اللـواء سـعد زغلـول عبـد الكريـم (رافـع إيـدك ليـه يـا باقـى مـا إنـت اللـى هتشـيل ده كلـه) فـرد (يـا فنـدم عايـز اتكلـم فـى مشـكلة السـد الترابـى).. فنظـر إليـه كل زملائـه الضبـاط ..وكأنهـم يقولـون مـاذا سـيقول(ضابـط مركبـات) عـن هـذه المشـكلة الصعبـة .. فقـال لـه اللـواء سـعد (قـول يـا باقـى).. فقـال يـا فنـدم المشـكلة سـهلة .. فالصهاينـة صنعـوا المشـكلة ووضعـوا الحـل تحـت أقدامهـا، والحـل هـو (طلمبـات ماصـة كابسـة) يتـم تركيبهـا علـى القـوارب المطاطيـة .. لتأخـذ الميـاة مـن القنـاة.. وتضخهـا بقـوة علـى جسـم السـد الترابـى لينهـار فـى المـاء.. خاصـة وأن السـد مصمـم بزاويـة ميـل ٨٠ درجـة مثـل جسـر القنـاة تمامـاً.. ومكـون مـن كثبـان رمليـة طبيعيـة مـع ناتـج حفـر القنـاة .. وعندمـا انتهـى المقـدم باقـى مـن شـرح فكرتـه لم يتلـق أى رد فعـل مـن أى أحـد.. حيـث سـاد صمـت رهيـب وكأن علـى رؤوسـهم الطـير.. ولم يقطـع هـذا الصمـت إلا اللـواء سـعد وهـو يقـول(قـول تانـى) .. وشـرح المقـدم باقـى فكرتـه مـرة أخـرى ليـدور حولهـا النقـاش.. ويحسـم المقـدم باقـى هـذا النقـاش بقولـه (يـا فنـدم لقـد جربنـا هـذه الفكـرة فـى السـد العـالى عندمـا كنـا نجـرف الرمـال والحصـى بقـوة إندفـاع الميـاه) .. وعنـد هـذا الحـد رفـع اللـواء سـعد زغلـول سماعـة التليفـون وكانـت السـاعة قـد تخطـت منتصـف الليـل وطلـب اللـواء طلعـت حسـن علـى قائـد الجيـش الثالـث.. وشـرح لـه الفكـرة .. فطلـب منـه قائـد الجيـش الثالـث أن يأتـى إليـه فـى مكتبـه صباحـاً ومعـه الضابـط صاحـب الفكـرة .. وفـى الثامنـة صباحـاً .. كان اللـواء سـعد والمقـدم باقـى فـى مكتـب اللـواء طلعـت .. والـذى اسـتمع إلى شـرح تفصيلـى للفكـرة .. ليرفـع بعدهـا سماعـة التليفـون ويطلـب اللـواء ممـدوح جـاد تهامـى نائـب رئيـس هيئـة العمليـات ويشـرح لـه الفكـرة .. ليطلـب اللـواء ممـدوح أن يتـم إرسـال الضابـط صاحـب الفكـرة فـوراً إلى هيئـة العمليـات.. وبسـيارة قائـد الفرقـة ذهـب المقـدم باقـى إلى هيئـة العمليـات بالقاهـرة وتصـادف أن اللـواء ممـدوح كان قائـداً للفرقـة ١٩ ويعـرف المقـدم باقـى

جيداً .. واستمع منه لشرح تفصيلى للفكرة ليرفع سماعة التليفون ويطلب اللواء جمال محمد على قائد سلاح المهندسين.. ويطلب منه أن يسمع فكرة المقدم باقى.. على أن يعود باقى إلى هيئة العمليات مرة أخرى.. واستمع قائد سلاح المهندسين إلى شرح تفصيلى للفكرة ليضرب بعدها بكفه على مكتبه ويصيح (ما هى ما تجيش غير كده).

وقبل أن يعود المقدم باقى إلى مكانة فى الفرقة ١٩ مر على وزارة السد العالى.. وكانوا يعرفونه جيداً وحصل على كل الرسومات والمعلومات عن الطلمبات التى تشرح كيفية عمل هذه الطلمبات التى كانت تجرف الحصى والرمال فى أعمال السد العالى.

وبعد يومين طلب قائد الفرقة اللواء سعد زغلول من المقدم باقى أن يكتب فكرته بشكل شديد الإختصار والإيضاح لإن الفكرة سوف تعرض على الرئيس عبد الناصر فى اجتماعه الأسبوعى مع قادة الجيش .. كما طلب اللواء سعد من المقدم باقى حرق كل المسودات الموجودة لديه.. وفى اجتماعه مع قادة الجيش أقر عبد الناصر هذه الفكرة العبقرية .. وطلب عمل التجارب عليها.. وتمت أول تجربة فى منطقة حلوان.. حيث تم فتح الثغرة فى ثلاث ساعات ونصف.. وتوالت التجارب لتصل إلى ٣٠٠ تجربة .. وكانت التجربة الأخيرة فى جزيرة البلاح فى قلب قناة السويس .. على سد من نفس الرمال المكون منها خط بارليف .. وتم استيراد الطلمبات من إنجلترا .. وكانت تفتح الثغرة فى ثلاث ساعات وربع الساعة.. ثم تم استيراد طلمبات توربينية من ألمانيا كانت تفتح الثغرة فى ساعتين فقط .. وفى يوم السادس من أكتوبر تم فتح ستين ثغرة فى أقل من ثمانى ساعات ليعبر أول لواء مدرع فى الثامنة والنصف مساءً أى قبل موعد عبوره بساعتين كاملتين واستطاعت فكرة العبقرى باقى زكى يوسف أن تزيل ٩٠ ألف متر مكعب من رمال خط بارليف.. ليصبح العبور الى شرق القناة.. ربما اسهل من العبور من غرب إلى شرق نهر النيل.

حائط البطولات:

مع توالى الضربات المصرية الموجعة ضد الأهداف الصهيونية خلال حرب الإستنزاف وجد العدو الصهيونى نفسه عاجزاً عن (الرد العسكرى) فى كتير من المواجهات . فلجأ إلى القسوة والعنف غير المبرر ضد المدنيين فى مدن القناة الأربع .. الإسماعيلية والسويس وبورسعيد والقنطرة غرب .. فرفع عبد الناصر شعار (التهجير جزء من المعركة) .. وتم تهجير مئات الألاف من سكان مدن القناة إلى الدلتا والصعيد .. ورغم ذلك واصل العدو الصهيونى ضرباته ضد الأهداف المدنية فى معامل البترول بالزيتيات فى مدينة السويس .. وفى مدرسة لأطفال فى بحر البقر على مشارف مدينة بورسعيد .. وفى مصنع أبو زعبل بالقليوبية .. وفى قناطر نجع حمادى فى قلب الصعيد.. وغير ذلك من استهداف المدنيين فى محاولة يائسة لإضعاف الروح المعنوية عند المصريين .. وتأليبهم ضد جمال عبد الناصر .. وقد ردت مصر بضرب مدينة إيلات ثم مصانع فوسفات سيدوم بالصواريخ.. ولكن التفكير الأهم كان بضرورة قطع تلك الذراع الطولى للصهاينة والمتمثلة فى ذلك التفوق الجوى .. ومثل هذا التفكير لن يصبح واقعاً إلا ببناء حائط قوى من صواريخ الدفاع الجوى.. ولتحقيق هذا الهدف سافر عبد الناصر فى رحلة سرية إلى موسكو خلال شهر يناير ١٩٧٠ وفى هذه الرحلة تعمد عبد الناصر تصعيد المواجهة مع القادة السوفييت حيث هدد بترك الحكم فى مصر – لمن يستطيع التفاهم مع الأمريكان .. الذين عرضوا إعادة سيناء كاملة لمصر فى حل منفرد.. وأمام جدية وصرامة عبد الناصر.. اضطر السوفييت إلى الاستجابة لكل مطالبة العسكرية وأهمها بناء حائط من صواريخ سام ٦ و سام ٣ .. وتزويد مصر أيضاً بصواريخ سام ٧ المحمولة على الكتف .. ووضع السوفيت تحدياً قوياً أمام عبد الناصر .. وهو ضرورة بناء هذا الحائط خلال مدة لا تزيد عن أربعين يوماً .. وقبل عبد الناصر التحدى .. وعاد إلى مصر ليعقد العديد من الاجتماعات مع القادرة العسكريين والمدنيين

للإتفاق على آليات بناء هذا الحائط الصلب الذى سيصدر عنا تلك الغارات البربرية المجنونة من الطيران الصهيونى.. وتم تكليف اللواء محمد على فهمى قائد سلاح الدفاع الجوى - ذلك السلاح الذى تم استحداثه بعد يونيه ١٩٦٧..ليصبح سلاحاً قائماً بذاته بعد أن كان جزءً من القوات الجوية - للإشراف على بنالء الدشم الخرسانية التى ستوضع بها كتائب الصواريخ.. وتم الاتفاق على مشاركة شركات المقاولات الكبرى وهى المقاولين العرب - نصر علام - مختار ابراهيم فى هذه العمليه التى تحولت إلى نموذج وملحمة بناء عملاقة.. حيث دار صراع رهيب مع الطيران الصهيونى الذى أصيب بأقسى وأقصى درجات (السعار) فى محاولات مجنونة لايقاف بناء تلك الدشم الخرسانية.. ورغم سقوط مئات الشهداء من العمال والجنود .. إلا أن هذه الملحمة انتهت ببناء أكثر من مائة دشمة بعضها أساسى - وبعضها إحتياطى وبعضها هيكلى .. وكانت الدشم الرئيسية بعمق من ٦ - ٨ متر وبطول ٦٠ متر وكل هذا من الخرسانة .. واستطاعت ١٨ كتيبة دفاع جوى التقدم إلى هذه الدشم العملاقة بداية من ٣٠ يونيه ١٩٧٠ واكتمل الحائط العملاق يوم ٣ أغسطس ١٩٧٠ - أى قبل خمسة أيام فقط من قبول عبد الناصر لمبادرة وزير الخارجية الأمريكى فى ذلك الوقت (وليم روجرز) .. تلك المبادرة التى عرفت دولياً ب (مبادرة روجرز) لوقف اطلاق النار بين مصر والعدو الصهيونى .. واستطاع ابطال الدفاع الجوى فى أول أسبوع بعد ٣٠ يونيه ١٩٧٠ إسقاط عدد كبير من طائرات العدو - ولم تعترف مصر إلا بإسقاط ١١ طائرة فقط .. وعندما تساقط الطيران الصهيونى مثل الذباب لتقطع (الذراع الطولى) التى طالما تفاخر بها العدو.. ألحت أمريكا من خلال وزير خارجيتها وليم روجرز على مصر لقبول مبادرة وقف إطلاق النار .. وقبل الرئيس جمال عبد الناصر المبادرة لوضع اللمسات الأخيرة على خطط العبور وتحرير كامل التراب المصرى فى سيناء .. وقد رفض عبد الناصر قبل ذلك مبادرتين أمريكيتين لإعادة سيناء كاملة إلى مصر مقابل مرور السفن

الصهيونية فى قناة السويس.. أولاً لأنه يرفض الحل المنفرد .. وثانياً لأنه طول الوقت كان واعياً ومدركاً للنصيحة الاستراتيجية العظيمة التىلا أسداها له الشهيد عبد المنعم رياض عندما قال له (أرجوك يا ريس لا تقبل بعودة سيناء سلمياً لابد وأن نعيدها بالحرب.. حتى نعيد الثقة إلى الجندى المصرى الذى لم يأخذ فرصته فى مواجهة العدو خلال حرب ١٩٦٧ .. وهكذا كانت ملحمة إنشاء حائط البطولات أو حائط الصواريخ .. واحدة من ملاحم الأداء الهارمونى المتناغم بين الجيش والشعب .. وقد استطاع هذا الحائط العبقرى أن يمنع إقتراب الطائرات الصهيونية من شط القناة لمسافة ١٥ كيلو متر كاملة.. لدرجة أن جولدا مائير رئيسة وزراء الكيان الصهيونى خلال حرب أكتوبر كانت تصرخ من غرفة العمليات وتطلب من طياريها الا يقتربوا من قناة السويس.. حتى لا يقعوا فى تلك الشبكة العنكبوتية من نيران المصريين .

السويس تحاصر الصهاينة:

تعد حرب أكتوبر (النموذج الأمثل) لحرب (الأسلحة المشتركة) .. حيث تعاونت وإمتزجت كل أفرع القوات المسلحة المصرية.. لتصل فى النهاية إلى هذا الأداء المبهر.. فالقوات الجوية مع الدفاع الجوى.. مع القوات البحرية .. مع المشاة والصاعقة .. مع المدرعات .. مع سلاح المهندسين .. إلخ كل هؤلاء صنعوا تلك الملحمة العظيمة.. ولكن الأمر لا يخلو من بعض الهنات .. تلك الهنات التى أدت إلى حدوث ثغرة الدفرسوار.. حيث إستطاعت قوات العدو العبور إلى غرب القناة.. فى محاولة يائسة للحصول على (إنتصار معنوى) .. من خلال احتلال واحدة من مدينتى الإسماعيلية أو السويس .. وعلى مشارف الإسماعيلية دارت معارك رهيبة.. إنكسر خلالها العدو.. وما زالت دباباته حتى الآن موجودة عند قرية (كفر أبو عطوة) قبل الإسماعيلية بعدة مئات من الأمتار .. لتشهد على بسالة الجندى المصرى.. وإنكسار الجندى الصهيونى .. الذى استدار فى

محاولة يائسة أخرى لإحتلال مدينة السويس .. ورغم صدور قرار مجلس الأمن الدولى بوقف كل عمليات القتال يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ .. إلا إن قوات العدو واصلت تقدمها فى اتجاه مدينة السويس .. فى ظل تواطؤ واضح من الأمريكان ووزير خارجيتهم اليهودى المتعصب هنرى كيسنجر .

وفى مساء ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣.. قام طيران العدو بدك مداخل المدينة ليتأكد فدائيو منظمة سيناء العربية من نية العدو لاقتحام السويس .. وعلى الفور جلسوا وقرروا تقسيم أنفسهم إلى ثلاث مجموعات .. تضم الأولى محمود عواد (القائد المدنى للمنظمة) ومعه إبراهيم سلمان – محمود طه – أشرف عبد الدايم ومعهم بعض جنود القوات المسلحة والمدنيين .. ومهمة هذه المجموعة عمل كمين أمام قسم شرطة الأربعين وضرب أول مدرعة من مدرعات العدو التى ستهاجم المدينة.

أما المجموعة الثانية فتضم عبد المنعم خالد – أحمد أبو هاشم (شقيق الشهيد مصطفى أبو هاشم أول قائد مدنى للمنظمة والذى استشهد عام ١٩٧٠ عندما ضرب الطيران الصهيونى إستاد السويس بالنابالم للقضاء على مجموعة فدائى منظمة سيناء الذين كانوا يتدربون يومياً بالإستاد)– غريب محمد غريب ومعهم بعض الجنود والمدنيين – وتقوم هذه المجموعة بعمل كمين فى منطقة سيدى الأربعين.. وتترك مدرعات العدو تدخل المدينة ثم تدمر آخر مدرعة فى هذه المدرعات .

أما المجموعة الثالثة فتضم أحمد عطيفى – محمد سرحان – فتحى عوض الله – فايز حافظ أمين ومعهم الجنود والمدنيين .. وتقوم هذه المجموعة بعمل كمين بجوار مدرسة الحرية (مزلقان الشهداء) لاصطياد المدرعات التى تصل الى هذه المنطقة وطلب فدائيو منظمة سيناء من محافظ السويس محمد الخولى .. العمل على تجميع جنود القوات المسلحة من افراد (مؤخرات الوحدات) والذين دخلوا السويس .. تحت وطأة زحف قوات العدو فى إتجاه المدينة .. وكان فدائيو المنظمة يملكون أسلحتهم الرشاشة

وكمية كبيرة من الذخيرة.. ولم يكن معهم إلا مدفعان **RBG 7** فقط .. وهى مدافع مضادة للدبابات .. ومع كل مدفع ثلاثة قواذف فقط .. فحمل محمود عواد أحد هذين المدفعين .. وأخذ أحمد عطيفى المدفع الآخر.. وأخذ أفراد المجموعة الثالثة مجموعة من القنابل المضادة للدبابات .

وعند فجر الرابع والعشرين من أكتوبر عاود طيران العدو ضرب المدينة.. وفى العاشرة والنصف صباحاً دخلت دبابات العدو إلى شارع الجيش وأطلق محمود عواد قواذف الآر بى جى على الدبابات ليصيب بعضها دون أن يدمرها .. وأمام سينما رويال أطلق أحمد عطيفى أحد صواريخ الآر بى جى فأصاب دبابة دون أن يدمرها أيضاً .. فأخذ إبراهيم سليمان المدفع .. وأطلق صاروخاً على دبابة سنتريون ٧ .. فدخل الصاروخ من فتحة السائق وقطع رأسه .. وتوقفت الدبابة .. وسارع محمود عواد بالصعود فوق هذه الدبابة العملاقة والقى بداخلها قنبلة لتنفجر الدبابة وتسد الطريق على الدبابات التى خلفها.. ليتم الهجوم على هذه الدبابات من كل من كان يحمل سلاحاً فى السويس .. سواء أكان جندياً أو فدائياً أو مواطناً عادياً .. والتحم أبطال السويس مع جنود العدو فى قتال مباشر .. وأطلق ابراهيم سليمان آخر صاروخ معه على دبابة أخرى فدمرها .. فسارع جنود العدو بترك الدبابات والمدرعات ليختبئوا فى قسم الأربعين.. واستشهد البطل أحمد أبو هاشم عند مزلقان البراجيلى.. وتم التفاوض مع جنود العدو الذين لجأوا إلى قسم الأربعين لتسليم أنفسهم .. وقرر مجموعة من الفدائيين اقتحام القسم .. ولكن رصاصات قناصة العدو داخل القسم.. استطاعت إصابة مجموعة من الأبطال .. ليتم استشهاد البطل إبراهيم سليمان على سور القسم .. والبطلين أشرف عبد الدايم وفايز حافظ أمين داخل ساحة القسم .. فقام كل أبطال السويس بتوجيه نيران أسلحتهم إلى قسم الآربعين إلى أن حل الظلام .. وخشى محمود عواد من أن يقوم العدو باستخدام دباباته التى تركها جنوده فى شوارع المدينة.. فقرر أن يأخذ معه محمود طه .. ومعهما بعض عبوات البنزين وقاما بتفجير أكثر

من ثلاثين دبابه وعربة مدرعة كانت موجودة فى شوارع المدينة.. ومن مفارقات هذه العملية مرور جندى مصرى من أمام سينما رويال وهو يغنى أغنية أنت عمرى لأم كلثوم.. وفجأة إنطلقت رصاصة من داخل السينما لتصيبه فى رأسه ويسقط شهيداً .. فطلب عواد من طه حمل الشهيد إلى مستشفى السويس لمعرفة نوع الطلقة التى أصابته.. وعاد طه بعد وقت قصير ليخبر عواد بأنها طلقة رشاش عوزى مما يستخدمه العدو.. فقاما البطلان بإطلاق القنابل على المكان الذى خرجت منه الرصاصة .. ليكتشفا فى الصباح نهم قتلوا أربعة من جنود العدوا كانوا مختبئين فى سينما رويال.. وتم تكليف فتحى عوض الله بعمل حصر لخسائر العدو.. فركب دراجة وراح يطوف شوارع السويس لإعداد هذا التقرير .. وتمت إذاعة هذا التقرير فى نشرات الأخبار بالإذاعة والتليفزيون .. حيث تم تدمير أكثر من ثلاثين دبابة ومدرعة وسيارة للعدو .. وكان عدد قتلى العدو طبقاً لتقرير عوض الله أقل من العدد الحقيقى والذى وصل إلى ٦٠ قتيلاً .. وكان هذا الخطأ أحد الأسباب التى دفعت قيادة العدو إلى عدم اتخاذ قرار باقتحام المدينة مرة أخرى خوفاً على جنودهم الذين ظنوا أنهم من الأسرى.

وبعد فشل العدو الصهيونى فى احتلال مدينة السويس .. قرر قبول قرار مجلس الأمن بوقف اطلاق النار.. وجاءت بعثة من قوات الطوارئ الدولية – لتحديد المواقع المتواجد عندها قوات كل طرف .. وتم اختيار محمد سرحان (محى سرحان) الذى كان يجيد الإنجليزية ومعه محمود طه من فدائى منظمة سيناء العربية للسير مع بعثة قوات الطوارئ لتحديد مواقع القوات المصرية.. وكان ضمن أفراد البعثة جندى يهودى يرتدى سلسلة بها نجمة داود .. وعند كل نقطة كان يجد نفس الوجوه .. وبعد أن عانى كثيراً من محيى سرحان الذى استطاع أن يكتسب أراضى كثيرة جداً ليضعها تحت سيطرة القوات المصرية – صرخ هذا اليهودى قائلاً(كوماندوز) وسحب مسدسة ليضعه على رقبة سرحان ..

والـذى قـال بـكل الهـدوء يـا عبـد المنعـم ليخـرج البطـل عبـد المنعـم خالـد مـن بـين الزراعـات مثـل الوحـش الـذى يحمـل بـين يديـه مدفعـه الرشـاش – وكان خالـد ضخـم الجسـم طويـل مفتـول العضـلات.. وعندمـا شـاهده ذلـك اليهـودى أنـزل مسدسـه وقبـل بـكل مـا يقولـه محيـى سـرحان.

ورغـم حصـار العـدو الصهيونـى لمدينـة السـويس .. مـن كل جانـب إلا أن أبطـال منظمـة سـيناء العربيـة ومعهـم بعـض جنـود وضبـاط الجيـش الثالـث الذيـن دخلـوا المدينـة .. ومعهـم أيضـاً النقيـب شـرطة حسـن أسـامة العصـرة أبـن السـويس والـذى كـون مجموعـة فدائيـة خاصـة بـه.. اسـتطاع كل هـؤلاء أن يجعلـوا مـن حصـار العـدو للسـويس ..حصـاراً رهيبـاً للعـدو نفسـه .. واسـتطاع فدائيـو المنظمـة تنفيـذ العديـد مـن العمليـات ضـد قـوات العـدو .. وخطـف العديـد مـن أسـلحته وصواريخـه – ثـم ضربـه بهـا ..وبـدأت مفاوضـات الكيلـو ١٠١ ليتـم الإتفـاق علـى فـض الاشـتباك الأول فـى يـوم ١٧ ينايـر ١٩٧٤ – والطريـف أن قـوات العـدو كانـت تضـرب الرصـاص بكثافـة فـى الهـواء.. فرحـة بأنهـا قـد فكـت الحصـار عـن السـويس .. والفرحـة لم تكـن مـن أجـل السـويس .. ولكـن لأنهـم قـد تخلصـوا مـن العمليـات الفدائيـة الكثـيرة والقاسـية التـى نفذهـا أبطـال السـويس ضدهـم.

وهكـذا فـإن التلاحـم والتمـازج مـا بـين الشـعب المصـرى .. وجيـش مصـر.. يمثـل سلسـلة طويلـة مـن العطـاءات العظيمـة .. التـى تم حفرهـا بالـدم والبطـولات.. علـى لوحـة خلـود الزمـن .. لتظـل دومـاً خالـدة وحيـة ومحفـورة علـى خلايـا كل المصريـين .. لإنهـا سـتظل دومـاً ملاحـم الجيـش وبطـولات الشـعب.

محمد الشافعى

الجيش المصرى فى الأدب والفن

صورة الجيش في ذاكرة المصريين

(ماذا تبقى من رموز الجيش المصري في ذاكرة المصريين؟)

د. خالد أبو الليل

أستاذ الأدب الشعبي المساعد

كلية الآداب، جامعة القاهرة

مقدمة

ما إن كانت الأسرة في القرية المصرية تسمع أن ابنها حُرم من دخول الجيش، بسبب أنه «طِلِع شُرُك»، إلا وتصاب بحالة من الصدمة، المصحوبة بالعار والخجل من الإعلان عن حقيقة هذا السبب. فافتضاح أمر هذا الشاب بأنه «شُرُك» يعني شكا في مقومات رجولته، بكل ما تحمله كلمة «الرجولة» من نسق قيمي، وهو ما يهدد مستقبل هذا الشاب، إذ سيظل هذا العار يلاحقه دهرا طويلا، مهما توارى منه. للدرجة التي يتغلب فيها هذا العار على الفرحة بسبب إعفائه من أداء هذه الخدمة. وتنبغي الإشارة إلى أن كلمة «شُرُك»- في القرية المصرية- تطلق على الشيء الفاسد، كالفاكهة أو الخضروات الفاسدة، والمفسدة لكل ما حولها. فلا أزال أذكر عندما كان أبي يزرع الطماطم في الحقل ويأتي المشتري ليشتريها منه؛ فكان هناك عامل متخصص، تتمثل وظيفته فقط في أن يفصل الطماطم الصالحة عن تلك الفاسدة «الشُرُك»، وكان يستخدم مفردة «شرك» بهذا المعنى، الذي تصير فيه الطماطم «الشرك» غير قابلة للاستخدام طهيا أو أكلا بسبب فسادها، وتكون النتيجة إلقاؤها بعيدا دون ثمن؛ كي لا تضار الطماطم الصالحة منها. وبالمعنى نفسه استخدم القرويون الكلمة نفسها للدلالة على من لم يحالفه الحظ في دخول الجيش؛ لعيب ما فيه.

ولقد ارتبط الجيش في الذاكرة الشعبية المصرية بالتضحية فداء هذا الوطن وأبنائه، حتى صار رمزا لها، ورمزا للشرف والكرامة؛ للدرجة التي يهون على الأسرة التضحية بأبنائها في سبيل كرامة هذا الوطن، من خلال إلحاق أبنائهم بالتجنيد، مهما بلغ حبهم وخوفهم على أبنائهم. ولا شك أن من أفضل الأشياء التي تتجلى فيها هذه التضحية، وهذا الاعتزاز

بالتضحية، ما تحمله حوائط المصريين من صور لشهداء ضحوا بأرواحهم فداء تراب هذا الوطن في أي من معاركنا الطويلة مع الأعداء، حرب ١٩٤٨، أو العدوان الثلاثي، أو هزيمة ١٩٦٧، أو أكتوبر ١٩٧٣. ولا تملك الأجيال الجديدة سوى الوقوف احتراما أمام هذه الصور التي بقيت ذكرى على بطولات يحتفظ بها الوجدان المصري على حوائطه؛ إذ لا يكاد يخلو بيت مصري من هذه الذكريات، التي يحكونها بمفخرة، ومباهاة أحيانا.

لقدد ارتبط الجيش في المخيلة الشعبية- كذلك- بدور تربوي مهم، وذلك بأنه مكان لإصلاح الشباب وتهذيبهم، خاصة هؤلاء الذين أجهدوا أسرهم وأتعبوهم للدرجة التي فقدت معها الأسرة الأمل في انعدال حال ابنها، فيتمنون اليوم الذي يأتي فيه موعد تجنيده؛ حتى يصلح الجيش ما أفسده الدهر في ابنهم، وعجزوا عن إصلاحه. وقد تصل الأمور- أحيانا- إلى إبلاغ بعض الأسر عن أبنائها ممن حان موعد تجنيدهم. فالجيش بالنسبة لهؤلاء يقوم بالدور التربوي الذي عجزت الأسرة عن القيام به؛ ذلك لأن الجيش ارتبط في المخيلة الشعبية بالنظام والدقة والصرامة.

سأسعى خلال هذه الورقة إلى النبش في ذاكرة المصريين (كبار السن) للتعرف على ما تختزنه ذاكرتهم من حكايات وبطولات لبعض رموز الجيش المصري، ممن خلدتهم أعمالهم وبطولاتهم، فأبقتهم أحياء في ذاكرة الوطن بالرغم من رحيلهم الجسدي فداء للأهداف الوطنية النبيلة التي ضحوا من أجلها. وذلك من خلال إقامة لقاءات وحوارات مع عدد من عاصروا أو عايشوا هذه الحقبة التاريخية التي تبدو بعيدة بعض الشيء زمنيا. وستحاول الورقة أن تكون هذه اللقاءات ممثلة لعينة من المناطق الجغرافية في مصر.

ومما تنبغي الإشارة إليه أنه لا ينبغي إخضاع بعض هذه المرويات إلى مقياس الحقيقة والخيال، أو الصدق والكذب، أو وضع هذه الرؤى الشعبية وفق معيار كتابات مؤرخي النخبة، أعني التاريخ الرسمي؛ لأن هذا ليس هدفنا، وإنما يتمثل أحد أهدافنا في أنه رغم البعد الزماني بين

تلك الفترة التاريخية التي نسعى إلى كتابة رؤية موازية لها من وجهة نظر المهمشين، فإن ذاكرة المصريين لا تزال تحتفظ بتفاصيل كثيرة مهمة تغافلها التاريخ الرسمي، تاريخ النخب والأفراد والقيادات.

(١)

على مدار تاريخنا الوطني الممتد نجد شخصيات تنتمي إلى الجيش المصري، ونظرا إلى ما أبلته من بلاء حسن في خدمة هذا الوطن، وبالرغم من مرور زمن طويل على وفاتهم أو استشهادهم، فإن ذاكرة المصريين لم تُسقطهم، بل لا تزال تذكرهم، وتروي حكاياتهم، وتفاصيل بعض ما قدموه. وسنختار في هذه الورقة بعضا من هذه الشخصيات الوطنية التي أثرت حياتنا بما لعبته من أدوار مهمة داخل الجيش المصري. وهو الأمر الذي ربما يفسر لماذا دائما يردد المصريون «الجيش والشعب حاجة واحدة»، وليس كما يقول البعض «إيد واحدة». فالتعبير الأول أكثر بلاغة ودلالة على تلك الحالة التي تدل على أن الجيش هو جزء من لا يتجزأ من أبناء هذا الوطن ونسيجه. أما التعبير الثاني «إيد واحدة» فيدل على أننا أمام شيئين وليس شيئا واحدا.

عزيز باشا المصري

«يا عزيز يا عزيز كبة تاخد الانجليز»

تصادفنا شخصية مصرية وطنية، اسمها عزيز باشا المصري، قامت بدور وطني مهم، وهو محاولة مساعدة الجيش المصري بشراء أسلحة حديثة متطورة لتكون بديلا عن الأسلحة الفاسدة. «كان فيه فريق اسمه عزيز باشا المصري. ده كان راجل وطني وكان بيبيع المحصول بتاع أرضه؛ عشان يشترى بيه سلاح للجيش اللى في فلسطين بدل من السلاح الفاسد. ومن هنا اتشكلت خلايا الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر»[١٢٧] .

١٢٧ - من حوار مع البطل الشعبي:محمد مهران، بورسعيد، تسجيل: نجلاء علي.

وتعد شخصية عزيز باشا المصري من الشخصيات المحيرة في تاريخ مصر، فرغم أنه لم يكن ملكا أو رئيسا فإن الوجدان الشعبي لا يزال يحتفظ بشخصيته، بل تغنى ببطولاته ومواقفه الوطنية ضد الإنجليز. وذلك عندما قال: «يا عزيز يا عزيز .. كُبَّه تاخد الإنجليز». وهو ما يستدعي منا التوقف عندها بعض الوقت. فعلى الصعيد الرسمي قرر مجلس الوزراء برئاسة محمد محمود باشا عام ١٩٣٨ «إنشاء وظيفة مفتش عام الجيش المصري في ميزانية وزارة الحربية. وصدر مرسوم بتعيين عزيز المصري مفتشا عاما للجيش. كما زاد اهتمام الوزارة بالجيش، فاعتمدت المبالغ اللازمة لتدعيم مختلف وحداته وإنشاء إدارات جديدة والتوسع في إقامة المستشفيات العسكرية»[١٢٨] . ومن الواضح أنه كان من الشخصيات الوطنية والقومية التي سببت قلقا للقصر؛ لمواقفه الوطنية، منذ وقت مبكر، فحاولوا ترضيته من خلال إنشاء هذه الوظيفة الخاصة به، ولكن سرعان ما تم عزله منها بحجة كثرة إجازاته؛ إذ لم تؤثر هذه الوظيفة على مواقفه الجريئة، ولم تتمكن من إسكاته. ففي يوليو ١٩٤٠، قرر مجلس الوزراء «إحالة الفريق عزيز المصري باشا رئيس أركان حرب الجيش إلى المعاش لكثرة حصوله على إجازات، وتم تعيين اللواء إبراهيم عطا الله باشا – ياور الملك الخاص – في هذه الوظيفة»[١٢٩] . ويبدو أن هذا هو السبب الذي تم إعلانه على الرأي العام، وفيما يبدو أن الحقيقة تتبدى في مواقفه العدائية المعلنة ضد الإنجليز، مما ترتب عليه ضغط إنجليزي لإقالته، خاصة بعد ما أحدثه من تحديث في الجيش المصري، ومن مواقفه التي ربطته بصغار ضباط الجيش، وهو ما يؤكده جمال حماد. «حينما تولى علي ماهر باشا رئاسة الوزارة للمرة الثانية في ١٨ أغسطس عام ١٩٣٩ قام بتعيين الفريق عزيز المصري رئيسا لأركان الجيش. طبعا قعدوا (الإنجليز) ضغطوا على علي ماهر ضغطا شديدا جدا لغاية ما أعطاه إجازة طويلة.

١٢٨ - كامل مرسي: أسرار مجلس الوزراء، مطابع المكتب المصري الحديث، ١٩٨٥، ص ٢٨٢.

١٢٩ - المرجع السابق، ص ٢٩٩.

أبعده في سنة ١٩٤٠ لم يبق إلا مدة قليلة رئيسا للأركان. كان يمر بنفسه على الوحدات وعلى القوات من شمال مصر إلى جنوبها. مر علينا وقال لنا البعثة البريطانية دي، دي مش بعثة عسكرية دي بعثة تجارية جاية بتبيع لنا الأسلحة بضعف ثمنها. في ظل الاحتلال كان ماشي عمال يعني يسب ويلعن في الإنجليز. لذلك البريطانيون كانوا يرفضون بقاءه في الجيش»[١٣٠] .

يتبدى لنا جزء من هذه المؤامرة التي حيكت حول عزيز المصري بالتعاون بين القصر والإنجليز، من خلال البلاغ الذي تم تقديمه إلى مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة مساء يوم ١٧ مايو سنة ١٩٤١، ضد كل من: عزيز باشا المصري وحسين ذو الفقار صبري وعبدالمنعم عبدالرؤوف : «في الساعة الأولى من صباح يوم الجمعة ١٦ مايو سنة ١٩٤١ قام من مطار ألماظة اثنان من ضباط سلاح الطيران الملكي المصري ومعهما ثالث بإحدى طائرات السلاح المذكور. وقد اضطرت بفضل وسائل الرقابة الجوية إلى الهبوط فاصطدمت بسلك التيار الكهربائي الممتد بين قهاوقليوب فسقطت في حديقة. وعلى أثر هذا السقوط حاول الركاب الثلاثة الفرار، وقد ثبت أنهم عادوا إلى القاهرة واختفوا، والبحث جارٍ للقبض عليهم. وقد تبين من الحقائب والأوراق والصور المضبوطة، ومن أدلة عديدة أخرى شخصية الركاب الثلاثة، وأن ثالثهم هو عزيز المصري باشا. كما تبين من القرائن والأدلة أن الفعل الذي ارتكبوه يقع في باب الجنايات المضرة بأمن الدولة وسلامتها. وقد تولى التحقيق سعادة النائب العام بالاشتراك مع الشخصيات المختصة المدنية والعسكرية»[١٣١] . وفي الرابعة بعد منتصف ليل ذلك اليوم» دق عزيز باب ضابط البوليس المصري الذي عرفه فأدي له التحية العسكرية.. فلم يكن يعرف بأمر الهروب، ووضع سيارة نقطة الشرطة تحت تصرفه أقلته إلي ميدان الأوبرا، كان ذلك في عهد وزارة حسين سري باشا. وبعدها أذيع الخبر ولم يتوصل البوليس لمكان عزيز

١٣٠ - جمال حماد: برنامج «شاهد على العصر»، (قناة الجزيرة)، تاريخ الحلقة : ١٠ /١١ /٢٠٠٨.

١٣١ - كامل مرسي: مرجع سابق، ص ٣٧٤.

المصـري، إلـي أن أسـفرت تحريـات البوليـس عـن أن محمـد حسـين (والـد أحمـد حسـين زعيـم حـزب مصـر الفتـاة) الهـارب والمطلـوب اعتقالـه، يـتردد كثـيراً علـي منـزل معـين في إمبابـة، فداهـم الضابـط (إبراهيـم إمـام) مسـؤول البوليـس السياسـي شـقة (عبدالقـادر رزق) المـدرس بالفنـون الجميلـة، وإذا بالبوليـس وجهـاً لوجـه مـع عزيـز المصـري باشـا، الـذي أودع السـجن في ٤ يونيـو ١٩٤١ إلـي أن أفرجـت عنـه حكومـة النحـاس باشـا العـام التالـي، وأعيـد اعتقالـه في ١٣ أغسـطس ١٩٤٢ واتهامـه بالاتصـال بالألمـان، حسـب روايـة أنـور السـادات، ليفـرج عنـه في ٢٠ نوفمـبر ١٩٤٤»[١٣٢] .

فالخلاصـة: أن الفريـق عزيـز المصـري (١٨٨٠- ١٥ يونيـو ١٩٦٥)عسـكري وسياسـي مصـري، ورائـد مـن رواد الحركـة القوميـة العربيـة وحـركات التحـرر الوطنيـة المصريـة. وُلِـد باسـم «عبـد العزيـز علـي المصـري» لعائلـة شركسـية. خـاض العديـد مـن المعـارك ضابطـاً ضمـن القـوات العثمانيـة في ألبانيـا وليبيـا واليمـن، وأبلـى فيهـا بـلاءً حسـناً. كمـا شـارك في خلـع السـلطان عبـد الحميـد الثانـي عـن العـرش، بالتعـاون مـع كمـال الديـن أتاتـورك. عمـل علـى إيقـاف الحـرب في اليمـن عـام ١٩١٠. حـارب ببسـالة وبطولـة في ليبيـا ضـد الغـزو الإيطالي.عـاد إلى الأسـتانة عـام ١٩١٣، وأسـس جمعيـة العهـد وهـي جمعيـة عسـكرية سياسـية سـريّة عربيـة في ٢٨ أكتوبـر ١٩١٣، اعتقـل في ٩ فبرايـر ١٩١٤، وحكـم عليـه بالإعـدام، وأطلـق سـراحه في ٢١ أبريـل ١٩١٤ ونُفـي إلى مصـر. عينـه الملـك فـاروق رئيـس أركان الجيـش المصـري للمشـاركة في محاولـة تحديثـه بعـد معاهـدة ١٩٣٦. فـ»عزيـز المصـري ده رجـل ضابـط مـن الضبـاط المتحمسـين والوطنيـين وكان تعلـم العسـكرية في تركيـا ودخـل كليـة الأركان، أركان حـرب في تركيـا وتعلـم علـى درجـة عاليـة مـن التعليـم العسـكري ولمـا حصلـت الحـرب الطرابلسـية، إيطاليـا لمـا جـاءت تغـزو ليبيـا فهـو جـاء مـن تركيـا إلى طرابلـس علشـان يقاتـل ضـد الإيطاليـين هـو وعبـد الرحمـن عـزام وصـالح حـرب، فالثلاثـة هـؤلاء كانـوا مسميينهم الثلاثـي المعـادي لإنجلـترا.

132 - http://today.almasryalyoum.com/article2.aspx?ArticleID=117356

ومـن الغريـب بقـى أن رئيـس الأركان عزيـز المصـري وزيـر الدفـاع وقتهـا كان سمـى نفسـه وزيـر الدفـاع صـالح حـرب قائـد الجيـش المرابـط عبـد الرحمـن عـزام، فـكان بيقـول لـك الثلاثـي المعـادي»[١٣٣] . وقـد اعتـبره عبـد الناصـر والعديـد مـن الضبـاط الأحـرار أباهـم الروحـي. وفي عـام ١٩٤٨ قـام عزيـز المصري بـدور مهـم في تنظيـم كتائـب المتطوعـين في حـرب فلسـطين، كما سـاهم في إعـادة تسـليح الجيـش المصـري العائـد مـن فلسـطين بـدلا مـن الأسـلحة الفاسـدة. وقـام بـدور مهـم في تنظيـم الكتائـب عـام ١٩٥١. كما اقـترح خطـة (توحيـد الجبهـة) لـردِّ العـدوان الثلاثـي الغاشـم عـن منطقـة قنـاة السـويس عـام ١٩٥٦ [١٣٤].

فبحسـب مـا يشـير أحـد المبحوثـين، فإنـه – بعـد الثـورة – هـو مـن اقـترح مسـألة ضـرورة تحويـل خلايـا الضبـاط الأحـرار إلى مجلـس قيـادة الثـورة، كما أنـه هـو مـن اقـترح موعـد قيـام الثـورة. «وعلـى طـول بصفتـه قائـد خلايـا الضبـاط الأحـرار حـوَّل خلايـا الضبـاط الأحـرار لمجلـس قيـادة ثـورة. وبصفتـه قائـد للثـورة قـدر قيـام الثـورة ليلـة ٢٣ يوليـه ٥٢ وبلَّـغ زمايلهاالظبـاط الأحـرار بالقـرار بتاعهوقامـت الثـورة وهـو قاعـد معاهـم. بعـد طبعـا مـا احتلـوا كل المبانـي الهامـة قـال لهـم: احنـا كلنـا ضبـاط صغيريـن، كانـوا بيكباشـي يعنـي رائـد ومقـدم وكـده. وكلنـا أعمارنـا متقاربـة. فأنـا هاختـار واحـد أجيبـه يبقـى راجـل كبـير في وسـطنا عشـان نحـس إن فيـه راجـل كبـير في وسـطنا هاختـار واحـد مـن تلاتـه. الفريـق عزيـز باشـا المصـري؛ لأن الراجـل ده كان دايمـا يقول لى: لا بديـل للثـورة يـا جمـال، وكان بيبيـع محصـول الأرض بتاعـه، ويشـترى سـلاح بـدل السـلاح الفاسـد في فلسـطين والتانـي معلهـش أنـا آسـف مـوش فاكر اسـمه والتالـت اللـواء محمـد نجيـب؛ لأنـي كسـبت بيـه أول مواجهـة غـير مباشـرة ضـد الملـك. وقـع اختيـاره علـى محمـد نجيـب وبعـت دبابـة تجيـب

١٣٣ - جمال حماد: برنامج «شاهد على العصر»، (قناة الجزيرة)، تاريخ الحلقة : ١٠ /١١ /٢٠٠٨.

١٣٤ - لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

http://ar.wikipedia.org/wiki
http://today.almasryalyoum.com/article2.aspx?ArticleID=117356

محمد نجيب من بيته. وفعلا جه محمد نحيب في الدبابة ودخلوه على جمال عبد الناصر. محمد نجيب فكر إنه مقبوض عليه لأنه حس بالثورة والثورة. ولما دخلوه على جمال قال له: إيه ياجمال أنا ما عملتش حاجة يا جمال؟ فيه إيه إنتو قابضين عليه ليه ياجمال؟ قالوا: لأ انت موش مقبوض عليك، مين قال انك مقبوض عليك؟! اتفضل اقعد أنا جايبك لسبب تاني خالص؛ لأن انا كسبت بيك أول مواجهة غير مباشرة ضد الملك. وبعدين انت رجل بنثق فيه وزي ما انت شايف كلنا رتبنا متقاربة، وأعمارنا متقاربة وجبناك انت رجل كبير في وسطنا عشان نحس إن فيه رجل كبير في وسطنا دى علاقة جمال عبد الناصر بمحمد نجيب»[١٣٥] .

(٢)

حرب الاستنزاف:

بدأت حرب الاستنزاف عقب تلقي الجيش المصري الهزيمة النكراء في ٥ يونيو ١٩٦٧؛ حيث سعى عبدالناصر إلى إعادة ترتيب الجيش المصري، وإعادة الثقة في هذا الجيش وإليه، وإعادة ثقة الشعب المصري في جيشه. ف«حروب الاستنزاف كان أهم حاجه عبدالناصر كان يرجَّع الثقه للجيش المصري وللشعب المصري. وعلشان يرجع الثقه للجيش المصري وللشعب المصري لابد إنه يبتدي يعمل عمليات عسكريه خطيره وكبيره في عمق العدو، تحسس العدو إن إحنا قادرين على الصمود وعلى المواجهه، وعلى تطوير أسلحتنا وإمكانياتنا لاسترداد أرضنا وكرامتنا. وكان لابد من ذلك إنه يحصل وكان ليه تأثير كبير. زي ما كان ليه تأثير على العدو، كان ليه تأثير على الجيش، وتأثير على الشعب. كان تأثيره على الجيش إن هذا الشعب تعود له ثقته ولا ينهار، وكان تأثيره على الشعب أن يلتف الشعب حول قيادته كما كان، وكانت ديه أولى خطوات تحرير الأرض»[١٣٦] .

---

١٣٥ - من حوار مع البطل الشعبي:محمد مهران، بورسعيد، تسجيل: نجلاء علي.

١٣٦ - المبحوث: صفوت ماهر عبدالغنى، أسيوط، تسجيل: أسامة رضوان.

وقد اصطلح على «أن مفهوم حرب الاستنزاف هو أحد صور الصراع العسكري التي تدار لتحقيق توازن في مجال ما، وهي تدار سياسيا وعسكريا لتغطية الفترة بين السلام الساخن والحرب الشاملة بهدف الوصول إلى سلم أفضل أو وضع استراتيجي أكثر ملاءمة لخوض الحرب»(١٣٧). فقد وظف عبدالناصر التفاف الشعب المصري حوله، ورفضه للتنحي في أن يرد كرامة المصريين، من خلال دحر الإسرائيليين. وكانت حرب الاستنزاف هي السلاح الذي وجد فيه عبدالناصر ضالته؛ لأنه كان السلاح الأكثر مناسبة لظروف تلك الفترة، والأكثر ملاءمة لمواجهة جيش منتصر منظم مثل الجيش الإسرائيلي وقتئذ، في مقابل بقايا جيش منكسر مهزوم، هو الجيش المصري. «بعد ما أيدنا جمال عبد الناصر رجع تاني رتب الجيش، وكان عبد الحكيم عامر مات بقي، وقال: إن احنا مش هنعرَّفهم إن احنا اتضربنا وقعدنا بقي لازم نعمل غارات عليهم. وكانوا همه عملوا ساتر ترابي، وعملوا تمام كده بحيث ما حدش يعرف يعدي لهم. بس جنودنا كانت بتعدي القناه. وكانت بتضربهم وكانت بتروح تعمل أعمال فدائيه. وكان فيه منهم اللي بيرجع، ومنهم اللي ما بيرجعش»(١٣٨) . «بدأت بعد الحرب ديه... بعد ما إسرائيل احتلت سينا كلها فبدأت حرب الاستنزاف... وبنوا حائط اسمه حائط الصواريخ، وحصل حرب الاستنزاف ديه خساير كتير لليهود. اللي كان بيقوم بيها كان العسكريين»(١٣٩) .

وقد تطلب تنفيذ حرب الاستنزاف أن تسير وفق مبادئ وخطة حرب محددة. وتمثلت مبادئ حرب الاستنزاف فيما يلي:

- «أن تسير هذه الحرب وفق مخطط عام يشمل التصعيد والتهدئة.
- حسن استغلال نقاط القوة لدينا، والتركيز على نقاط الضعف عند العدو.

---

١٣٧ - حامد حسب: السويس، تجربة ميدانية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٥٩.

١٣٨ - المبحوثة: الحاجة أم هيثم، قنا، تسجيل: إيهاب حسين.

١٣٩ - المبحوث: محمد عبد الحميد محمدين، ٦ أكتوبر / مساكن محطة الكهرباء، تسجيل: دينا نبيل.

– تناسب مكاسب حرب الاستنزاف مع تكاليفها.

– أن يصاحب هذه الحرب خطة إعلامية مدروسة.

– الاعتماد على قاعدة داخلية صلبة»[١٤٠] .

كما تمثلت خطة هذه الحرب في الآتي:

١. «منع العدو من التحركات شرق القناة.

٢. حرمانه من القيام بالإنشاءات الهندسية.

٣. إحداث أكبر خسائر في معداته وأفراده.

٤. الحصول على أكبر عدد ممكن من الأسرى والأسلحة والوثائق»[١٤١] .

كانت هذه المرحلة التي تعيشها مصر فترة حرجة، الأمر الذي تطلب سياسة جديدة على كافة المستويات، أسماها عبدالناصر بـ«سياسة حد السيف»[١٤٢] . ولقد تمثلت أولى خطوات ترتيب الجيش المصري، وإعادة بنائه، في تغيير القيادات العامة به، والاعتماد على وجوه قيادية جديدة أكثر وطنية. فلقد قام عبدالناصر في الحادي عشر من يونيو عام ١٩٦٧ بإصدار قرار بتعيين الفريق محمد فوزي وزيرا للحربية، والفريق عبدالمنعم رياض رئيسا للأركان. هذا بالإضافة إلى إجراء تعديلات في المناصب العسكرية المختلفة شملت قادة الأفرع الرئيسية ورؤساء الهيئات والإدارات وأجهزة القيادة العامة والتشكيلات والوحدات المقاتلة. وقد أدى هذا التغيير الاضطراري، وحسن اختيار القيادات الجديدة، إلى سرعة تماسك القوات المسلحة المصرية. [١٤٣]. وعين مكانهم ناس زي الفريق أحمد بدوي،

١٤٠ - حامد حسب: السويس، تجربة ميدانية، مرجع سابق، ص ٦٠.

١٤١ - حامد حسب: المرجع السابق، ص ٦٠.

١٤٢ - محمد حسنين هيكل، برنامج «مع هيكل»، عنوان الحلقة «هيكل.. طريق أكتوبر وحرب الاستنزاف»، قناة الجزيرة، تاريخ الحلقة: ٢٠١٠/١/٢١.

١٤٣ - المبحوث: عبدالواحد محمد حسنين، القاهرة، تسجيل: شيماء مجدي.

وعـين قـاده جامديـن، وعـين حسـنى مبـارك ف الطـيران. وبـدأت علـى طـول الحــرب. وكانــت بتتعاجــب بنفســها وبغــرور، ولكــن القيادهالبحريــه قــدروا يدمروهــا، وعرفــوا يعملــوا إيــلات وكان فيــه معــارك راس العــش، وكان فيــه معركــة شــدوان وغيرهــا مــن مواجهــات كتــيره خلــت إســرائيل والجماهــير تسـتنجد، وتقـول: انقذونـا مـن جمـال عبـد الناصـر. دا خسـرنا في الاسـتنزاف أكثـر مـا خسـرنا ف الحــرب»[١٤٤] .

ولقـد اعتمـدت هـذه القيـادات علـى حـرب العصابـات، مـن خـلال الاعتماد علـى قـوات الصاعقـة المصريـة، باعتبارهـا الفرقـة الأكثـر اسـتعدادا وجاهزيـة آنـذاك؛ إذ لم تتأثـر كثـيرا بالهزيمـة. كمـا تم الاعتمـاد علـى الفـرق المكونـة مـن المتطوعـين، ممـن أطلقـوا علـى أنفسـهم «الفدائيـين» في مواجهـة الإسـرائيليين بـدلا مـن المواجهـة المباشـرة معهـم، خاصـة لمواجهـة الاسـتفزازات الإسـرائيلية داخـل الحـدود المصريـة. «كانـوا يقولـوا إن الفدائـي المصـري لمـا كان يمسـك الإنجليـزي كان يمـوت في إيديـه»[١٤٥] . فقـد قامـت حـرب الاسـتنزاف علـى التحالـف القـوي بـين الشـعب المصـري وجيشـه؛ إذ «ابتكرهـا الشـعب المصـرى والحيــش المصــرى علــى شــط القنــاة. أيــوه.. وبــدءوا يوميًــا يقومــوا بغــارات وبعمليــات فدائيــة شــارك فيهــا الفدائيــين.. عــرب كتــار ومصريــين، وكانــوا بيخشــوا لعمــق إســرائيل، ويقومــوا بضــرب الأهــداف الإســرائيلية داخــل إســرائيل، وبخطــف جنــود إســرائيلين، ومــن علــى خــط بارليــف. وحــرب الإسـتنزاف أثـرت علـى إسـرائيل إيـه جـداً. يعـني كان ليهـا تأثـير قـوى، كان ليهـا تأثـير قـوى جـداً علـى إسـرائيل. وخلتهـم دايمًـا في حالـة رعـب «يعـني حــرب الإســتنزاف كانــت اســتعداد للجيــش المصــري. كانــت بدايــة اســتعداد للجيـش المصـرى لاسـتكماله.. لاسـتكمال معداتـه وقدرتـه علـى الحـرب»[١٤٦] .

---

١٤٤ - المبحوثة: لم يذكر اسمه، الجيزة، تسجيل: أسماء محمد رشاد.

١٤٥ - المبحوثة: فتحية السيد عبد الحليم، ٦ أكتوبر/ قرية طناش، تسجيل: دينا نبيل.

١٤٦ - المبحوث: إبراهيم مصطفى سيد مصطفى، أسيوط، تسجيل: أسامة رضوان.

(٣)

معركة رأس العش:

تعد «رأس العش» من أشهر المدن المصرية التي قادت المقاومة الشعبية في منطقة القناة. وكان للبداية من هذه المدينة أهمية كبيرة في إيقاف محاولات العدو الصهيوني في التوغل بعد احتلاله سيناء للسيطرة على مدينة بورفؤاد. فموقع «رأس العش» يتميز بوجوده «شرق القناة على طريق (مدق) ملتوٍ يطلق عليه العسكريون اسم (رقبة الوزة)، وينحصر هذا الموقع بين قناة السويس غربا، وملاحات بورفؤاد التي تقع في شبه جزيرة سيناء، رغم تبعيتها الإدارية لمحافظة بورسعيد، ولذلك استهدفها العدو الصهيوني بقوة بعد أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧؛ ليمكنه – بعد احتلال سيناء – أن يضع مدينة بورفؤاد تحت سيطرته؛ حتى يتمكن من السيطرة على كل البر الشرقي للقناة، استعدادا للمساومة على فتح قناة السويس، شريطة أن يحصل على نصف إيراداتها... ولذلك تم تكليف الرائد سيد الشرقاوي قائد الكتيبة ٤٣ صاعقة الموجودة في محطة رأس العش بالتعامل مع العدو، وكان معه النقيب أحمد شوقي الحفني رئيسا لعمليات الكتيبة، والملازم أول سيد إسماعيل إمبابي قائدا للسرية»[١٤٧] . ويسرد لنا الحاج توفيق مهدي – أحد المشاركين في تلك المعارك الفدائية – جزءا من تاريخ هذه المدينة النضالي، ودورها في المقاومة الشعبية، كما يسرد ذكرياته عن معركة «رأس العش» الشهيرة التي ارتبطت بها. تلك المعركة التي وقعت أحداثها يوم ١ يوليو عام ١٩٦٧. وتعتبر هذه المعركة هي الشرارة الأولى للحرب، عندما حاولت المدرعات الإسرائيلية احتلال مدينة بور فؤاد، فصدتها عن المدينة قوة من الصاعقة المصرية.»في حرب الاستنزاف كنا إحنا ودونا حته اسمها راس العش. كنا إحنا قاعدين هناك. بينا وبين إسرائيل ما فيش بحر ولا حاجه. كانت مسافه كده بتاعة كيلو وأقل من

١٤٧ - محمد الشافعي: رأس العش، مغامرات الكانجارو المصري، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٢، ص ١٢، ١٣.

كيلـو. كانـت (راس العـش) قـرب السـويس.. مـا همـه كانـوا محتليينالمنطقـه دي كلهـا. يعـني مـره بالليـل سمعـت واد منهـم بيقـول: يـا بيومـى قالـه أيــه.. مـا همــه كانــوا بيتكلمــوا زينــا كــده. قليــل اللــى كان منهــم بيتكلــم عـبرى. فشـتمه وقـال لـه: إنـت فـين؟ قـال لـه: أنـا فـوق السـجره. مـا فيـش دقيقـه لقيـت بعـدد كل ورقـه مـن السـجره طلقـه وضحـك. دا مـن ضمـن حـرب الاسـتنزاف. دا إحنـا كنـا قلـه. يادوبـك سـريه، وكتيبـه واحـده ٨٠ مظـلات. كنـا معديـين هنـاك. كنـا نعـدي ويطعمُّونـا ونرجـع.. يعـني كنـا نعـدي مـن ناحيـة السـويس كـده ونـروح الحتـة دي»[١٤٨].

إن نجـاح القـوات المصريـة، ذات القـدرات المحـدودة في ذلـك الوقـت وبسـالتها، ضـد قـوات معاديـة متفوقـة يسـاندها سـلاح الجـو الإسـرائيلي، أثـار مشـاعر المقاتلـين علـى طـول خـط الجبهـة حميـة وحماسـا واسـتعدادا للمواجهـة المنتظرة.»طبعـا بعـد النكسـه كانـت القيادهالعسـكريه أي واحـد يقـدر يـروح وهمـه جـم مباشـرة إلى جمصـه. طبعـا مـا كنـاش مجـرد عمليـات جزئيـه في أي مـكان مـن الأرض، بحيـث إن مصـر تخسَّـر إسـرائيل قـدر المسـتطاع مـن البشـر والمعـدات، ونجحـوا في هـذا. كانـوا بيعملـوا إيـه؟ إنـه كان فيـه مثـلا راس العـش كمثـال مثـلا منطقـة الجنـود المصريـين يتخطـوا بحيـث ويدخلـوا المعسـكرات الإسـرائيليه، ويقتلـوا الجنـود الإسـرائيليين، اللـي فيهـا ويخسـروا المعـدات، اللـي فيهـا وييجـي. ولـو جـم علـى مصـر كانـت منطقـة القنـال كلهـا مهجـوره. وبعديـن الضـرب بتـاع إسـرائيل فيهـا لا يقـدم ولا يؤخـر. فـإذن يكفينـا إنهـم خلـوا إسـرائيل لمـا كل يـوم يمـوت واحـد مـن الإسـرائيليين مـش هاقـول أكـتر ولـو أكـتر يبقـى خـير وبركـه. وبعديـن معـدات بتتدمـر، وبعديـن يكفـي إن همـه يحسـوا بعـدم الاسـتقرار في الأرض، اللـي همـه واخدينهـا»[١٤٩]. واسـتمرت هـذه المعركـة طيلـة ثمانيـة أيـام مـن البطولـة والإصـرار والعزيمـة الوطنيـة، تأكـد خلالهـا العـدو مـن صعوبـة تحقيـق أهدافـه الاسـتراتيجية،

١٤٨ - توفيق مهدى سليمان أبو زيد، قرية طناش/ ٦ أكتوبر، دينا نبيل.

١٤٩ - المبحوث: سيد عناني، المنيا، تسجيل: نعيمة عثمان.

باحتلال بورفؤاد أو منطقة رأس العش، كما تكبد خلالها - أيضا - خسائر فادحة، أدت به إلى تفضيل الانسحاب وصرف النظر عن احتلال هذه المنطقة عن المضي قدما والاستمرار في مواجهة القوات المصرية. وكان من أهم الأسماء والأبطال التي لمعت في تلك المعركة الرقيب حسني السيد سلامة، والملازم عبدالوهاب الزهيري. لقد حال نجاح القوات المصرية في هذه المعركة دون وصول إسرائيل إلى أهدافها من هذه المعركة، كما أدى هذا النجاح - في الوقت نفسه - إلى سرعة تعافي الجيش المصري، وبقية الفرق العسكرية معنويا، مما لحق به بسبب الهزيمة، إلى الحد الذي تحولت - معه - منطقة رأس العش لتصبح «(بوابة الأمل) التي دخلت منها القوات المصرية، بل ومصر كلها، آفاق الإرادة الرحبة لمواجهة العدو واسترداد الأرض والكرامة»[١٥٠] . بل لقد كان لهذا الانتصار أثره النفسي والمعنوي المهم، ليس فقط على الجنود المنتصرين، أو الجيش المصري، بل على أبناء منطقة القناة، خاصة أبناء بورسعيد، الذين كانوا يتابعون تفاصيل هذه المعركة أولا بأول. وقد أعاد الانتصار إليهم الثقة في أنفسهم وفي جيشهم، وفي قدرته على الدفاع عن أرضهم وعرضهم. فقد «انتقل خبر هذا النصر إلى شعب بورسعيد منذ الفجر بعد أن بات ساهرا مترقبا النتيجة على أصوات الاشتباكات. وفي الصباح خرجت المدينة عن بكرة أبيها تستقبل أخبار المعركة بفرحة تدمع العيون. وكان موكبا شعبيا أعاد ثقة الشعب في مقاتليه، حتى إن السيدات قمن بغسل الدبابات التي اشتركت في المعركة بالمياه زيادة في التكريم. وقدم الشعب وجبة الإفطار إلى إخوانه جنود وضباط الصاعقة... انسحب الجيش الإسرائيلي من مشارف بورفؤاد، ولم يفكر ثانية في العودة إلى مثل هذه المعركة؛ لأنه واجه جدية وفدائية ومقاومة من الجيش والشعب»[١٥١] .

---

١٥٠ - محمد الشافعي: رأس العش، مغامرات الكانجارو المصري، مرجع سابق، ص ١٣. ولمزيد من تفاصيل هذه المعركة وخطتها وأبطالها، يمكن الرجوع إلى المرجع السابق.

١٥١ - محمد عبدالفتاح أبوالفضل: كنت نائبا لرئيس المخابرات، دار الحرية، سلسلة شهرية، العدد ١١، ١٩٨٦، ص ٣٠٦.

(٤)

شهداء حرب الاستنزاف من رجال الجيش:

ولقد راح عدد من الأبطال المصريين شهداء لتلك الحرب، منهم على نحو ما يذكر المبحوثون الفريق عبدالمنعم رياض.

الفريق عبد المنعم رياض:

يعد الفريق رياض أكثر الأبطال الذين توقف المبحوثون - ممن حاورناهم - عنده، معددين صفاته ومهاراته القتالية والوطنية. فلقد حظي بثناء كبير من معظم المبحوثين. «زي الفريق عبد المنعم رياض، الفريق عبد المنعم رياض ده في حرب الاستنزاف استشهد؛ لأنه كان جوه أرض المعركه، وعلى الجبهه وما سابش الجنود»[١٥٢] . ويشير الحاج سيد دسوقي إلى أهم ما اتسم به الفريق عبدالمنعم رياض، والذي جعله مرتبطا بالوجدان الشعبي المصري حتى الآن؛ حيث ارتباطه بالجنود الصغار في ميدان المعركة، ووطنيته الكبيرة وإخلاصه وتفانيه في الزود عن مصر؛ للدرجة التي جعلت عبدالناصر ينعيه، ويرى أن فقده خسارة كبيرة، بل بفقده فقد الذراع الأيمن له. «حصل ضحايا كتير قوي. ففيه أبطال كتير بس هو البطل اللامع كان عبد المنعم رياض؛ لأنه ادى درس للعسكريهالعالميه. إن القائد ما ينفصلش عن جنوده. وهوه مات في منطقه اسمها نمره ٦ في الإسماعيليه. لو انت رحت هناك كده هتلاقيالضفه كده، ويادوبك المواقع اللي كانت إسرائيليه علي بعد بالكتير ٢٠٠ متر بس. فكون راجل جنرال كبير زي كده يبقي بين جنوده في ذلك الوقت ده ادي درس للعسكريين حتي اللي جم بعد منه انهم ما ينفصلوش عن جنودهم، ويبقوا قاعدين في مكاتب مكيفه. حتي انا سمعت عبد الناصر لما عبد النعم رياض مات قال: انا فقدت دراعي الأيمن. والعالم كله كان بيسميه الجنرال الذهبي.

١٥٢ - المبحوث: الحاج رمضان وهبة محمد، المنصورة، تسجيل: بسمة مصطفى.

ما كانش عسكري بس، دا كان عسكري ومثقف وعنده رؤيه استرتيجيه. مات علي ضفة القناه يوم ٩ مارس ١٩٦٩. ومن ساعتها سمي بيوم الشهيد»[١٥٣]. «استشهد الفريق عبد المنعم رياض فيها. آه انا بقول لك: عبد المنعم رياض مات علي الجبهه، وهو في عمليه فدائيه. وكان علي الجبهه وإسرائيل عرفت لأنهم كانوا بيكشفوا بعض؛ لأن كان بينا وبينهم قناة السويس. بس هيه عرضها مش كبير. يعني وعرفوا إن فيه فريق بس ما يعرفوش مين هو، وضربوا علينا ساعتها مدفعيه. وهو كان مع الجنود هناك ومات يا حبيبي وكان راجل جميل الله يرحمه»[١٥٤]. ويشير الحاج عبدالفتاح إلى تفاصيل استشهاد الفريق رياض، بأنه مات في المعدية رقم «٦» على القناة. كما يشير إلى أن وفاة الفريق رياض ألهب حماس الفدائيين والمقاتلين المصريين؛ رغبة في الانتقام له. «أهم الأسماء في حرب الاستزاف هو عبد المنعم رياض. كان قائد عسكري فذ واستشهد في المعدية رقم ٦ سنة ١٩٦٨ علي القنال[١٥٥]، لكن حرب الاستنزاف قامت بها المقاومه الشعبيه. يعني الناس اللي زينا، و الناس ثارت وعملت عمليات فدائيه، وبقية الجيش وكلهم مش راضيين على هذا الوضع. وكان طبعا أهمهم عبد المنعم رياض، الله يرحمه وأموات المسلمين»[١٥٦] . فعندما أراد الفريق رياض أن يقوم بزيارة ميدانية للنقطة نمرة ٦ شرق الإسماعيلية؛ لما سمعه عن تحصينها، عندئذ «بادره قائد الجيش بأن موقع هذه النقطة قد يشكل خطورة نظرا لارتفاع مواقع العدو وسيطرته على الضفة الغربية للقناة. وهنا غضب الفريق رياض وقال: انا جندي كأي مقاتل على هذه الجبهة. وبما أننا نطالب المقاتلين العيش في هذه النقطة المتقدمة فلابد أن نكون معهم ولا ننفصل عنهم. وفعلا توجه الركب، وتمت الزيارة،

١٥٣ - المبحوث: سيد دسوقي، قنا، تسجيل: إيهاب حسين.

١٥٤ - المبحوث: الحاجة أم هيثم، قنا، تسجيل: إيهاب حسين.

١٥٥ - الفريق عبدالمنعم رياض توفي في ٩ مارس عام ١٩٦٩، وليس ١٩٦٨ كما ذكر المبحوث.

١٥٦ - المبحوث: الحاج عبدالفتاح: الشرقية، تسجيل: مروة عبدالفتاح.

وبـدأت عـودة الفريـق ريـاض في اتجـاه العربـات الواقفـة خلـف سـاتر. وفي هـذه اللحظـة انطلقـت دانـات مـن مدفعيـة العـدو، سـقطت واحـدة منهـا بالقـرب مـن مجموعـة القيـادة وأصابتهـم جميعـا؛ حيـث استشـهد الفريـق ريـاض أثنـاء إخلائـه، بينمـا كانـت إصابـة قائـد الجيـش ومديـر المدفعيـة أقـل قليـلا وتم شـفاؤهم والحمـد لله»[١٥٧] . فليـس مـن شـك في أنـه يعـد من «الخسـائر الجسيمة المبكـرة الـتي تحملتهـا مصـر في الأيـام الأولى لحـرب الاسـتنزاف مـا حـدث في يـوم ٩ مـارس ١٩٦٩ حينمـا استشـهد في الخطـوط الأماميـة الفريـق عبدالمنعم ريـاض، أثنـاء قيامـه بجولـة تفقديـة لمعرفـة سـير خطـة الاسـتنزاف الموجهـة للدفاعـات الإسـرائيلية في منطقـة الإسماعيليـة عنـد الموقـع رقـم ٦ بقطـاع الجيـش الثانـي الميدانـي. ولا شـك أيضـا في أن فقـد رئيـس أركان حـرب القـوات المسـلحة كان خسـارة كـبرى لمصـر»[١٥٨] .

ويشـير الحـاج صـبري إلى شـهداء آخريـن لحـرب الاسـتنزاف – إلى جانـب الفريـق عبدالمنعـم ريـاض –[١٥٩] . ويذكـر الحـاج حسـن عبدالباسـط أسمـاء بعـض الذيـن رآهـم رأي العـين، وهـم ينالـون الشـهادة مـن أبنـاء القـوات المسـلحة، مثـل النقيـب «حسـين محمـد حسـين الديـب»، والرائـد «شـافعي أحمـد الشـربيني». كان معانـا قائـد مـن الإسـكندريه كان نقيـب.. كان اسمـه حسـين محمـد حسـين الديـب.. دا كان برضـة معانـا وقـام بعمليـات كويسـه.. وتانـي كان رائـد كان شـافعي أحمـد الشـربيني. ودا برضـه عمـل عمليـات كويسـه. كان بيقـود نـاس. يعنـه مثـلاً ياخـد مجموعـه.. الطقـم بتاعـه إذا كان مثـلاً ١٥ أو ١٠ أو ٢٠ ويقومـوا بالليـل في سـاعات محـدده، ويقومـوا يعملـوا عمليـات ويرجعـوا. طبعـاً مـا همـه مخططـين لهـا. يعنـى يخطـط لعمليـه

١٥٧- هيئة البحوث العسكرية بوزارة الدفاع، صفحات مضيئة من تاريخ مصر العسكري، مرجع سابق، ص١٠٤.

١٥٨ - طه المجدوب: هزيمة يونيو، أسرار وحقائق من النكسة حتى الاستنزاف، دار الهلال، القاهرة، مرجع سابق، ص ١٧٢.

١٥٩ - المبحوث: الحاج صبري، الشرقية، تسجيل: مروة عبدالفتاح.

وتنجح. يروح يعمل عملته ويرجع. وكانت كل حاجه بتبقى كويسه»[١٦٠]. وتشير مبحوثة أخرى إلى فقد إحدى القرى المصرية لأربعة من شبابها في النكسة، من بينهم أخوها. كما تشير – أيضا – إلى حزن المواطن العادي على ما طال البلاد من هزيمة قاسية، راح ضحيتها شباب مصريون كثيرون، وهو ما تسبب في أن يخيم الحزن على مثل هذه القرى. «من ضمنهم أخويا وأربعه من البلد هنا.. حمدي حسن عيسى، وعبد الفتاح السيد عبد الحليم، وعبد الله عبد العظيم شلبي، والسيد فوزي شلبي راحو شهدا ف النكسه دي. والنبي دا كان فيه واحد عامل كسكسي راح دالقه ف الشارع، جار الجامع. نقول له: ليه بتدلق الكسكسي؟ يقول: بقى عيالنا راحت وهناكل؟! وجالنا النكسه، وهناكل كمان؟!»[١٦١].

(٥)

حرب الاستنزاف: شهداء آخرون في ذاكرة المصريين:

ومن شهداء المقاومة الشعبية بالسويس الذين حققوا بطولات كبيرة لصالح هذا الوطن في معركته ضد العدو الإسرائيلي، وأبقت عليهم ذاكرة المصريين، بالرغم من أن كتب التاريخ الرسمي قد أسقطتهم من الحسبان، نجد الشهيد مصطفى أبوهاشم، الذي يعد أول شهيد من المقاومة الشعبية في ١٩ فبراير عام ١٩٧٠. يقول عبدالمنعم قناوي – أحد فدائيي السويس الذي شاهد استشهاده – «كنا في أرض ملعب نادي السويس للتدريب حيث كنا نتخذه ميدانا ومخزنا لمهماتنا وأسلحتنا. وحدثت غارة جوية على مواقع المدفعية التي تقع خلف النادي. توقعنا أن الطائرات قد اكتشفت موقعنا؛ حيث كانت مهمات التدريب في أرض النادي، واتفقنا على ضرورة إنهاء التدريب والتفرقة بسرعة ومغادرة المكان. وفعلا تم الإخلاء بسرعة ولم يتخلف منا سوى مصطفى أبوهاشم، الذي كان في أحد المخازن المقامة

---

١٦٠ - المبحوث: حسن عبد الباسط أحمد رضوان، قرية طناش/ ٦ أكتوبر، تسجيل: دينا نبيل.

١٦١ - المبحوث: فتحية السيد عبد الحليم، ٦ أكتوبر/ قرية طناش، تسجيل: دينا نبيل.

تحت المدرج، وكانت به كميات من زجاجات المولوتوف التي انفجرت بمجرد إصابتها واشتعلت بها النيران التي أمسكت بملابسه، فحاول إطفاء نفسه بالجري والتمرغ في رمال ملعب كرة السلة، ولكن الهواء كان شديدا وانتشرت النيران في كل ملابسه. وعندما لاحظنا انبعاث الدخان من أرض النادي عدنا سريعا، ولكن القضاء كان أسرع منا»[١٦٢] . وكذلك الشهيد سعد البشتلي الذي استشهد في ٣١ مارس عام ١٩٧٠، برصاص قناص إسرائيلي. يقول أحمد العطيفي – أحد أفراد المجموعة التي كانت تضم الشهيد البشتلي – إن الشهيد سعيد محمد محمود البشتلي قد استشهد أثناء إحدى عمليات الاستطلاع على الشاطئ الشرقي للقناة في منطقة لسان بورتوفيق؛ حيث لم تكن النقطة الحصينة قد أنشئت بعد. وكان البشتلي ضمن مجموعة الشهيد سلطان التي يقع مركز قيادتها في عمارة السنوسي المواجهة للقناة. عبرت المجموعة المكونة من ٦ فدائيين أحمد العطيفي، إبراهيم سليمان، محمود عواد، قناوي، سعيد. وعند صلاة الفجر بدأنا نصلي في مجموعتين، وبدأت المجموعة الثانية الصلاة يؤمها سعيد البشتلي، وكان سعيد طويل القامة، فأطلق عليه قناص إسرائيلي الرصاصة فأصابه في رأسه. وقد شددت القيادة على ضرورة إنهاء العملية، وإحضار جثمان الشهيد البشتلي. وبالفعل فقد تم لهم ذلك[١٦٣] .

ويذكر أحد المبحوثين شهيدا آخر اسمه اللواء هشام، هذا إلى جانب ما رآهم يموتون أمامه، ولكن ذاكرته لا تستطيع ذكر أسمائهم. «اللوا هشام وكان.. بس كان قبل التحرير كان توفى، ومات. وبعدين فيه شخصيات برضه كبيره جداً»[١٦٤]. ويرى الحاج سيد دسوقي أنه ينبغي أن نضم – إلى جانب الشهداء الذين نالوا الشهادة في ميادين القتال، مثل عبدالمنعم رياض – كل أبناء الشعب المصري من المدنيين الذين ماتوا بسبب ما

١٦٢ - **حامد حسب: السويس، تجربة ميدانية، مرجع سابق، ص ٤٦.**

١٦٣ - **حامد حسب: السويس، تجربة ميدانية، مرجع سابق، ص ٤٦.**

١٦٤ - **المبحوث: أحمد محمد عبد الكريم، أسوان، تسجيل: أسامة رضوان.**

شنته إسرائيل من غارات على بعض المنشآت المدنية. ويأتي على رأس هذه المذابح المدنية، مذبحة بحر البقر، التي راح ضحاياها أطفال صغار، ومصنع أبي زعبل، وما فقده من عمال. ففي صباح يوم ١٢ فبراير عام ١٩٧٠ «أغارت الطائرات الإسرائيلية من طراز فانتيوم على مصنع الشركة الأهلية للمنتجات المعدنية في أبوزعبل شرق القاهرة، وقصفته بالصواريخ. وأسفرت الغارة عن مصرع ٧٠ عاملا[١٦٥] . وفي يوم ٨ أبريل أغارت الطائرات الإسرائيلية من طراز فانتيوم مرة أخرى على مدرسة بحر البقر الابتدائية بمنطقة الصالحية في شرق الدلتا. وأسفرت هذه الغارة الوحشية عن مصرع ٣١ طفلا وإصابة ٢٦ آخرين من أطفال المدرسة[١٦٦] . لذلك كان لهذا الحادث وقع عميق سيئ على الرأي العام على المستوى العالمي»[١٦٧] . وهو ما ولد رأيا عاما داخليا وعالميا مواجها لإسرائيل ومشحونا ضد تصرفاتها. «فيه ناس كتير ماتوا في حرب الاستنزاف، وكان كل يوم فيه شهدا بتسقط. وكان فيه مدنيين بتسقط، والعيال في مدرسه بحر البقر ودمرتها إسرائيل في الشرقيه. همه العيال دول مش أبطال ولا إيه؟ ما هو من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتي

---

١٦٥ - وقد رثى الشاعر صلاح جاهين شهداء هذه الحادثة في قصيدته «عناوين جرانين المستقبل»، التي يقول في ختامها:

«إحنا العمال اللي انقتلوا
قدام المصنع في ابو زعبل
بنغني للدنيا ونتلو
عناوين جرانين المستقبل»

راجع القصيدة كاملة في صلاح جاهين: الأعمال الكاملة، الدواوين الشعرية، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١، ص ٤٤٤.

١٦٦ - رثى الشاعر صلاح جاهين شهداء هذه المجزرة في قصيدته المعنونة بـ «الدرس انتهى»، والتي يقول فيها:

«إيه رأيك في البقع الحمرا
يا ضمير العالم يا عزيزي
دي لطفلة مصرية وسمرا
كانت من أشطر تلاميذي»

راجع القصيدة كاملة في المرجع السابق، ص ٤٤١- ٤٤٣.

١٦٧ - طه المجدوب: هزيمة يونيو، أسرار وحقائق من النكسة حتى الاستنزاف، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

يعـود. وضربـت مصنـع اسمـه أبوزعبـل، والعمـال بيغـيروا الورديتـين»[١٦٨] .

ويتفـق معـه في هـذا الـرأي الحـاج سيد عنانـي، مـن حيـث كثـرة المدنيـين الذيـن لقـوا حتفهـم بسـبب الغـارات الإسـرائيلية الغاشمـة علـى المناطـق المدنيـة، هـذا إلى جانـب مـا قامـوا بـه مـن دور وطـني في مواجهـة العـدوان. وبالتالـي عندمـا نتحـدث عـن الشـهداء – مـن وجهـة نظـره – علينـا ألا ننسـى هـؤلاء المدنيـين، وضمهـم إلى زمـرة شـهداء حـرب الاسـتنزاف. «والله علـى مـا اسمـع إن المواطنـين المدنيـين يمكـن – هاقـول لحضرتـك – أكـتر مـن الجنـود العسـكريين. وحاولـوا الدفـاع عـن الوطـن. ويكفـي إنـي أقـول لحضرتـك إنهـم كانـوا محتلـين الزيتيـه في السـويس. وبعديـن بياخـدوا البـترول اللـي فيهـا. يعـني بيعملـوا كل مـا يثـير ذعـر المصريـين. فشعـب السـويس وبورسـعيد والإسماعيليـة كانـوا أكـتر فدائيـين؛ لأنهـم قـدروا يحسسـوا المغتصـب ده إن دي مـش أرضـك، وإن انـت هتمشيهتمشـي، مهمـا قعـدوا. والفـتره دي مـن ٦٧ إلى ٧٣ علـى مسـمى إيـه حـرب الاسـتنزاف. إن همـه كل يومـين أو تلاتـه أو خمسـة يموتـوا علـى قـد مـا يقـدروا. ومـن الإسـرائيليين همـه عندهـم إحسـاس أولا إن الأرض مـش أرضكـم، وانـت محتـل وغاصـب، فـدي نجحـوا فيهـا فعـلا»[١٦٩] . فلقـد بـدأ الشـروع في عمليـات حـرب الاسـتنزاف بعـد أن ارتكـب الإسـرائيليون عـددا مـن الجرائـم البشـرية في حـق المدنيـين المصريـين، اسـتخدموا فيهـا أحـدث الأسـلحة والمعـدات الحربيـة، مثـل سـلاح «الفانتيـوم» الأمريكـي. فقـد عاشـت مصـر في حالـة حـرب مسـتمرة، تجرعـت فيهـا مـرارة الحيـاة مـن الخـوف وعـدم الأمـان بسـبب مـا كانـت تشنـه إسـرائيل مـن غـارات علـى المنشـآت والمنـازل المصريـة. «كنـت وقتهـا أيـام الطفولـه، وكنـا بنجـري مـن الغـاره. والغـاره يعـني اليهـود قامـوا ضربـوا فينـا بالطـيران؛ لأن وقتهـا كان فيـه حاجـه طـيران الفانتيـوم لسـه سـلاح حديـث، وإحنـا مـا عندنـاش منـه، فـكان بيخـترق كل حاجـه، وبيدخـل. فكانـوا بيضربـوا ف

١٦٨ - المبحوث: سيد دسوقي، قنا، تسجيل: إيهاب حسين.

١٦٩ - المبحوث: سيد عناني، المنيا، تسجيل: نعيمة عثمان.

المدن، واحنا كنا بنخاف. فيقول لك: اطفي النور، واجري استخبى ف المساجد أو المخابيء. وإحنا المفروض يبقى فيه مخابيء في مصر، ودي اتلغت. وما حدش عارف اتلغت ليه مخبأ مثلا تحت الأرض، تتعمل جنينه، وف الجنينهيتعمل على عمق ٢٠ متر تحت الأرض مخبأ، وفوق جنينه. حصل أي حاجه يبىقى المخبأ ليه.. مدخل ومخرج الناس كلها تخش تستخبى تحت الأرض. فدلوقتي ما فيش ويقول لك: إحنا مش في حالة حرب، بس إحنا هنفضل في حالة حرب لحد يوم الدين»[١٧٠] .

ويتوقف آخر عند أسماء بعض الذين شاركوا في بعض عمليات حرب الاستنزاف، مثل قادة معركة رأس العش، كاللواء بدر الدين الحريشي. «الحمد لله ننتصر فيها والقائد في الوقت ده ساعة ما كنا في راس العش..»[١٧١] . تلك المعركة التي كان يتابع أحداثها أولا بأول الرئيس عبدالناصر، للدرجة التي اتخذ فيها – في أحد أيام احتدام المعركة ليلا – قرارا في الساعة الثانية صباحا، بترقية كل الأبطال الموجودين شرق القناة إلى الدرجة الأعلى، مع منحهم نوط الشجاعة، وتم إبلاغ الأبطال بقرار عبدالناصر، فتزايدت حماستهم، كما تمت إذاعة هذا الخبر بالإذاعة المصرية في السابعة من صباح اليوم التالي. ومن شهداء هذه المعركة بالضفة الغربية كل من: العريف محمد علي أبو خريص، والجندي محمد إبراهيم أبو زيد، والجندي السيد عبدالحميد محمد، والملازم محمد الجزار. كما كان من شهدائها بالضفة الغربية كل من: الجنود عاشور إبراهيم محمد، ومحمد عبدالحميد سويد، والسيد فهمي محمد، وسعيد علي أحمد، وصلاح الدين محمود أحمد، ومحمد محمد حسن النطيح. في حين كان من جرحى هذه المعركة بالضفة الشرقية كل من: الملازم فتحي علي عبد الله، والعريف محمد أمين ميدان، والجنديان علي محمد حمامة، وعلي محمد المحلاوي. ومن جرحى هذه المعركة بالضفة

---

١٧٠ - المبحوث: عبدالواحد محمد حسنين، القاهرة، تسجيل: شيماء مجدي.

١٧١ - المبحوث: الحاج حسنى توفيق والحاج محمد شوشة، ٦ أكتوبر / طناش، تسجيل: دينا نبيل.

الغربية كل من الجنود: سعيد مجاهد أحمد، وأحمد السيد الباز، سمير طايع سلطان، والنحاس محمود محمد، ومحمد عثمان إبراهيم، ومحمد عبدالسلام واصل[١٧٢] .

ويشير آخرون إلى إبراهيم حجازي، وما سمعه عن بطولاته ودوره في معركة شدوان وكبريت. «مش فاكر قوي. وقتها كنت ف الجيش، وما كنتش باسمع كتير. بس أسمع عن إبراهيم حجازي. وكان وقتها ظابط استعلامات. وكان بيحكي عن بطولات المصريين وحوادث شدوان و كبريت، واللي بيحصل ف الإسماعيليه، و إزاي كانوا بيحفروا الخنادق، وعن الرجاله الجدعان اللي كان نفسهم يحرروا البلد. دول كانوا بياكلوا الحشيش من كتر الجوع. أنا لما كنت في وحدة الجيش بتاعتي ف الإسماعيليه. كانت اشتباكات، وقصص حرب عاديه. مش قصص و بطولات بالمعنى المعروف، وكانت ف الأول تحرشات ومناورات أكتر منها حرب»[١٧٣] . أما صفوت البططي فإنهيشير إلى إصابته في هذه الحرب، وأنه تلقى علاجه في مستشفى المعادي، بعد أن كلف عبدالناصر مدير مكتبه بمتابعة حالته الصحية. «أنا اتصبت في حرب الاستنزاف، وقعدت آخد شهر لغاية ما زهقت من الروح والجاي. رحت بعت شكوى لجمال عبد الناصر. بعت لي محمد بيه مدير مكتبه، وداني على مستشفى المعادي على طول. عملوا لي أحسن عمليه في الوقت ده»[١٧٤] .

١٧٢ - نقلا بتصرف عن محمد الشافعي: رأس العش، مغامرات الكنجارو المصري، مرجع سابق، ص ٤٩،ص ٥٠، ص ٧٧- ٨٢.

١٧٣ - المبحوث: شعبان محمود، المنيا، تسجيل: نعيمة عثمان.

١٧٤ - صفوت البططي، قنا، جمال عطا، محمد صالح البحر.

(٦)

حرب أكتوبر:

بالطبع، كان انتصار السادس من أكتوبر له حظوة كبيرة بين من حاورناهم، فكثيرون من توقفوا عندها، وعند ذكر تفاصيل هذه الحرب، التي أعادت إلى الشعب المصري، على نحو ما اعادت إلى الجيش، ثقته في نفسه، واعتزازه بقدراته وإمكانياته، بل أعادت العلاقة بينهما إلى طبيعتها، بعد أن تأثرت – بعض الشيء – جرَّاء هزيمة ١٩٦٧. وسنختار من بين من حاورناهم واحدا من أبناء قبيلة الرماحي بمحافظة الفيوم، الذي يوجز هذه الحرب في إحدى القصائد الشعبية البدوية، والتي يقول واصفا الحرب وملابساتها:

«في سنة ٧٣ ... في اللحظة دي كان الرئيس أنور السادات كان له هيبة جامدة على عملية النصر، وعملت له يعني حب جامد، وكان الرئيس حسني مبارك ربنا يشفيه ويخليه كان موجود كان قائد الطيران. كان له برضه تاريخ مشرف، أول ضربة جوية، الضربة الجوية الأولى شلت الحركة الجوية الإسرائيلية نهائيا. جميع المطارات الإسرائيلية اتدمرت. وكان بفكر وتخطيط مصري. فربنا كرم، ولولا أمريكا جات بأسراب الطيران بتاعتها، وجات خطوط مباشرة لإسرائيل كانت مصر كلها خدت إسرائيل، ماكاتشهتاخدمعاها حاجة. إنما أمريكا هيَّ اللي جابت الأسراب.. آه تدخلت بثقلها بقى.

القصيدة بتقول ايه بقى.. هيَّ لهجة بدوية :

اقرب لي يا باهي الصيفات
تعا خبرنا ع السادات
اللي حشَّد كِل القوات
وقال للهم يا جيش اعبر

★★★

في اليوم السادس م أكتوبر
هجمنا وقِلنا الله أكبر
وعدينا في أرض الميدان

★★★

عبرنا بجِملة طيارات
حديد ما غير يصبوا فواليت
عساكر وسلاح وشبان

★★★

عبرنا م الضفة الغربية
ومن شرقه همت سوريَّه
ودمرنا جيش الطغيان

★★★

دمرنا خطك يا بارليفوتمَّى مقطع كيف الليف
اللي قالوا عالي البنيان

★★★

اللي قالوا خط مانع
اليوم تَهَدَّم واتصدع
اللي ما حقق.. اليوم سْمع
علي قوة جيش العربان

★★★

الخِطة تمت بالترتيب
ما فيها ولا يد غريب
لا سوفيت ولا امريكان

★★★

أمريكا سمعت ها الأخبار
عدوك شاطت فيها النار
وقالت سوَّك[١٧٥] يا ديان

★★★

وين اسلاحك ها الفانتوم
اللي حرَّم سينا يبرم

---

١٧٥ - سوَّك: ماذا حدث لك؟

تَحطم كله ع الجبهات
الخطة راسمها السادات
وجهز من جيشه ظباط
وقال ارجاني يا ديان

★★★

وقال ارجاني[١٧٦] يا ديان
وجرب قوة ها الشبان
اللي ما نسيوا عار زْمان

★★★

ما نسينا سبعه وستين
(ما نسيناش ٦٧)
ما نسينا سبعه وستين
وسينا ويافا وفلسطين
وسوريا ومعاها الجولان

★★★

صبَّى[١٧٧] ديان ومائير[١٧٨]
وقال للهم نا كيف اندير

---

١٧٦ - ارجاني: انتظرني واحذرني

١٧٧ - صبَّى: استسلم، أو فقد القدرة على التفكير

١٧٨ - ديان: موشي ديان، مائير: جولدمائير.

جيوشي منهم كيف تْسير

عرب جونا من كِل مكان

★★★

قال: جاالقدافي والهواري[١٧٩]

والمغرب ماهو مِدَّاري

وفيصل[١٨٠] نادى يا اخواني

هيا نمشو للسادات

★★★

هيا نتفقوا ف القول

ونرفع من سعر البترول

حتى يرحل ها الشيطان

★★★

حتى تَجلى دومائيرومعاها ديان أسير

ومعاهم باقي العدوان

النصرة تمت للعربان[١٨١]

★★★

١٧٩ - القدافي: رئيس ليبيا الأسبق معمر القذافي، والهواري: رئيس الجزائر السابق «هواري بو مدين».

١٨٠ - فيصل: الملك فيصل بن عبد العزيز، ملك المملكة العربية السعودية.

١٨١ - أحد أبناء قبيلة الرماحي، محافظة الفيوم، ٢٠١٠، تسجيل: وهويدا حماد، و رغدة محمد.

فالقصيدة تسرد لنا تفاصيل معركة النصر في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣، بدءا من الإعداد للحرب، وجرأة السادات، والخطة التي أعدها لتلك الحرب، وكذلك الضربة الجوية الأولى التي قادها الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك. وكيف أن هذه المعركة أعادت الفرح إلى الجيش المصري والمصريين؛ إذ أعادت إلى الجميع الثقة المفقودة عقب النكسة. وكذلك وقع تأثير تلك الهزيمة على تحالفات إسرائيل، خاصة أمريكا التي أفقدتها المعركة توازنها وثقتها في قوتهم. كما أشارت القصيدة إلى الموقف العربي الداعم لمصر في حربها ضد إسرائيل، على نحو ما أكده موقف رؤساء الدول العربية وشعوبها، مثل: معمر القذافي وهواري بو مدين وملك المغرب، والملك فيصل، الذي استعرض الشاعر الشعبي بعضا من موقفه القوي عندما أوقف تصدير البترول إلى الغرب وإلى أمريكا مما كان له كبير الأثر في تحقيق النصر، ليس لمصر فحسب، وإنما لكل العرب.

الجيش المصري

في

عيون الشعراء

أحمد سويلم

- ١ -

الشعر:

هذا الفن الجميل الذى لجأ إليه الإنسان منذ فجر التاريخ.. ليعبر به عن مشاعره المختلفة تجاه من حوله من البشر.. وتجاه الطبيعة والزمان والمكان والأحداث والواقع.

هذا الفن الذى يعد أسبق الفنون إلى التعبير.. وأسرعها فى الوصول إلى جوهر الأشياء.. وأحرصها على اكتشاف المجهول فى الكون والنفس البشرية.. وأدقها فى تصوير العلاقات بين البشر بعضهم البعض.. وبين البشر والعالم المحيط.

لهذا عبر الإنسان عن طريق الشعر عن حياته: أفراحه وأحزانه.. آماله وإحباطاته.. بل نكاد نقول إنه كتب تاريخه بالشعر.. أو على حد هذا القول المأثور: الشعر ديوان العرب وسجل حياتهم وأحداثهم.

نعم.. لقد عرفنا تاريخ العرب وأيامهم وانتصاراتهم وهزائمهم عن طريق الشعر.. وعن طريقه أيضاً أدركنا مشاعر العربي الصادقة تجاه بيئته.. وتجاه حكامه.. وتجاه أصدقائه.. بل وتجاه مستقبله أيضاً.

ولأن الشعر يتصل بالغناء والإنشاد فهو فن يتصل بالوجدان ويؤثر فيه.. ويهذبه.. ويمنحه المتعة والقدرة على مواصلة الحياة.

وهو فن تتعدد أغراضه ومضامينه.. واتفق على أن أشهر هذه المضامين المديح والهجاء والرثاء والغزل والوصف.. واجتهد الشعراء فى ابتكار وسائل التعبير عن هذه الأغراض وتباروا فى المعاني والصور.. بحيث لا

يمكننـا أن نضـع أيدينـا علـى تطابـق التعبـير بـين شـاعر.. وآخـر.. ولنـا أن نقرأ مثـلاً قصائـد الغـزل منـذ فجـر التاريـخ حتـى اليـوم لنؤكـد هـذا المعـني.. لأن الشـاعر لا يجتهـد فقـط فـى الابتـكار وإنمـا – لاختـلاف تكوينـه النفسـي عـن غـيره – يضـع عناصـر كثـيرة ذاتيـة وبيئيـه فـى قصيدتـه تميـزه عـن غيره.

والشـعر أيضـاً يرصـد – أو لنقـل – يشـخِّص الواقـع.. ولا يعنـى ذلـك أنـه يصـوره أو ينقلـه كمـا هـو.. لكنـه فـن يختـرق الحجـب ويصـل إلى جوهـر الأشـياء وعمـق الواقـع.. ولا يرصـد سـطوح الصـور وأشـكالها الخارجيـة.. وهـذا الاخـتراق تم عـن طريـق امتـلاك الشـاعر لأدواتـه الخاصـة اللغويـة والمجازيـة.. ولرؤيتـه الذاتيـة التـى تختلـف بالقطـع عـن رؤيـة الآخريـن مـن الشـعراء..

الشعر إذن – رؤية – وليس رأياً..

رمز وليس تقريراً..

مجاز أو خيال.. وليس واقعاً مجرداً..

إنـه لغـة خاصـة تتميـز بالحساسـية والموسـيقى.. لغـة تضفـي علـى الواقـع غلالـة ذات الشـاعر ليحيلـه حلمـاً.. وتضفـى علـى الحلـم تلـك الغلالـة لعلـه يصـير واقعـاً.

ولا يفلـت مـن هـذا الفـن زمـن ولا مـكان منـذ وجـد الإنسـان علـى ظهـر الأرض حتـى يـرث الله الكـون.. فهـو يجسـد أحلامـه وآمالـه ورؤيتـه للغـد.. لعلـه يعيـش عالمـاً أفضـل.

صاحـب الشـعر أيضـاً الإنسـان فـى بحثـه عـن الوجـود والعـدم.. وصاحبـه فـى حلـه وترحالـه وفـى انتصاراتـه وانتكاسـاته.. وصاحبـه وهـو يواجـه عنـف الطبيعـة.. وأيضـاً وهـو يواجـه أعـداءه.

صاحبـه فـى الصحـراء وهـو يبحـث عـن الـكلأ.. وفـى الحضـر وهـو يعانـي قسـوة الحضـارة وجفافهـا.. وفـى الريـف وهـو يتابـع قـدرة الخالـق فـى إنبـات الـزرع.. وفـى نفسـه وتكوينـه الإلهـي المعجـز الـذى لا يـزال يخفـي الأسـرار.

وهـا هـو الشعر أيضـاً يسجل العلاقـات الإنسـانية من حـب وبغـض.. ومودة وموجـدة.. وصـدق وريـاء.. بـل نجـده يواكـب تطـور المجتمـع.. ويجسـد مـا يمـر بـه مـن تحديـات وعقبـات.. كمـا يجسـد مـا يمـر بـه مـن تقـدم وانتصـار.

ونجـده أيضـاً يسـير مـع الجنـود المحاربـة فـى معـارك التحريـر – فيصـف – ويـؤازر – ويحمـس.. حتـى إن الكلمـة بقـوة تأثيرهـا لا يمكـن أن تقـل عـن تأثـير طلقـة الرصـاص.

ومـن يتذكـر حـرب العبـور العظيمـة فـى مصـر ومـا صاحبهـا مـن الشـعر المكتـوب والمغـني.. يتأكـد أننـا حاربنـا بالكلمـة الصادقة..كمـا حاربنـا بالآلـة الحربيـة فـكان النصـر.

ولأن مجـالات الشعر متعـددة ومتنوعـة.. فـإن هـذا البحـث يتنـاول مجـالاً مهمـا فـى حيـاة مصر العروبـة.. مصـر المحروسـة.. ذلـك المجـال هـو: كيـف صـور الشـعر انتصـارات الجيـش المصـري فـى فتوحاتـه القديمـة وفـى مواقفـه المتتابعـة التـى انحـاز فيهـا إلى إرادة الشـعب المصـري.. ذلـك الشـعب الـذى لـولاه لمـا كان الجيـش.. ولـولا الجيـش ومـا عـاش الشـعب بكرامتـه وانتصاراته.

نعـم.. لقـد دعـم الشـعب جيشـه بأبنائـه.. فـلا يوجـد بيـت مصـري إلا وفيـه مجنـد كان.. أو سـوف يلتحـق بهـذه المؤسسـة الوطنيـة العريقـة.. ومـن ثـم فـإن الجيـش المصـري الـذى بـني بهـذا الشـعب العظيـم ظـل مخلصـاً لإرادتـه طـوال التاريـخ.

وكمـا أن صفحـات التاريـخ الواقعيـة نؤكـد ذلـك.. فـإن الشـعر أيضـاً كان مصـوراً صادقـاً لانتصـارات الجيـش وقادتـه المخلصـين.. وكأنـه يدعـم هـذه العـروة الوثقـي التـى لا تنفصـم أبـداً.

وسـوف نحـاول أن نقلـب صفحـات التاريـخ ونلتقـط نمـاذج ممـا عـبر بـه الشـعراء منـذ كانـت فتوحـات الجيـش المصـري فـى مصـر القديمـة مـروراً بالعصـور المختلفـة حتـى اليـوم.

وبالرغم من ندرة المصادر التى تعيننا على تقصى هذا الدور.. فإننا بذلنا جهداً مضنياً مخلصاً فى رسم صورة صادقة - كما صورها الشعراء لهذه المؤسسة العريقة التى انحازت دائما إلى إرادة شعبها - فاتحد الجيش والشعب.. وصاراً وجهين لأمة واحدة لا غناء لأحدهما عن الآخر.

هى إذن محاولة مشفوعة بالإيمان الذى يقوم على اليقين بأنه لولا وطنية الجيش المصري لما قامت حضارة.. ولما كان تطور.. ولما كانت مصر هى الأيقونة التى يطمع فى امتلاكها كل غاز غريب.. فيلقي جيشاً وشعباً فى مقاومة موحدة تجعله يجر أذيال الخيبة والهزيمة عائداً من حيث أتي.

- ٢ -

أدرك المصري القديم أهمية وطنه مصر وموقعها فى العالم القديم.. كما أدرك أطماع الغزاة فى هذا الوطن المملوء بالخيرات والذى يصل العالم الغربي بالعالم الشرقي عبر أرضه الطيبة.

ومن ثم حرص على تحصين حدوده.. وإقامة جيش صلب وطني يدافع عن أرضه خاصة فى اتجاهات الشرق والغرب والجنوب.

ونقرأ فى صفحات الأسرة الأولي.. والأسرة الثالثة أن المصري القديم مد نظره السياسي إلى أقاليم النوبة فأقام القلاع والحصون فى جزيرة فيلة ووضع عليها جنوداً للحراسة.. بل إن هذه العلاقة مع أهل النوبة توثقت وتوحدت حتى إن جيش فرعون ضم جنوداً من النوبة وكانوا أبرع المحاربين فى الرمي بالقوس.. وانضمت النوبة إلى مصر فى الأسرة الثانية عشرة فى خطة التوسع فى الفتح وفى دفع الحدود إلى مزيد من الأراضي.

أما الحروب بين مصر والأقاليم الآسيوية فقد قام الجيش المصري ببطولات مشهودة خاصة فى عهد سنوسرت الثالث.. حيث يحكي أحد

ويبدو أن المؤرخين إذا ذكروا بطولات الجيش المصري.. يتحدثون عن الفرعون الذى قاد هذا الجيش أكثر مما يتحدثون عن الجنود.

نعم.. ندرك أن حكمة القيادة وشجاعتها واستجابة الجنود إلى قائدهم أمور مهمة فى أي انتصار.. لكن إلصاق النصر إلى الفرعون وحده يصوره محارباً ومقاتلاً وصانعاً للنصر وحده.. ومن ثم فإن التاريخ يختصر انتصارات الجيش المصري – دائما – فى الحاكم أو القائد.. وتلك ثقافة استمرت على طول التاريخ حتى عصرنا الراهن.

وتظل ذكرى الفرعون حية خالدة.. وها هو أحد الشعراء يحدثنا عن بطولات سنوسرت الثالث فيقول:

لك الحمد أيها الصقر المقدس
حامي الوطن.. وماد حدوده..
قاهر الشعوب بقوة تاجه
يا من ضم شطري الوادي بين ذراعيه
فجندل أصحاب السهم دون ضربة عصا
يا من يطلق سهمه دون أن يشد وتر القوس
يخضع أصحاب القوس فى ديارهم
يا من سحق المغيرين من جنوب الوادي وشرقه
وقهر خناجر الألوف من الرماة قبل أن تطأ أقدامهم الحدود
فجعل الناس ينامون فى أمان

ما أعظم أفراح وطنك لأنك حميت حدوده
وما أعظم رضا مصر ببأسك.. وسرور رعيتك بعهدك
وما أشد ابتهاج جنودك

وهى قصيدة طويلة تمدح الفرعون وتصفه بأنه الحامي.. وركن الدفء والجبل الذى يمنع العواصف.. والظل الوارف.. والملاذ الذى لا يهتز.. والذى أذهب عن الشعب المحن.

ولقد أشاد د. أحمد بدوي فى كتابه (فى موكب الشمس) بهذا العهد الذى حكمه سنوسرت قائلا:

(أن صفات الرجل وجهوده الحربية والسياسية والاقتصادية فاقت وصف الشعراء..).

ويذكر التاريخ أن حالة من الفوضى حلت بمصر فى نهاية الأسرة الثالثة عشرة وجرَّت البلاد إلى ثورات متتابعة وحروب أهلية.. وأدت هذه الحالة من الضعف إلى إغارة الهكسوس على مصر.. والاستيلاء عليها بسهولة حوالي (١٧٣٠ق.م).

ويتنبه المصريون إلى خطر هذا الغازي الغريب.. فيثورون على ملكهم (أبو فيس) حين تحدى هذا الحاكم الملك المصري يومئذ فى طيبة وتحرش به.. وكان يدعي (سقن رع) .

وتقوم الثورة تحت راية (آمون) معبود طيبة فى مواجهة معبود أبو مفيس (ست بعل).

ويتوالي الملوك الذى يعدون الجيش.. ويواجهون خطر الهكسوس ومنهم هذا البطل الذى يدعي (كاموس) الذى يحكي بطولات الجيش قائلا:

(اتخذت طريقي إلى الشمال على متن النهر لأرد الهكسوس بأمر آمون واندفع معي جيشي الشجاع اندفاع اللهب فى سعير النار.. ودارت رحى الحرب حول (نفروس) من مدائن مصر الوسطي وعليها حاكم هكسوسي فلم أترك له فرصة الإفلات.. ولم أزل حتى رددت العدو وأمضيت ليلتي مغتبطاً على إحدى سفائني.. ولما كان اليوم الثاني حومت على عدوي كالصقر وما كاد وقت الصباح ينقضي حتى كنت قد هدَّمت أسواره وحصونه.. وقتلت رجاله.. وسقت زوجه أسيرة إلى الشاطئ وعاد عساكري كالأسود فرحين بما غنموا من أسري وأنعام ودهن وعسل).

ثم جاء (أحمس) حيث تسلم زمام الحرب بعد وفاة (كاموس).. وخلص مصر من هؤلاء الغزاة الطامعين.. واشتهرت بعد عودة أحمس من المعركة أغنية شعبية تشيد بانتصاراته.. تغنى بها الشعب فرحاً بطرد الهكسوس تقول:

أيها القائد العظيم
لقد عدت منتصراً بجيشك الكبير
وخلصت مصر من العدو الغازي

وتنهض مصر نهضة قوية بعد طرد الهكسوس مع بداية الأسرة الثامنة عشرة ويستأنف الحكام النشاط العسكري لإقرار السلام فى الشرق وإخماد الثورات على الحدود.. حتى بلغت حدود مصر جنوباً إلى الشلال الرابع أيام (تحتمس الثاني).. كما بلغت شمالا بعض البقاع السورية..

ثم نقرأ فى عصر (تحتمس الثالث) قصيدة تسجل انتصارات هذا الملك (١٤٧٠ق.م) حيث تبدأ بمقدمة نثرية عن الإله آمون رع سيد عروش الأرضين.. والذي أمد الفرعون بالنصر.. ثم تبدأ القصيدة على لسان آمون هكذا:

أتيت لأجعلك تسحق أمراء فلسطين
وألقيت بهم تحت أقدامك مع كل بلادهم
أتيت لأجعلك تسحق سكان آسيا
ولتذبح رءوس قبائلهم
وجعلتهم يرون جلالتك مهيأ بسلاحك الحربي
ممتشقاً الأسلحة فى عجلتك الحربية
أتيت لتسحق الأرض الغربية
حتى أصبحت كريت وقبرص فى ذعر منك ومن جيشك
أتيت لأجعلك تسحق سكان لوبيا [ليبيا]
ويروا جلالتك كأسد مفترس
عندما تقتلهم فى بلادهم..
أتيت لأجعلك تسحق سكان المملكة القريبة من اليد
وتقيد سكان الصحراء أسرى فى قبضتك
وجعلتهم يرون جلالتك كابن آوي الصعيد

★★★

ثم تنتهي القصيدة التى هى على لسان الإله آمون.. بختام نثري يدعو للملك بطول العمر.

وتمضي الأيام فى انتصارات.. حتى يأتي عهد (رمسيس الثاني) وهو يواجه الحيثيين وحلفاءهم عند مدينة (قادش).. حيث قاد هذا الملك

جيشاً لا يقل عن عشرين ألف مقاتل.. وخرج من العريش شمالا حتى دحر العدو فى معركة قادش.. وفى ذلك يقول الشاعر:

إنه لا يصمد فى وجهه عدو
إنه حائط لجنوده
ودرع لهم يوم الموقعة
لا مثيل له فى حمل القوس
فائق الآراء.. المرير القائد الحازم
يحمى جيشه وينظم كتائبه

وهى ملحمة طويلة فى وصف المعركة وكيف وضع القائد خطة الهجوم على العدو داعياً إلهه آمون أن يكون بجانبه.

نكتفي هنا بهذه النماذج الشعرية التى تؤكد شجاعة الجيش المصري وشجاعة قادته فى الحفاظ على مصر وطرد الأعداء.. ومطاردتهم حتى بلادهم.. بل والاستيلاء على أكثر من بلد متاخم للحدود المصرية لكي تزيد رقعة الأمن لمصر.

وها هى مصر تمر بعد ذلك بفترات من القوة والضعف.. وغزو الإسكندر.. ثم احتلال الرومان لمصر إلى أن حررها عمرو بن العاص ليدخل الإسلام مصر.. وتصبح مصر قوة حربية عربية فى العصر الإسلامي.

- ٣ -

استقر الأمر فى مصر بعد فتحها.. وتوالت عليها عهود عرفت باسم حاكم الدولة.. فمثلا:

كانت الدولة الطولونية نسبة إلى أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٩٢هـ) - والدولة الإخشيدية نسبة إلى ابن طغج الإخشيدي (٣٢٧-٣٥٧هـ) - والدولة الفاطمية نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي (٣٥٨-٥٦٦هـ) - والدولة الأيوبية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي (٥٧٦ -٦٤٨هـ).

وها نحن الآن نحاول الطواف عبر هذه العصور والتنقيب عن الشعراء الذين لهجت ألسنتهم بانتصارات الجيش المصري.

صحيح عانت مصر فى سنوات صدر الإسلام والدولة الأموية بقلة الشعراء ذلك أن اللغة العربية كانت جديدة على المجتمع المصري.. وكان الرومان يضطهدون المسيحيين.. ويريدون تحويل مصر إلى مقاطعة رومانية.. لكن الشعراء الذين وضعنا أيدينا عليهم.. كانوا وافدين معظمهم من خارج مصر.. ولهذا فما يهمنا فى هذا البحث هو كيف عبر الشعراء على انتصارات الجيش المصري فى هذه العصور.. وقد شهدت هذه العصور صراعات فى البيت الحاكم.. وصراعات أخرى حول البيت الحاكم.

ويحكى تاريخ الدولة الطولونية أن العباس بن أحمد بن طولون قد خرج على أبيه حين استخلفه على مصر.. وخرج للقاء أعدائه فى الشام فيتحصن بالإسكندرية أولا.. ثم يخرج إلى برقة.. ثم يمعن فى أفريقيا بجيشه المصري.

وها هو يسجل انتصاراته فى هذه الأبيات:

لله دَرّى إذ أغدو على فرسي إلى ... الهياج ونار الحرب تستعرُ

إن كنت سائلة عنى وعن خبرى ... فها أنا الليث والصمصامة الذكرُ

من آل طولون إن ساءلت عنه فما ... فوقى لمفتخر بالجود مفتخرُ

لو كنت شاهدة كرِّى بلبدة إذ ... بالسيف أضرب والهامات تبتدر

إذا لعانيت منى ما تنادره منى ... الأحاديث والأنباءُ والخبرُ

ويقول فى قصيدة أخرى:

أسيافنا بيض المنون فليتها ... بنجيع من خذل الإمام تخلّقُ

تمسى وتصبح ضارباً من دونه ... بمهند منه الحتوف تفرّقُ

بل نجد على الجانب الآخر الشاعر أبا تمام يمدح أحمد بن طولون ويذكر شجاعته وهمته فيقول:

وذو أهب للحادثات بمثلها يُزال ... الردى عتاد يُستدفع الكربُ

سيوف لها فى عمر كل عدِىَ ردى ... وخيل لها فى دار كل عدى نهبُ

ونلاحظ - كما لاحظنا فى العصر الفرعوني - أن الشعراء يسقطون أشعارهم على الملوك الذين يقودون الجيوش.. ولولا قوة الجيش لما كان النصر.. ومع ذلك فإن الشعراء كانوا يكتفون بذكر القائد وكأنهم يذكرون كل جندى فى هذه الجيوش المنتصرة.. فلا يمكن أن ينتصر ملك ولا قائد بدون جنوده المدربين الشجعان الذى يمتلكون العزيمة والوطنية والتصميم على النصر.

وتنتهي دولة أحمد بن طولون عام ٢٩٢هـ لتعود مصر ولاية عباسية كما كانت قبل الدولة.. ويقوم عليها ولاة ضعاف لفترة تصل إلى ثلاثين عاماً من الاضطراب والضعف.

فلما وليها محمد بن طغج تطلع إلى الإصلاح.. وقد كان أصله تركيا عمل على كسب الخليفة العباسي الراضي بالله فمنحه لقد (إخشيد) ومعناه (ملك الملوك) وجعله واليا على مصر.. وخاض حروبا كثيرة أهمها مع سيف الدولة الحمداني الذى طمع فى الاستيلاء على الشام كلها.

ثم خلفه ابنه محمود.. ومنذ ذلك الحين قام كافور الإخشيدي بتدبير أمر المملكة.. وكان سياسياً داهية عظيم الذكاء وظل عشرين عاماً حاكماً حقق فيها إصلاحات كثيرة حتى مات فى ٣٥٧هـ.

وقد قصد أبو الطيب المتنبي كافوراً طامعاً فى مكاسب لنفسه بعد أن هجر بلاط سيف الدولة فمدح كافوراً بعدة قصائد وحينما أدرك أنه لا يستجيب لأطماعه هجاه.. وهجره.

وما يهمنا الآن ما قاله المتنبي عن شجاعة كافور حيث يقول:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

ثم يقول:

وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى ولكن   بأيام أشبْن النواصيا
عداك تراها فى البلاد مساعيا وأنت   تراها فى السماء مراقيا
لبست لها كدر العجاج كأنما   ترى غير صاف أن يُرى الجو صافيا
وقدت إليها كلّ أجرد سابح   يؤدّيك غضبانا ويثنيك راضيا
كتائب ما انفكت تجوس عمائراً من   الأرض قد جاست إليها فيافيا
غزوت بها دور الملوك فباشرت   سنابكها هاماتهم والمغانيا
إذا الهند سوّت بين سيفىْ كريهةٍ   فسيفك فى كف تُزيلُ التساويا

وينتهي عصر الأخشيد ليبدأ العصر الفاطمي على يد جوهر الصقلي (٣٥٨هـ).

ويجئ المعز لدين الله ليبدأ إصلاحات الدولة الفاطمية فى مصر ويقيم الجامع الأزهر.. ثم يخلفه ابنه العزيز بالله.. ثم الحاكم بأمر الله.. ثم الظاهر لإعزاز دين الله.. وهكذا حتى ينتهي الخلافة عام ٥٦٦هـ على يد الناصر صلاح الدين.

ويحكى التاريخ عن استقرار الأحوال فى غالب أيام الفاطميين.. وكثر الشعراء فى العصر الفاطمي يمدحون الحكام والوزراء.. ويعيشون فى الترف والرخاء.

وهذا الشاعر تميم ابن المعز يمدح أخاه العزيز بالله قائلا فى قصيدة طويلة :

حميت دمار الحق حتى عصمتَه

وأطلقت مزن الغيث حتى قد انسكبْ

وشردت أعداء الخلافة عُنوة

فلم يقدروا إلا على البعد والهربْ

تركتهم كالجنِّ فى كل بلقع يلوذون

بالأجبال منك وبالكثَبْ

فأنت حسام الله أرهف حدّه

فصال به جد الأمور .. على اللعبْ

ويصف فرسه الذى يدعي (سرور) حينما يدخل المعارك فيقول:

نعم المعين على الوغي فى مأزق

لبست به الأبطال نقْع القسْطلِ

فرس أشم المنكبين مقابل ي

رمى الجنادلَ من يديه بجنْدَلِ

أمضـــــى إذا أرســـلتَه فى حـــلبةٍ

من قول: لا.. ومن التفـــاتة معـــجلِ

وكـــــأن دفـــــةَ سَـــــرجــه

ولجامِه شُدًّا على ظهر السماك الأعزلِ

ويسابق الـــبرق المثار بخـــطـــوة

ويزيد فيه علـــى الصبا والشـــمـأل

وهـذا ظافـر الحـداد الإسـكندري يمـدح الخليفـة الآمـر الفاطمـي ويشـير إلى شـجاعته بقولـه:

لك العزمات النافذاتُ إذا انـــبرت

إلى مقصد لم تمنع البيض والـــسردُ

وإن خفقت راياتُك الحمر سبَّحت

لنـصرك أعلاها مـــــلائكة جندُ

وخطِّـــيَّة سمرٌ وبيضٌ صـــوارمٌ

ومســـرودة زغف ومـــقربة جردُ

ويقول فى أمير الجيوش بدر الدين الجمالي:

بسيف الأفـــضـــل ارتعب المنـايا

وقد أودى بها الخوف المـمـــضُّ

غداة تراه والأســـد الضـــوارى

لها من حـــوله وثب ورفضُ

يشق بها مثـــار النــقع طيرٌ
لها فوق الثرى صف وقبــضُ
كفاك الرعب أن تلقى عـــدوا
وقــد عــاداه مضجعه الأقضُّ

ويقول له أيضا :

لمن يستعد الجيش قـــد مــلأ الفــضا
وضاقت على الجــوزاء منه المطـــالعُ
وتبنى الأساطيــل التى قد تضــايقت
بها اللج حتى طائر المــوت جــائعُ
وحتى كأن البحر مـــن تلك جــامدُ
وحتى كـــــأن البر من ذاك مائعُ
أرحـــت ملـــوك المسلمين بعزمةٍ
يجاهد كل حـــــولها وهـــو وادعُ

– ٤ –

ندخـل الآن سـاحة الحـروب الصليبيــة.. ونسـتقر عنـد هـذه المرحلـة التـى بدأهــا الناصـر صــلاح الديــن فــى مواجهــة الصليبــين.. تلــك المرحلــة التــى تكمـل صـورة الشـعراء المصريـين وهـم يتبـارون فـى الإشـادة بهـذا النصـر الـذى أخـذ جهـداً كبـيراً مـن القـادة والجنـود علـى السـواء.

إن الشعر على مدى التاريخ كان يقوم بوظيفته فى إثارة الشعور وتسجيل الانتصارات التى يحرزها الجيش المصري وقادته على الأعداء.

وهو فى مرحلة الحروب الصليبية يتجلي بهذه الوظيفة فيسجل الأحداث ويمدح القادة ويشيد بدورهم فى قيادة الجيوش وتحقيق النصر..

وحينما استقرت الأمور بمصر لصلاح الدين فكر فى غزو الشام وتخليصه من الصليبين.. فأوصى أخاه الملك العادل أن يجهز جيشاً كبيراً من المصريين.. وأخذ يغير على حصون الفرنجة حصنا حصناً وانتصر عليهم فى (مرج عيون) وأسر معظم فرسانهم وأبطالهم.. ويصف الشاعر (ابن التعاويذي) هذه المعركة فى قوله:

قاد الجياد معاقلاً وإن اكتفى بمعاقل ... من رأيه وحصونِ

سهرت جفون عداه خيفة ماجدٍ ... خلَّت صوارمه بغير جفونِ

لو أن لليث الهزَبرِ سطاه لم يلجأ ... إلى غاب له وعرين

كاد الأعادى أن يصيبك كيدُها ... لو لم تكدك برأيها المأفون

كمنوا وكم لك من كمين سعادة ... فى الغيب تظهر من وراء كمن

فهوت نجومُ سعودهم وقضى لهم ... بالنحس طائرهم بمرج عيون

ويتبارى الشعراء فى وصف انتصارات صلاح الدين.. فكتبوا قصائد كثيرة عرفت فيما بعد بالقدسيات نسبة إلى يوم القدس.. ومنهم شاعر شريف هو محمد بن أسعد المعرف(بالجواني المصري) وكان نقيب الأشراف بمصر.. نراه ينشد السلطان قصيدته التى يقول فيها:

غاراته جمع فإن خطبت له فيها ... السيوف فكل هام منبرُ

إذ لا ترى إلا طلى بسنابك ... تحذى نعالاً أو دماءً تهدرُ

تمشى على جثث العدا عرجاً ولا ... عرجٌ بها لكنها تتعثرُ

وهذا الشاعر ابن النبيه يمدح الملك الأشرف ويذكر انتصارات الجيش المصري بقوله:

يوم على الروم ينشى ريحه سحباً

أمطارهن مصيباتٌ مصيباتُ

رأوا جيوش بنى أيوب يقدمها

ليث له فى جيوش الترك هجماتُ

فللرماح كُلاهم أو صدورهمُ

وللصوارم أعناقٌ وهاماتُ

تخلّق البحر ذاك اليوم من دمهم

والموج ترقصه تلك المسراتُ

وهو نفسه الشاعر الذى كان يحرض صلاح الدين على القتال ويقول:

جهز جيوشك إن الثغر قد عبثت   به الفرنج فأضحى غير مسرود

يا للرجال أباديكم لنازلة   تستنزل الماء من صمّ الجلاميدِ

أما الشاعر البهاء زهير فقد كانت له قصائد عدة فى انتصارات الجيش وها هو يصف هذه الانتصارات فى قصيدة يمدح بها الملك الكامل ناصر الدين بن الملك العادل بن أيوب ويذكر انتزاعه ثغر دمياط من الفرنجة فيقول:

سددت سبيل البر والبحر عنهمُ   بسابحة وُهْم وسانحة غُرَّ

أساطيل ليست فى أساطير من مضى   بكل غُراب راح أفتك من صقرِ

وجيش كمثل الليل هولاً و هيبةً   وإن زانه ما فيه من أنجم زُهرِ

وباتت جنود الله فوق ضوامرِ   بأوضاحها تغنى السراة عن الفجرِ

وكل جــواد لم يكــن قــط مثلــه لآل زهــير لا .... ولا لبنـــــــــى بــدرِ
فلا زلـــت حتى أيد الله حــــــزبه وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصرِ
فروَّيت مـنهم ظـــامئ البيض والقنا وأشبعـــــت منهم طاوىَ الذئب والنسرِ

ويفرّ الملك لويس ومعه الأمراء والنبلاء إلى عكا بعد أن قضى وقتا في بيت ابن لقمان سجينا وفي هذا يقول ابن مطروح:

قل للفرنسيين إذا جئتهم مقال صدق من قئول فصيحْ
أتيت مصراً تبتغى ملكها من قتل عباد يسوع المسيحْ
فساقك الحيْن إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيحْ
سبعون ألفا لا يُرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح
دارا بن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صَبيح

ونختتم هذه الفترة بقول الأفضل بن المؤيد فى الجيش المصري:

وجيش كأن الجو قد مدَّ أنجما عليه ووجه الأرض أنبت ذُبَّلاَ
كأن عناق الطير بين رماحه بنود تهاوى للطعان وتُعتلىَ
إذا نبضت يوماً بواد قسيّة تلبّس ثوب النقع بالنبل مجملاَ

– ٥ –

بعد هذه الجولة التاريخية الطويلة.. نحن أمام حقيقة مؤكدة توضح موقف الشعراء الإيجابي من قواته المسلحة في حالات الحرب مع الأعداء.. ذلك أن الشعر لا يمكنه أن يظل صامتاً منزويا.. أمام ملاحم الجنود وهم يحققون انتصاراتهم.. وفتوحاتهم.

ويبدو أن الجيش فى فترات السلم يجدها فرصة لتنظيم صفوفه وتطوير تسليحه استعدادا لأي موقف طارئ.

وقد مر بنا كيف أن الجيش المصري كان على رأسه قادة وطنيون.. ورموز تاريخية حققت المجد والنصر.. فنسب الشعر هذا المجد وذلك النصر لهم.. باعتبارهم رموزا وطنية قادت هذا الجيش بحكمة وإرادة شعبية لتحقيق ما يحققه للوطن سلاماً وأماناً.

لهذا فنحن سوف نعبر فترات مرتبكة مرت بها مصر حتى القرن التاسع عشر حينما تكوَّن جيش مصري خالص فى بداية القرن على أيدي محمد على وتابعيه وكيف خاض هذا الجيش معارك مختلفة حققت لمصر التوسع.. وحققت له أيضاً مكانة عظيمة بين جيوش العالم.

هذا الجيش الذى وقف يوماً وعلى رأسه أحمد عرابي فى سراي عابدين ليتحدى الخديوي توفيق ويطالبه بالحقوق المنتزعة.. وكيف واجه هذا الجيش الاستعمار الإنجليزي.. وكيف حدثت الخيانات التى أوقعته فى مأزق.. فنفي قادته أحمد عرابي والبارودي وغيرهما.

ولا نود أن نسرد هذا التاريخ.. لكننا سوف نقف مع بعض نماذج التى أشادت بعظمة هذا الجيش المصري الخالص.. فى خوضه معاركه الوطنية.

فهذا محمود سامي البارودي الذى جمع بين السيف والقلم يخصص جانباً من شعره للحديث عن معارك الجيش التى شارك هو فيها محارباً صلباً.. ومن هذه الحروب التى خاضها البارودي (حرب كريت) التى يقول فيها:

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ... ودارت كما تهوى على قطبها الحربُ

وزُين للناس الفرارُ من الردى ... وماجت صدور الخيل والتهب الضربُ

ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا ... سقينا بكأس لا يفيق لها شربُ

صبرتُ لها حتى تجلت سماؤها ... وإني صبور إن ألم بي الخطبُ

إنـه صـبر المقاتـل الشـجاع الـذى لا يهـاب المـوت فـى سـاحة القتـال.. وفـى مقـام الفخـر يقـول البـارودي ولا ينسـى أنـه جنـدي مقاتـل:

وإنى امرؤ لـولا العـــوائق أذعنت　　لسـلطانه البـدو المغـيرة والحـضْرُ
مـن النفـر الغـرّ الذيـن سـيوفهم　　لهـا فى حواشـى كل داجيـة فجـرُ
إذا اسـتل منهـم سـيد غَـرْب سيـــفه　　تفزعت الأفـلاك والتفـت الدهرُ
لهم عُمـد مـرفوعةٌ ومعـاقـلٌ　　وألويـة حمـرٌ وأفنيـة خـضرُ
وخيـل يعـم الخـافقين صهلُهـا　　نزائـع معقـود بأعرافهـا النـصرُ

وفى قصيدته الشهيرة التى قالها حينما وصل منفاه (سرنديب) يقول:

وما حَـمل السيفَ الكمىُّ لزينة ولكـن　　لأمـر أوجبـتْه المـفـاخرُ
إذا لـم يكن إلا المعيشـة مـطـلبٌ　　فكل زهيد يمسـك النفس جابرُ
فلولا العلا ما أرسـل السـهم نازعٌ　　ولا شـهر السـيف اليمانى شـاهر

تلـك هـى عقيـدة القتـال فـى الجيـش المصـري عـبر عنهـا البـارودي بصدق.. فالمقاتـل لا يحمـل السـلاح إلا ليحقـق الأمـور العظيمـة للوطـن ومـن أهمهـا العيـش الآمـن وتحقيـق المجـد والرفعـة والتقـدم.

ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى فى قوله:

رجال أولى بأس شديد ونـجـدة　　فقولهـم قـولٌ.. وفعلهـم فعـلُ
إذا غضبوا ردوا إلى الأفق شـمسه　　وسـال بدفاع القنا الحزْنُ والسـهلُ
مسـاعيرُ حـرب لا يخافـون ذلـةً　　ألا إن تهيـابَ الحـروب هـو الـذلُ

وحينمـا استشـهد أحـد قـواد الجيـش المصـري فـى كريـت وكان إلى جانـب البـارودي رثـاه بقصيدتـه منهـا:

نعم فتى الحرب في الهياج إذ شب لظى البأساء واعتلى ضرمهُ
قد ألفتْ صحبته القنا يدُه واعتاد «لبيك» في السماح فمُه
بكى بدمع الفرند صارمُه وانشق من طول حزنه قلمُه
مات وأبقى شجى لفُرقته يكاد يفرى قلوبنا ألمُهُ
فاذهب عليك السلام من بطل مات وعاشت من بعده نعمهُ

أما أمير الشعراء أحمد شوقي فقد كان – برغم أصوله غير المصرية – وطنياً حتى النخاع.. ولطالما تحدث عن مصر تاريخياً وحربياً.. وذكر انتصاراتها القديمة والحديثة بفضل جيشها العظيم.

ففي قصيدته (كبريات الحوادث في وادي النيل) لم يترك نصراً انتصره الجيش منذ عهد الفراعنة إلا ذكره.. من ذلك مثلا:

ما نراها دعا الوفاءُ بنيها وأتاهم من القبور النداءُ
ليزيحوا عنها العدا.. فأزاحوا وأزيحت عن جفنها الأرزاءُ
وأعيد المجد القديم وقامت في معالى آبائها الأبناءُ

وها هو يصف بعض المعدات الحربية الحديثة في عهده.. وقد نسفت إحدى البواخر:

ودبابة تحت العباب بمكمن أمين ترى السارى وليس يراها
هى الحوت أوفى الحوت منها مشابه فلو كان فولاذاً لكان أخاها
أبَثُّ لأصحاب السفين غوائلاً وألأمُ نايا حين تفغر فاها
فلو أدركت تابوت موسى لسلطت عليه زُباناها وحرَّ حماها
ولو لم تُغيب فلكُ نوح وتحتجب لما أمنت من مقذوفها ولظاها

وحينما وصل أول طيار مصري يقود طائرته عام ١٩٣٠ من ألمانيا إلى مصر قال شوقي:

أعقابٌ فى عناق الجو لاح   أم سحاب فرّ من هوج الرياحْ
أم بساط الريح ردته النوى   بعد ما طوّف فى الدهر.. وساحْ
يا سلاح العصر بُشرنا به   كل عصر بكميّ.. وسلاحْ
فتكاثر وتألفْ فيلقاً   تعصم السلم وتعلو للكفاحْ
فارسَ الجو سلام فى الذُرى   وعلى الماء ومن كل النواحْ
ليس من يركب سرجاً ليناً   مثل من يركب أعراف الرياحْ

وفى ذكرى عيد الجهاد عام ١٩٢٦ وقف شوقي يذكر أمجاد الجيش فى قصيدة طويلة منها:

خطونا فى الجهاد خطى فساحاَ   وهادنَّا.. ولم نلق السلاحَا
رضينا فى هوى الوطن المفدَّى   دمَ الشهداء والمال المطاحَا
ولما سلّت البيض المواضى   تقلدنا لها الحق الصراحَا
جنود السلم لا ظفر جزاهم   بما صبروا ولا موت أراحَا
وقد هانت حياتهمُ عليهم   وكانوا بالحياة هم الشحاحَا
فكانوا الحق منقبضاً حَيِيا   تحدى السيف مفصلتا وقاحَا

هكذا كان شوقى وطنيا.. لم يبخل على جيشه بالشعر والإشادة وتذكر انتصاراته المتعددة.

أما شاعر النيل [حافظ إبراهيم] فله أكثر من قصيدته تناول فى أبياتها مجد هذا الجيش العظيم وانتصاراته.. منها مثلا:

ركبوا البحار وقد تجمد ماؤها — والجو بين تناوح الأرواحِ
والبر مصهور الحصى متأججاً — يرمى بنزَّاع الشوى لوَّاحِ
يلقى فتيهم الزمانَ بهمةٍ — عجبٍ ووجهٍ فى الخطوب وقاحِ
ويشق أجواز القفار مغامراً — وعرُ الطريق لديه كالصحصاحِ

ولا يمكن أن نغفل لحافظ قصيدته الشهيرة (مصر تتحدث عن نفسها) التى يقول فيها:

ما رمانى رام وراح سليماً — من قديم عناية الله جُندى
كم بغت دولة علىَّ وجارتْ — ثم زالت وتلك عقبى التعدى

ثم يقول:

قبل أسطول (نلسن) كان أسطو — لى سريا وطالعى غير نكدِ
فسلوا البحر عن بلاء سفينى — وسلوا البر عن مواقع جُردى
خلُق الصبر وحده نصرَ القومَ — وأغنى عن اختراع وعدِ
شهدوا حوْمة الوغى بنفوسٍ — صابرات وأوجع غير رُبْدِ
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا — فالمعالى مخطوبةٌ للمجدِ

وله قصيدة يصف فيها قوة الجيش وعزيمته وصفا دقيقاً وكأنه فى ساحة القتال.. فيقول:

يتواقعون على الردى وصفوفهم — رغم الوثوب كثابت البنيانِ
فإذا المدافع فى النزال تجاوبت — بزئيرها وتلاحَمَ الجيشانِ
وإذا القنابل دمدمت وتفجرتْ — تحت الغبار تفجر البركانِ
وإذا البنادق أرسلت نيرانها — طُلُقا وأسباب الهلاك دوانيِ
أبصرتَ جناً فى مسالحِ فتيةٍ — وشهدت أفئدةَ من الصوانِ

وتمر الأيام والسنون على مصر وتعانى من العهد الملكي معاناة قاسية حتى تقوم ثورة ١٩٥٢ على أيدي ضباط أحرار من الجيش.. لتعيش مصر حالة ثورية طويلة.. ويتآمر عليها الاستعمار الغربي وإسرائيل لكن صمود القوات المسلحة فى معارك ١٩٥٦-١٩٦٧-١٩٧٣ حيث النصر على العدو الصهيونى وتسجل صفحات التاريخ هذا النصر الكبير على إسرائيل وحلفائها..

ويدخل الجيش المصري حروب التحرر.. ويسرع إلى اليمن ليحررها من الطغيان.. ثم يعود الجنود من اليمن أبطالاً ليغني لهم الشاعر عبد الله شمس الدين بقوله:

حيوا الفتوة والرجولةَ والبطولةَ والنضالْ
حيوا عماليقَ الوغى يوم التناحرِ والنزالْ
يومَ القتال المرَّ فى رهب السفوح وفى الجبالْ
وإلى الحمى بالنصر عادوا مرحبا عاد الرجالْ

★★★

ومع البشائر عاد لليمن الشقيق زمامُه
الحكم عاد لشعبه وتحققت أحلامُه
ومضى بثورته تبارك خطوة أيامُه
وبمجده انتشرت ترفرف للعلا أعلامُه

وحينما خرج الإنجليز من مصر بمقتضى معاهدة الجلاء أنشد الشاعر محمود غنيم تمجيدا للوطن وانتصاراته قائلا:

مضى الاحتلال وما الاحتلال سوى وصمة العار بين الأممْ
بقية إرث قرون خلت .. على الظلم قد طبعت والظُلمْ

حملناه جــــرحاً بــكل فـؤاد .. وهمًّــا عــلى كل صــدر جثـمْ
ألا إن للمســتبدين يومــاً يعضــون فيــه بنــان النــدمْ
هــو الجيـش طهـر كل البـلاد .. وجمَّــع شـمل الحمـى فانتظـمْ

ويعد تأميم قناة السويس وحماية الجيش لها.. هتف محمود غنيم:

ربض الجيش على خط القناة وعــلى شــطآنها ألقــى عصــاه
أيها الجيــش أعدها للحمى فلـذة قـــد نزعوها من حشـاه
هى قــــلب النيل إلا أنهم وضعوهــا بـين أضـلاع سـواه

وهــذا الشــاعر كمــال نشــأت يتغنــى بالفدائـي فــى قصيدتــه التــى يقــول فيهــا:

طريقه الشهيد من وفاء رفقة السلاح
يومض عند زحفه مثل نجيمة بعيدة
يزحف رعداً صامتاً محمولاً
سحائب الرصاص وارتعاشة الرشاش
ميلاده فى موته
رشاشه هويته.. نيشانه
رصاصة فى جبهة لم تعرف السجود
وعندما يجود
تنفلت الحدود
تومض الدماء فى طريقه الشهيد
كالنجمة البعيدة.

ثم يخوض الجيش المصري حرب العبور العظيمة.. هذا الجيش الذى أعيد تنظيمه وتكوينه بعد نكسة ١٩٦٧.. وتجند فيه ألاف الشباب المؤهلين علمياً والذين خاضوا هذه الحرب بروح قتالية عالية قامت على الانتماء والوطنية وضرورة النصر ومحو آثار النكسة.

وقد كان بين هؤلاء الشباب أدباء وشعراء – ومنهم كاتب هذا البحث – سجلوا أحداث هذا النصر فى أعمالهم الإبداعية.. مما تستحق دراسة خاصة مطولة ترصد هذا الإبداع الصادق الذى أعطى للقوات المسلحة وقادتها وجنودها كل الحق فيما حققوه من النصر الذى تم بالعلم والابتكار والروح المعنوية العالية.

إن هؤلاء الشباب المبدعين هم الذين أسهموا بكلماتهم الصادقة فى تحقيق النصر إلى جانب المدفع والطائرة والصاروخ والدبابة.. فكانت الحرب ملحمة متكاملة أعادت لمصر أرضها وكرامتها الغالية.

إن دراسة وافية لهذه الأعمال الشعرية وغيرها من الإبداع تستحق جهداً خاصاً لا يقوم به دارس واحد فحسب وإنما يقوم به عدد من الدارسين الذى شاركوا فى صنع هذه الحرب.. وعاشوا البطولات الخارقة.. فمنهم من استشهد فى سبيل الوطن ومنهم من حمل راية النصر.

خاتمة:

بعد هذه الرحلة السريعة فى صفحات الشعر الذى رصد انتصارات الجيش المصري منذ عهد الفراعنة حتى اليوم.. يحسن بنا أن نشير إلى بعض الملاحظات المهمة:

١. أن الشعر كان – ولا يزال – تعبيرا شعبيا عن عواطف الجماهير فى أثناء الحرب أكثر من النثر.. وهو أسبق إلى التعبير والرصد والتسجيل من أي فن آخر.

٢. أن الشعراء الذى عبروا عن بسالة هذا الجيش إنما يعبرون عن ضرورة الجهاد لتحقيق غاية كريمة وطنية تتعلق بتأمين مصر ضد أي غاز طامع فى خيراتها.

٣. أن الشعر – باعتباره فنا يتعلق بالوجدان – يثير الشعور ويشعل بعاطفة الوطنية.. ويقوى الروح المعنوية خاصة فى أثناء القتال.. ولنا أن نتذكر هذه القصائد المغناة والأغاني الوطنية وتأثيرها على إذكاء الشعور لدي المقاتلين فى حرب رمضان.

٤. أن الشعراء خضعوا للثقافة السائدة التى تمنح الملك أو الحاكم أو القائد أوسمة النصر.. واعتباره رمزاً للجيش الذى يقوده.. فكانت القصائد تمدحه وتنسب إليه النصر والشجاعة والإقدام.. وظلت هذه الثقافة مستمرة طوال التاريخ وفى كل المعارك.. فهذا أحمس قاهر الهكسوس وهذا عمرو بن العاص فاتح مصر.. وهذا صلاح الدين هازم الصليبيين.. حتى إن الكثيرين ينسبون نصر أكتوبر إلى السادات.

ونحن نستشعر شيئا من الظلم للبطولات التى حققها الجنود البواسل والتى تستحق التقدير والذكر.. ومن ثم فإن بعض هذه البطولات – خاصة

بطـولات أكتوبـر – قـد كتـب عنهـا.. لكننـا متأكـدون أن مـا كتـب ليـس كافيـاً.. وأن بطـولات كثـيرة مـا زالـت غائبـة لا يسـلط عليهـا الضـوء..تسـتحق أن يكتـب عنهـا للأجيـال التـى لا تعـرف شـيئا عـن هـذا النصـر الكبـير.

٥. إن النمـاذج التـى وردت فـى هـذا البحـث مـا هـى إلا قطـرة مـن بحـر فالتاريـخ يعطـى للجيـش حقـه ودوره فـى حماية الوطـن.. والشـعراء والأدباء أيضـا لا يضنـون عليـه بإبداعهـم.. ولهـذا فمهمـا ذكرنـا مـن نمـاذج فلـن تعـبر وحدهـا عـن موقـف الشـعراء.. ولكننـا – لمـا يقضيـه هـذا البحـث – سـقنا أشـهر هـذه النمـاذج وألصقهـا بانتصـارات هـذا الجيـش العظيـم.

٦. لقـد التـف الشـعب حـول الضبـاط الأحـرار فـى ثـورة ١٩٥٢.. وآزر الشـعب جيشـه فـى ١٩٥٦ و ١٩٦٧.. ورفـض الشـعب أن ينتكـس الجيـش حتـى انتصـر فـى ١٩٧٣.. أمـا فـى ثورتـي ينايـر ٢٠١١ ويونيـة ٢٠١٣ فقـد انحـاز الجيـش إلى إرادة الشـعب ضـد النظـام الفاسـد.. فتحققـت أعظـم صـورة للوحـدة بـين الجيـش والشـعب.

٧. أولا وأخـيراً.. تحيـة إلى هـذا الجيـش الـذى سـجل صفحـات البطولـة والنصـر.. وحمـى الوطـن مـن الغـزاة الطامعـين.. وكان – ولا يـزال – جيشـاً وطنيـاً مخلصـاً انحـاز إلى إرادة الشـعب دائمـاً.. وتوحـد معـه فـى كيـان واحـد.. فكانـاً وجهـين لأمـة واحـدة.

المصادر والمراجع:

فى موكب الشمس	د. أحمد بدوى ٢جـ	لجنة التأليف والترجمة والنشر
موسوعة مصر القديمة	سليم حسن جد١٦/١٧	هيئة الكتاب ٢٠٠٠
عصر الدولة والإمارات – الشام مصر –	د. شوقى ضيف	دار المعارف ١٩٨٤
أدب الحروب الصليبية	د. عبد اللطيف حمزة	دار الفكر العربي ١٩٤٩
مصر الشاعرة فى العصر الفاطمي	محمد عبد الغنى حسن	هيئة الكتاب ١٩٨٣
الأدب العربي فى مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي	محمد مصطفى	دار الكاتب العربي ١٩٦٧.
دواوين الشعر المعاصرين		

بطولات الجندى المصرى

فى

قصص التجربة الحربية

بقلم: السيد نجم

تعامل الإنسان مع فكرة الصراع و الحرب وصنع تاريخه، فكانت له طقوسه قبل و أثناء وبعد تلك الحروب. كما تلاحظ على مر التاريخ أن رصد الإنسان المصرى تلك التجربة الحربية، وهو ما كشف عن تاريخ من البطولات والتضحيات وإعلاء لقيم الإنتماء والتضحية والحرية، التى يتحلى بها الجندى المصرى.

يعد التراث الشعبى لأمم الحضارات القديمة، ومنها مصر، مرآة صادقة وجلية لجملة الأفكار والمشاعر تجاه تلك التجربة. فبينما تجنح المثولوجيا الهندية (البراهما) إلى مزاج حربى حاد، يمجد الحرب و يزكى الصراع من أجل إنتصار الإنسان.. كانت الميثولوجيا الصينية تجنح إلى إزكاء السلم، ربما بتأثير التعاليم البوذية المضادة لمفهوم الحرب، كان «كونفوشيوس» يقول: «الجنرال العظيم حقا هو الذى يكره الغزو و ليس حقودا إنفعاليا».

فيما تغلب دعوة رد العدوان ثم المسالمة والتسامح بعيدا عن العدائية بمجمل معطيات المثولوجيا المصرية، لعلها ترجع إلى تعاليم الإسلام التى ترفض الإعتداء وتدعو لرد العدوان، وان جنحوا للسلم فاجنح لها، واللافت أن تلك الرؤية المصرية بدت كذلك خلال عهود المصرى القديم، القائم على ضفتى نهر ثرى يكفيه المأكل والمشرب، فلا يعتدى وإن بقى وجهة لعدوان الآخر.

لقد شغلت ظاهرة الحرب التاريخ الفكرى، وهو ما نتوقف معه عند بعض من المفكرين المعاصرين لتعريفها:

قال «رايت»: «هي الأساس القانوني الذي يتيح لجماعتين أو عدة جماعات متعادية أن تحل النزاع في ما بينها بقواتها المسلحة»..

وقال «مارتن»: «الحرب عبارة عن صراع بين الناس»..

وقال «كلوزفتر»: «الحرب عمل من أعمال العنف، يهدف إلى إرغام

الخصم على تنفيذ إرادتنا».. وقال «بنكر تشك» و«شارل ديبوس» و «براديبه»: «الحرب هي صراع بين دول مستقلة ولها صفة دولية»..

أما «فون» قال: «الحرب هي المعركة التي تشنها جماعة معينة من الرجال أو القبائل أو الأمم أو الشعوب أو الدول ضد جماعة مماثلة أو شبيهه لها»..

فيما قال «لاجورجيت»: «الحرب هي حالة من الصراع العنيف الذي يقوم بين جماعتين أو عدة جماعات من أفراد منتمية إلى النوع نفسه بناء على رغبتهم أو إرادتهم».

لا تنتهي التعريفات، ولا نعرف ما الحرب في النهاية.

تتسم التجربة الحربية بالعمومية، كما تعد من أشد التجارب خصوصية، حيث أنها منبه معقد، تتماس فيها قيم الحياة والنزوع إلى البقاء، فى مقابل كل العنف المتوقع، فى مقابل الهلاك والموت.. وبينما الموت فى دلالته العامة يعنى ما يعنيه، فهو عند الجندي المقاتل يعنى الحافز إلى المزيد من الحرص على الحياة.. يقاتل وهو على يقين أنه يسعى للإنفلات من الموت. و كم كان الجندى المصرى مخلصا لقناعاته فى مواجهة العدوان، فكانت بطولاته التى رصدتها القرائح والأقلام الإبداعية على مدى التاريخ المصرى.

★★★

تلك وقفة عجلة مع الجندى المصرى قديما وحديثا، لعلنا نتعرف عما جبل عليه الإنسان المصرى فى النهاية بحب للقيم العليا والفداء، مثلما جبل على حب الحياة.

قص بطولات المصرى القديم:

تعد معطيات الحضارة المصرية القديمة، من شواهد معمارية وثقافية وعلوم.. منجزا بشريا لمعطيات إنسانية أسبق منها، وتمهيدا لأخرى تالية عليها. وكانت أولى المحاولات التى تعرفنا بملامح الإبداع المصري، ما

تضمنه كتاب «القصص الشعبية فى مصر القديمة» وقد علق الكاتب الفرنسي «جوستاف لوفيفر» عليها مؤكدا: «أن القصص فى الأدب الإغريقي لم تكن إلا نوعا من سمر الأطفال، بينما كانت فى مصر القديمة أعمالا أدبية».

قام البعض بمهمة تصنيف القصص منها، وإنتهى إلى وجود النمط الفلسفي، كما قصة «الصدق والكذب» حيث تتقابل شخصيتان رمزيتان أحدهما «الصدق» والآخر «الكذب» ويتصارعان لينتصر «الصدق». كذلك النمط القصصي الأسطوري مثل «اله البحر آستارتيه»، كما يوجد النمط الحكائى السردي الذي يغلب عليه الخيال والسرد أكثر فنية. بالإضافة إلى تلك الأنماط التى تهتم بالمعجزات والعجائب والسحر.

الجدير بالإشارة أن الأدب المصري القديم تضمن وقفات حكائية سردية، للحث على «المقاومة من أجل الحرية». ونقول بما قال به الكاتب الفرنسى الذي درس الآداب القديمة والمصرية منها: «إن الأدب لا يقاس بالنمو والتقدم، لأن الأدب ينساب فى نغمة إيقاعية ولا يسير فى خط متصل، فلكل من الأدباء وقته وظروفه».

محاور تمجيد الأديب المصرى القديم لجنوده:

١: التغنى بالبطل المنتصر..

من السمات البارزة فى أدب المصرى القديم من أجل تعريف الناس والأجيال الجديدة بنجاحات وإنتصارات أبطالها، فى مواجهة الخطر الداهم. تعد قصة «فتح جوبى» أو «الإستيلاء على يافا» من أشهر تلك النماذج القصصية، تلك التى تتميز بالحيوية السردية والجاذبية.

تتغنى بالقائد «دجهونى» أو قائد جيش تحتمس الثالث. عرف عنه الدهاء العسكري، وهو ما جعله يتمكن من فتح المدينة، فمنحه الحاكم: كأسا من الذهب (يوجد الآن بمتحف اللوفر بفرنسا).

كانت حيلة القائد فى إخراج أمير المدينة «جوبى» إلى خارج أسوارها، ثم إرسال الكثير من الجنود إلى داخل المعسكر فى سلال كبيرة.. (وقد تكررت هذه الحيلة فى التاريخ، وأيضا خدعة حصان طروادة الشهير.. وربما بدت رائجة فى حواديت الف ليلة وليلة، وخصوصا حكاية على بابا والأربعين حرامى).

جزء من النص يصف الخدعة: «وأسرع دجهوتى بإحضار المائتى سلة التى سبق له أن صنعها، و وضع بداخلها مائتى جندي زودهم بالحبال والأوتاد... و زود دجهوتى جنوده بتعليماته قائلا لهم: عليكم بتخليص زملائكم من السلال المختومة حال دخولكم المدينة، والقبض على جميع الرجال بها، وتقييدهم فى الحال.....»

٢: الحنين إلى الوطن..

سمة شفيفة فى أدب الحرب المصرى القديم، حيث العواطف ولوعة الفراق مع الجزع من الغربة والإبتعاد عن أرض الوطن، حيث تزكية الإنتماء الذي هو عتبة كل دعامات أدب التعبير عن التجربة الحربية.

قصة «سنوحى»، وقد أجمع علماء المصريات على أن تلك القصة أفضل ما يمثل الأدب المصري القديم، وقد أدخلها العالم المفكر «كيبلينج» ضمن آثار الأدب العالمي. وشخصية «سنوحى» ليست خيالية، وللقصة قسط من الحقيقة فى الشخصيات والأحداث وهو ما دفع البعض لتسجيلها فنيا.

ترصد القصة الحرب مع اللوبيين، حيث كان «سنوحى» تحت قيادة ولى عهد مصر، أما وقد توفى الملك ورحل ولى العهد لتولى شئون البلاد، إرتحل سنوحى الى سوريا حيث أقام وتزوج وجعلته إحدى القبائل شيخها. وبعد سنوات طويلة تصله أوامر ملك مصر بالعودة إلى مصر ومتابعة قيادة الجيش. ويبدو أن هذا ما تمناه سنوحى، فترك سوريا عائدا إلى مصر كي يدفن في ترابها وقد حارب من أجلها.

٣: التغنى بالإنتصارات الكبرى «ملحمة قادش»..

وهـى المسـماة خطـأ بقصيـدة «بنتـاور»، تعـبر عـن أهـم الإنتصـارات فـى التاريـخ العسـكرى المصـرى القديـم ل»رمسـيس الثانـى» علـى «الخيتـا» وحلفائها (وهـم الحيثيـين مـن سـكان آسـيا).

لكـن الروايـات المختلفـة التـى رويـت بهـا مبعثـرة علـى جـدران معظـم المعابـد (المبعثـرة). ولا يوجـد لهـا مـتن يجمـع شـتاتها (حتـى الآن). إلا أن «سـليم حسـن» حـاول جمعهـا بجهـد فريـد. أمـا التفسـير الوحيـد لتشـتت تواجدهـا فـى الكثـير مـن المعابـد، هـو الإعتـزاز بهـا.

ترجـع أحـداث تلـك الحـروب إلى أن تحتمـس الثالـث أسـس مملكـة كبيرة، وضعفـت سـيطرة مصـر عليها مع مقـدم «اخناتون» (الذى إهتـم بالجانب الدينى) أو بثورتـه الفكريـة.. حتـى جـاء رمسـيس الثانـى لإعـادة سـيطرة مصـر عليهـا.

تقـدم بجيشـه، فإسـتولى علـى فلسـطين حتـى يأمـن جانبهـم. لكـن جيـوش رمسـيس كانـت متباعـدة، وفوجـىء بالأعـداء يعسـكرون فـى قـادش.. تقـدم نحوهـم حتـى تمكـن مـن إخـتراق قواتهـم، ثـم إنتصـر عليهـم بعـد هزيمـة مبكـرة لجيشـه، إسـتطاع أن يحولهـا إلى إنتصـار، طلـب الأعـداء مـن بعـده الهدنـة. فيمـا أكـد الباحثـون علـى تواصـل المعـارك بـين بعـض حـكام مصـر وأولاد «الخيتـا» بعـد معـارك قـادش.

يقـول «سـليم حسـن»، أنـه بتأمـل الأمثـال والقصص والشـعر المصـري القديم، نـرى أن الهـدف عنـد الكاتـب لم يكـن مـن أجـل جمـع المـال و الحصـول علـى وظيفـة وغـير ذلـك. كان الهـدف الأسـمى والشـائع فـى هـذا الأدب أنـه يرمـى الى معـان نبيلـة، ومقاصـد أنبـل، ترفـع مـن شـأنه (وشـأن قومـه). وهـذا هـو مقصـد هـذه الدراسـة، حيـث أدب التجربـة الحربيـة فـى السـرد المصـرى القديـم، هـو أدب مواجهـة الـذات لتصفيتهـا مـن المثالـب، ومواجهـة الآخـر العدوانـي بـكل السـبل، بـل وتعبـيرا عـن الفـداء مـن أجـل الوطـن.

قص بطولات فترة الحملات الصليبية:

لقرابة قرنين من الزمان كانت تلك المعارك التي إن هدأت هنا إشتعلت هناك. فقد أقيمت الإمارات الأوروبية (أو المستعمرات الإستيطانية)، كما إستولوا على الحصون والقلاع، وتمكنوا من مقاليد الأمور..

بدت تلك الفترة بكل ما فيها من ألم، تعد من أنضج الفترات التي أنتجت فيها القريحة العربية العديد من المعطيات الفكرية والأفكار الإيجابية.. فلم يكن الشعر والنثر هما أهم ما أنتجته تلك الفترة، كان المنجز العقلي مع الفقه وعلوم الشريعة، وفى القضاء.. يبدو أن تلك الأزمة حفزت الهمم، ليس لمواجهة الأعداء فقط، بل لمحاربة كل عوامل القهر والإنهيار.

قرر علماء الإسلام، الإنتباه لكتابات اليهود والمغرضين والرد عليها.. فكتب «ابن قيم الجوزية»: «هداية الحيارى من اليهود والنصارى» و«إجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية». كما يذكر أن بعض العلماء ذهب إلى أرض المعركة حبا في الإستشهاد مثل «الإمام يوسف الفندلاوى المالكى»، والشيخ الزاهد «عبدالرحمن الحلحول».

كما كتب «عبدالرحمن بن عبدالله» كتابه «المنهج المسلوك في سياسة الملوك» يحث على الجهاد، وتدبير أمور الجيوش، قال: «إن الله تعالى فرض في الأصل على كل مسلم أن يقاتل عشرة مشركين.. ثم إن الله حرم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لأحد أمرين، إما متحرف لقتال فيأوى للإستراحة أو لمكيدة ويعود لقتالهم، وإما أن يتحيز إلى فئة أخرى ليجتمع بها على قتالهم».

الغريب الطريف أن ينشر ذاك الكتاب الفكه الذي جمع النوادر التى حدثت.. مثل حكاية تلك المرأة التي تخرج سافرة من باب بيتها وتشير إلى أحد جنود الإفرنج، وما أن يسير خلفها إلى داخل بيتها، يخرج عليه الرجال لتمزيقه إربا!

يوميات أسامة بن منقذ :

أما والبحث عن بطولات الجندى المصرى وجيشها، فلا أجدى من الإطلاع عما كتبه وزير صلاح الدين ومرافقه فى كل معاركه، لما تتمتع به من خصائص حكائية وغلبة القص عليها.. تلك المواقف والاخبار والاحداث التى رصدها بصياغة حكائية بسيطة وجاذبة.

«أسامة بن منقذ» (٤٨٨ – ٥٤٨ هجرية)، هو فارس من فرسان المعارك ضد الصليبيين، وقد عاش عهود الحكام الثلاثة (عماد الدين، نور الدين و صلاح الدين) و لكل منهم مواقفة البطولية.

ففى كتابه «الإعتبار»، دون أن يدرى أضاف شكلا غير مسبوق إلى النثر العربى.. فقد عمد فى عرضة على تسجيل اليوم و أحداثه تفصيليا، فأصبح رائدا فى فن كتابة اليوميات، وقد شاع هذا الشكل من بعده.

لقد تعرض «أسامه» فى كتابه «الإعتبار» إلى مرحلة طفولته، و أنه من المقاتلين و محترفى الصيد ولا يترك المصحف من بين يديه حتى أثناء فترات الراحة خلال رحلات الصيد. أما الجانب الحربى و رصده للصراع العسكرى مع الفرنجة، يلاحظ القارىء أنه لم يتحدث عن نفسه. كل ما جمع عن بسالته وبطولاته العسكرية يمكن أن يعرفها القارىء من كتابات الاخرين عنه. ففى كتاب «الروضتين» لكاتبه «أبوشامه» قدم وصفا وسرد أحداثا حول شجاعة «أسامة» أثناء حصار قلعة «حارم».

وضح فى كتابه «الاعتبار» قدر تقدير «أسامة» لصلاح الدين. يتحدث عن أفضاله فيقول:

«نادانى إليه مكاتبة مولانا ناصر الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والإحسان، محى دولة أمير المؤمنين.. فاستنقذنى من أنياب النوائب برأيه الجميل، وحملنى إلى بابه العالى الغامر الجزيل، وجبر ما هاضه الزمان منى، و نفق على كرمه ما كسد عنه سواه».

لعل مجمل ما يمكن الإشارة إليه.. تخلو اليوميات من النرجسية و تفضيل الذات عكس الكثير من السير.. سمة الصدق و الشجاعة و قول الحق يغلب أى إعتبار غير موضوعى، حتى أنه و على مافى تجربته من قسوة مع الفرنج، إلا أنه لم ير فيهم آبالسة و شياطين كما قال البعض من معاصريه.. بل ناقش أفكارهم و سلوكهم. ولا يبدو منفعلا شديد البأس إلا عندما يسرد المعارك.

رواية «الحروب الصليبية» ..

للكاتب «أمين معلوف»، نشرت عام ١٩٨٣م باللغة الفرنسية، ثم ترجمت إلى العربية بقلم «د.عفيف دمشقية». وهى واحدة من إنتاج الروائي الذي رهن قلمه لكتابة الرواية التاريخية.

لعل الهام هنا هو تركيز الروائي على إبراز العلاقة بين الشرق والغرب في كل أعماله، وما أحوجنا الآن كي ننتبه إلى أنفسنا وإلى الآخر. وقد وعى الكاتب تلك القضية حتى أنه بالمقدمة يقول: «أنا لا أقدم كتابا آخر في التاريخ قدر ما هو رواية حقيقية عن الحروب الصليبية، وعن هذين القرنين المضطربين اللذين صنعا الغرب والعالم العربي، ولا يزالان يحددان، حتى اليوم، علاقاتهما..» . كأننا نقرأ في تلك السطور القليلة أحداث نعيشها الآن!

أما روايته حول الحرب الصليبية، فتشغل نفس زمن فترة تلك الحروب (قرنان)، أي منذ ١٠٨٩م حتى نهاية وجود الصليبيين بالمنطقة في عام ١٢٩١م . ومع ذلك فالقول بالتزامه العلمي بالحقيقة التاريخية لا يلغى الالتزام بأطر عامة لفن الرواية كما في توفير عنصر التشويق والإثارة.

يعرض الروائي وجهة نظره، ثم يسجل مقولات المؤرخين، وقد يعلق من بعد، وهكذا يقطع ويمزج، ويضيف بشكل متتابع وهو قابض على جوهر فنية الرواية وفكرتها، مع ذلك كثيرا من كان يبدأ (الفصل أو الفكرة الجديدة) برصد التاريخ.

كما فعل في «ديسمبر ١٠٨٩» حيث يقول:

«إجتاح الصليبيون بلدة أبى العلاء..........، أما المؤرخ العربي أسامة بن منقذ – الذي ولد في مدينة قريبة قبل ثلاث سنوات من هذه الأحداث – فقد عاش تلك الفترة كاملة وأرخ لها، وحدث في أثنائها لون من الوان التعاون بين إمارة عربية في دمشق، وأخرى صليبية في القدس...........، وهو يتحدث حديثا طويلا عن جهلهم بالطب وهمجيتهم، ويشمئز من كثير من مسالكهم:................، ثم يوجز خبرته بهم: «إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج رأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل»!

وهكذا حتى نهاية الرواية، ما بين التنصيص والتعليق وما يمكن أن نطلق عليه «المونتاج».. بحيث إكتسب العمل نكهة خاصة.. وهو ما جعل الرواية وثيقة تاريخية/ فنية حول الحروب الصليبية، ولم تخل الرواية من بطولات حقيقية للجندى (المصرى والعربى).

★★★

قص بطولات فترة مواجهة الغزو التتارى:

تعد تجربة معركة «عين جالوت» من التجارب الحربية الهامة في التاريخ العربي، ليس فقط لكونها معركة إنتصر فيها الجندى المصرى، بل لكونها قادت نحو نزع غلالة الإحباط والغفلة التي كانت تعيشها المنطقة فى حينه.

وقعت المعركة عام ١٢٦٠م (في منطقة عين جالوت» بفلسطين) بين الغزاة التتار بقيادة «كتبغا» (وهو المعلم الأكبر لهولاكو)، وبين العرب بقيادة «قطز» حاكم مصر ورفيقه (الذي قتله فيما بعد وتولى الحكم) «بيبرس»، إنتهت المعركة بانتصار العرب.

قبل تلك المعركة (عين جالوت) بعث «هولاكو» إلى ملك مصر (الشاب الصغير المنصور) وقبل بهيمنة التتار على مصر، إعترض «قطز» ورفاقه، وتولى الأول حكم البلاد، ثم قرر الخروج إلى التتار. وقبل خروجه أجرى العديد من الإجراءات التي يمكن أن تسمى الآن «إعداد الدولة للحرب» بتوفير المواد التموينية، والسلاح، وجمع الضرائب اللازمة للإنفاق على الجيش وإستعداداته، بالإضافة إلى التهيئة النفسية الواجبة لكل المصريين.

لم تكن المعركة هي بداية التصادم، سبقتها الحرب النفسية ضد التتار، حيث كانت حيلة خبيثة وشهيرة، وطريفة أيضا. فقد تقدمت بعض الأفراد أو الجنود المصريين ممن يطلق عليهم بالعيون أو القوات المتقدمة، عددهم مائة، وهو نفس العدد من قوات الصليبيين (حيث علم بيبرس بالاتفاق بين الصليبيين والتتار على التشاور للتعاون معا، وهي مهمة المائة صليبي الذين قاتلهم بيبرس)

ثم أمر «بيبرس» باستبدال ملابسهم بملابس الصليبيين، وتقدموا حتى دخلوا معسكر التتار بالترحاب الواجب! ، فكانوا النواة التي عملت على إحباط الروح المعنوية للتتار، والعيون التي تبعث بأسرار الأعداء إلى ملكهم «قطز».

بعد أن أعد «قطز» العدة، بدأ بيبرس في المناوشات الصغيرة، والمعارك المحدودة. وعرف عن تلك الفترة، نجح «بيبرس» في التعاون مع الفلسطينيين بل ومشاركتهم، والبدء في إعداد قوات منهم، للمشاركة في المعارك الفاصلة.. بالإضافة إلى الاستعانة بهم في توفير الشئون الإدارية للقوات المصرية المتقدمة.

بدأت المعركة الفاصلة على مراحل..المرحلة الأولى بدأت بتحييد الصليبيين، وضمان عدم مشاركتهم للتتار. ثم بدأت المناوشات مع قوات التتار عند نهر «العاصي».

أما وقد بلغت القوات (حوالي ٤٧٧الفا) من الجنود المصريين والفلسطينيين والسوريين، بقيادة «قطز»، عسكروا عند النهر حتى يعد حاجزا ومانعا

طبيعيا لحماية القوات، حتى جاء ٣سبتمبر عام ١٢٦٠م وبدأت المعركة الكبرى.. بدأت بقذف المعسكر التتارية بالمنجنيقات من كل جانب،

ردت القوات التتارية بهجوم عاصف حتى إخترقوا جيش القوات العربية، إلا أن الخطة العسكرية المسبقة، أعطت لهذا الاحتمال الاحتياطات الواجبة. وبالفعل تعاملت الأكمنة العربية مع قوات الأعداء، بل أطبقت القوات على الغزاة بالجانب الأيمن والأيسر.. فيما تابع الأهالي الفلسطينيين المحليين وغير المشتركين في القوات المتحاربة، قامت بمطاردة القوات الفارة والشاردة.

رواية «وا إسلاماه» :

للروائى «على أحمد باكثير»، يسعى القائد التتارى «بلطاي» وراء «سلامة» مستشار السلطان المقتول الذى هرب مع الأميرة «جهاد» أو جلنار وريثة العرش والأمير «محمود» أو «قطز»، حيث يقوم سلامة ببيع محمود وجهاد كرقيق حتى يمكن إنقاذ حياتهما.. ينتهى بهما الأمر بمصر، إلى أن تصبح جهاد جارية في قصر الملكة شجرة الدر ومحمود قائد المماليك مع الأمير عز الدين أبيك. يلتقى سلامة أخيرًا بجهاد ومحمود الذين ينمو الحب بينهما، تبدأ سلسلة من المؤامرات على عرش مصر، وتنتهى بزواج الأمير «أيبك» من «شجرة الدر» التى تقتله عندما يحاول أن يجردها من سلطاتها.

وتقتل شجرة الدر على يد أرملة السلطان عز الدين أيبك، ويصبح عرش مصر خاليا فى الوقت الذى يحاول فيه التتار مهاجمتها. يهب محمود لجمع كلمة الشعب من أجل الدفاع عن مصر ويتولى عرش مصر ويقرر محاربة المغول، مع صديقه الظاهر بيبرس وينتصر محمود/ قطز وبجانبه جهاد على التتار.. خصوصا بعد أن شاركة الامير الظاهر بيبرس بجيشه او جنوده المدربين جيدا.. وكان الإنتصار الهام على التتار فى معركة «عين جالوت»

★★★

«عذراء دنشواى».. للروائي »محمود طاهر حقي»..

ربما أهم ما يمكن أن يقال حول هذه الرواية، هو بالضبط ما سجله الكاتب «يحي حقي»، في مقدمته للرواية للطبعة الثانية عام ١٩٦٣م (نشرت للمرة الأولى عام١٩٠٩)..قال:

«لك الحق إذا قرأت هذه الرواية التي صدرت أول طبعة لها في شهر يوليو سنة ١٩٠٩م، أن تسأل نفسك في شئ من التعجب: «لماذا يعاد طبعها سنة ١٩٦٣م؟»

هل باعتبار أنها من خزائن المكتبة العربية المندثرة التي ينبغي أن تبعث من جديد ليعرفها الجيل الحاضر ويدخلها في تاريخ نشأة الفن القصصى وتطوره فى بلادنا؟ ستؤخذ بأن الجانب القصصى المعتمد على الخيال فى هذه الرواية جد ضئيل، وأن جهد المؤلف يكاد لا يتجاوز تسجيل قضية دنشواى كما حدثت.

لم يصطنع أشخاصه إصطناعا، بل أخذهم بأسمائهم ومواطنهم ومهنهم من واقع الحياة، فوصفه هو وصف صحفي أو وصف المؤرخ على أحسن تقدير. إنه روى لنا على الترتيب..

كيف وقعت الواقعة في قرية دنشواى؟.. ثم دخل بنا إلى قاعة المحكمة المخصوصة لنشهد الجلسة ونرى القضاة، ونسمع شهادة الشهود ومرافعة النيابة والدفاع.. ثم صحبنا إلى ساحة التنفيذ لنحضر بشاعة أحط جريمة إرتكبها الاحتلال البريطاني..

تعد عذراء دنشواى أول رواية مصرية مؤلفة تباع منها آلاف مؤلفة من النسخ فور صدورها. وقد أعيد طبعها عدة مرات في فترة وجيزة...

لقد حدثنا الكاتب عن حب ساذج برئ بين فتاة وفتى من أبناء القرية، هما «محمد العبد» و «ست الدار» وبحكاية حبهما بدأ الرواية.

أفنقول: إنه من عجيب الصدف أن يظهر الفلاح لأول مرة في أول رواية تهز وجدان الشعب؟

أم نقول: إن هذه الظاهرة ليست وليدة الصدفة وحدها، بل هي نتيجة منطقية محتومة للتلاقى بين مخاضين طويلين محجوبين فى صمت باطنى: مخاض ولادة الرواية، ومخاض ولادة وحدة الشعب فى المحنة، وعثوره على نفسه وحاجته إلى التعبير عن هذه النفس...

ينبغي الاعتراف بأن رواج رواية «عذراء دنشواى وقت صدورها لم يكن مرجعه قيمتها الفنية، بل ركوبها موجة من الشعور المتقد الذي بثته قضية «دنشواى» في نفوس المصريين.. من مشاعر الاحساس بالظلم والرغبة فى مواجهته.

«فتاة الثورة العرابية» للروائى «يوسف أفندي حسن صبري»..

تقع الرواية في تسعة فصول، ويبدو أن الروائي التزم بما أشار إليه في «التمهيد» بالالتزام (غير الفنى) بالأحداث التاريخية والشخصيات وحتى الأسماء.(نشرت الرواية عام١٩٣٢م).

الفصل الأول.. «أدب المغفور له الخديوي سعيد باشا مأدبة بقصر النيل دعا إليها العلماء الروحانيين وأعضاء العائلة الحاكمة وأعاظم رجال الحكومة ورجال العسكرية.. بعد تناول ما لذ وطاب نهض سعيد باشا بين تهليل القلوب ورقص الأفئدة وقف بين صفوف الإجلال والرهبة والقى هذه الكلمة والتي كانت أول صيحة في مصر بطلب الحرية والاستقلال: «أيها الأخوان، إني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مهانا.. وحيث أنى أعتبر نفسي مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا...»

ويشير الروائي إلى أن أحمد عرابي كان ضمن الضيوف، وسعيدا بما سمع.لكنه يشرد في معسكره ولا ينام، يتساءل.. فيدور الحوار الكاشف

عـن أحـوال المصريـين في الجيـش بينـه وبـين جنـدي الحراسـة الخاصـة بـه. ذاك الجنـدي نفسـه يضـع بدايـة خـط درامـي مـواز للخـط التاريخـي المباشـر، حيـث يطلـب أجـازة مـن عرابـي للعـودة إلى قريتـه «قويسـنا» ليشـارك في عـزاء عمـه المتوفـى، وليرعـى إبنـة عمـه «خديجـة». وبـدأ الجنـدي «إبراهيـم دسـوقى» رعايتـه، ثـم تزوجهـا.

الفصـل الثـاني.. توفـى المغفـور لـه جنتمـكان محمـد سـعيد باشـا، وتـولى الأريكـة الخديويـة سمـو إسماعيـل باشـا ولايـة مصـر فأمـر بجمـع العسـاكر وترتيـب الآلايـات فـكان أحمـد عرابـي قائمقـام علـى آلاى البيـادة السـادس ولم يكـن غـيره مـن العنصر المصـري بهـذه الرتبـة...

ثـم يعـرض الروائـي لبعـض المؤامـرات الـتي حاقـت بعرابـي. وفـى الجـزء التالـي يعـرض لتطـور العلاقـة بـين خديجـة وإبراهيـم. أخبرتـه أن ابـن العمـدة بترصدهـا، فأقنـع زوجهـا «عرابـي» بضـرورة القبض على الشـاب اللاهـي. بينما الجنـود في طريقهـم للقبـض علـى ابن العمـدة، إذا به مصادفـة يذهب إلى خديجة ليعـرض عليهـا الـزواج!، بل يحـاول الاعتداء عليهـا.. يدخل إبراهيـم لإنقاذها.

الفصـل الثالـث.. بعـد مضـى يومـان علـى هـذه الحـوادث، الضابـط حسين أفنـدي يحـاول دخـول السـجن الحربـي وقـد تمكـن مـن ذلـك.. «وهـو المحـور المعـبر عـن الحيـاة العسـكرية في تلـك الفـترة. فقـد تعمـد الضبـاط الشـركس تصيـد الأخطـاء الـتي قـد يقـع فيهـا «عرابـي» لإزاحتـه ولأن يحلـوا محلـه. كمـا يعـرض الفصـل مـا كان مـع ابـن العمـدة.. وكيـف أن عرابـي ظالمـا بالمعاونـة في القبـض علـى ابـن العمـدة.

وصـل الخـبر إلى الخديـوي عـن طريـق ناظـر «الجهاديـة»، فيغضـب ويقول: «آه أنـا لا أعتقـد بـأن هنـاك مخلـوق شـرب مـن مـاء النيـل وأكل مـن خـيرات مصـر يسـعى في تأخرهـا...»

وتتـوالى الأحـداث الحربيـة الهامـة والمتمثلـة فـى بدايـات الثـورة، لقـد بـرزت علـى خـط متـواز مـع أحـداث الثـورة العرابيـة التاريخيـة المعروفـة، ولا

تنتهى قبل عرض الكثير من معارك عرابى حتى التل الكبير، ثم اعتقاله ورفاقه وترحيله خارج البلاد.

لتكون الفقرة الأخيرة في الرواية أثناء تنفيذ «عرابي» الحكم عليه بالنفي خارج البلاد:

«وبينما عرابي باشا يلقى آخر نظرة على شواطئ وطنه المحبوب.. ذاهب إلى منفاه.. كان الملازم إبراهيم أفندي (وهو جندي الحراسة لعرابي وزوج خديجة) يضع قبلة على فم زوجته خديجة. فسلام لك أيها البطل العظيم جهادك... وسلام لك يا إبراهيم بابنة الثورة...»

***

قص بطولات الجندى المصرى فى القرن ال٢٠

لن يدهش الراصد للمنتج السردى بالقرن العشرين، أن القص رصد وعبر عن مجمل التجارب الحربية التي مرت بها مصر، وعبر عن صمود وبطولات الجندى المصرى.

بداية من الحرب العالمية الأولى وما بعدها.. يكفى الإشارة إلى أحداث ثورة ١٩١٩م التي باتت من أهم الأحداث في العديد من الروايات.. وقد برزت الأسماء الهامة، منها: طه حسين، توفيق الحكيم، سعيد العريان، يحيى حقي.. وغيرهم. كما برز مؤسس الرواية العربية المعاصرة ورائدها الفنى «نجيب محفوظ» إلا بعد أحداث الحرب العالمية الثانية.

أما جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، هم الذين رسخوا لفن القصصى والروائى، وأصبح إنتاجهم فيها هو البناء الفنى للرواية، منهم: «يوسف الشارونى – يوسف السباعي – يوسف أدريس – فتحي غانم – أمين ريان– محمد صدقي – عبد الحليم عبد الله... وغيرهم».

ثـم كانـت نكبـة ١٩٤٨ في فلسـطين، والـتي بـدأت ولم تنتـه، وأصبحـت معينـا للكثـير مـن المبدعـين..

ثـم كانـت معـارك العـدوان الثلاثـي علـى بورسـعيد في ١٩٥٦م، وقـد كانـت سـببا فـى مولـد أول روائيـة مصريـة وربمـا عربيـة بالمعنـى الفنـى «لطيفـة الزيـات» وروايتهـا «البـاب المفتـوح».

بعـد تلـك الحـرب في ٥٦، شـهدت الروايـة المصريـة/ العربيـة طفـرة لم تشـهدها مـن قبـل.. ربمـا يرجـع هـذا إلى جملـة المتغـيرات السياسـية والإقتصاديـة والإجتماعيـة الـتي مـرت بهـا مصـر. نشـير إلى بعـض أسمـاء: «إدوار الخـراط، حسـن محسـب، ثـم جيـل السـتينيات (عـلاء الديـب، يوسـف القعيـد، عبدالحكيـم قاسـم، جمـال الغيطانـى. محمـد البسـاطى، مجيـد طوبيا، بهـاء طاهـر... وغيرهـم).

كمـا كانـت تجربـة حـرب اليمـن ذات لهـا بصماتهـا مـن خـلال: روايـة «رجـال وجبـال ورصـاص» لفـؤاد حجـازي، وروايـة «حـرب اليمـن» لصـبري موسـى، الـتي نشـرت في مجلـة «روزاليوسـف» ولم تنشـر في كتـاب.

أمـا وقـد حدثـت النكسـة في عـام ١٩٦٧م، ثـم كانـت حـرب الإسـتنزاف بعـد تهجـير سـكان مـدن قنـاة السـويس، ثـم معـارك أكتوبـر ١٩٧٣م.. وكلهـا تكفلـت بجيـل كامـل بـدأ معهـا ومـازال يعطـى علـى السـاحة الأدبيـة وقـد رسـخت أقدامـه، منهـم: «فـؤاد حجـازي- إبراهيـم عبـد المجيـد- عـلاء مصطفـى- محمـد الـراوي - فتحـي إمبابـى - سـمير عبدالفتـاح - مصطفـى نصـر- فـؤاد قنديـل - سـعيد بكـر - أحمـد حميـدة - قاسـم مسـعد عليـوه - محمـد عبدالله عيسـى- سـيد الوكيـل- ربيـع الصـبروت- حسـن نـور- السـيد نجـم.. وغيرهـم).

ملامح قص التجربة الحربية..

ذهب «رولان بارت» إلى القول: «أن الرواية عمل قابل للتكيف مع المجتمع، وأن الرواية تبدو كأنها مؤسسة أدبية ثابتة الكيان. لعله يعنى أن الرواية قادرة على التعبير عن الجماعات وأنها بالتالي من أكثر الأشكال الأدبية يملك صفة «الاجتماعي».

لقد شارك القص (القصة القصيرة والرواية) في التعبير عن الذات الجمعية.. فالمتابع لتقنيات وأشكال القص حتما سيتوقف أمام تلك التعددية والثراء التي أصبحت عليه. وقد عدت العوامل التي أعادت تشكيل الرواية المعاصرة بأربعة عوامل، هى الحرب العالمية الثانية.. الحرب التحريرية الجزائرية.. إكتشاف وإستخدام السلاح الذرى.. غزو الفضاء. (في نظرية الرواية- بحث في تقنيات السرد/ د.عبد الملك مرتاض/ «عالم المعرفة، العدد٢٤٠) لاحظ أن ثلاثة من أربع عوامل لها علاقة مباشرة بالتجربة الحربية.

★★★

نماذج إبداعية ترصد بطولات الجندى المصرى المعاصر:

«المعركة أو القاهرة ٥١» للروائى «أمين ريان»..(تجربة مقاومة الإحتلال)

كتبت حتى عام ١٩٥١م، ثم نشرت في عام١٩٥٦م. تنقل صورة شريحة «الفنانين التشكيليين» خلال فترة الكفاح السياسي والعسكري ضد الإحتلال الإنجليزي (قبل ثورة٥٢).

خلال فترة ما قبل الثورة ١٩٥٢م، نشطت مجموعات الشباب المصرى فى مجموعات من الأعمال الفدائية ضد معسكرات الانجليز. وقد عرض ذلك فنيا بلا صوت زاعق ولا توظيف المصطلحات الايديولوجية.. فخرج العمل إنسانيا، مخلصا لقيم الإنسان العليا في الحرية والسلام.

«غريب» و «هالة» رسامين متحابين، إنشغلا مع الرسامين الآخرين في إعداد لوحات يلزم تقديمها إلى مسابقة فنية. لكن غريب يعلم نفاق أخيه «إمام» الصحفي الذي قال أن خطوط رسم الملك (الطفل) خطوط عبقرية ! .. بينما هناك من يدعو إلى الثورة والجهاد ضد المحتل.

الضابط «علاء الدين» أحب هالة، بل وزج في السجن من يقترب منها، أو حتى يدفعه إلى العمل المنافق المربح (كما فعل مع الرسام أنور). حل «غريب» مشكلة حيرته بالإنضمام إلى صديقه «يعقوب» في «اللجنة الوطنية»، وبدأ التدريب العسكري مع الفدائيين في معسكر حي العباسية.

في بور سعيد بدأ العمل الفدائي، كما قرر أن يكتب قصة حبه مع هاله، تلك الأنثى الرمز أو الأمل.. ولعلها مصر. استبدل الخيال بالواقع، وفشل في كتابة الرواية كما فشل في الإرتباط بهالة، ربما لأسباب أخرى غير الحب، لأسباب إجتماعية.

مع ذلك التقيا في الحياة ثانية، والمفارقة أن التقيا في تهمة الإشتراك في حريق القاهرة عام٥١وهو ما يعنى أن الكفاح والصراع الجمعي جمع بين المتناقضات، وحقق ما لم يستطع الحب وحده أن يحققه.

وان بدأ الفنان فكرة الصراع .. بأن الرسم بالفرشاة نضال وصراع أيضا ضد المحتل، فقد إنتهى به الأمر إلى الصراع الفعلي المباشر بالاشتراك في العمليات الفدائية. أما أن تكون لوحة «الجيرنيكا» حاضرة بالحاح فى كثير من المواقف، ليس إلا إزكاء لفكرة المقاومة.. وهى اللوحة الشهيرة حول موضوع الحرب التى رسمها «بيكاسو» عن الحرب الأهلية الأسبانية.

«الباب المفتوح» للروائية «لطيفة الزيات»..(تجربة حرب١٩٥٦م)

إرتبطت قضية تحرير الوطن بحركة التنوير منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فكانت قضية «المرأة» هي بؤرة التنوير،

ولا عجب أليست المرأة بؤرة الحياة. وقد مرت قضية المرأة بالعديد من المراحل والدروب، منذ رفاعة رافع الطهطاوى حتى الآن.

تعد الروائية «لطيفة الزيات» من الرائدات في العمل العام والإبداعي في الأدب وخصوصا في فن الرواية. وقد وظفت الكاتبة التجربة الحربية عام ١٩٥٦م أثناء العدوان الثلاثي على مصر، توظيفا فنيا (ذكيا).. حيث إنتهت الرواية مع الحرب، ولم تبدأ بها ولم تكن في متن الأحداث تفصيليا. ما أفضى إلى دلالة هامة، لخصت مجمل ما يمكن أن يكتب ويقال في آلاف الصفحات.

«ليلى» فتاة متمردة وطموحة.. تعترض ناظرة المدرسة الثانوية، لأن الأخيرة ترفض قيامها بالمظاهرة (مثل الأولاد) لمهاجمة الإنجليز أو المحتل الأجنبى فى تلك الفترة (تدور أحداث الرواية ما بين عام ١٩٤٦ حتى بداية العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦م).

كما ترفض التفرقة في المعاملة داخل الأسرة بينها وبين شقيقها (محمود). ويبدو هذا التمرد مع أول علاقة عاطفية للبنت الصغيرة، وتلقى العنت والرفض.. تزداد حيرتها، وتعلن قلقها وغضبها: «...أمهاتنا كانوا فاهمين وضعهم، أما احنا ضايعين لا إحنا فاهمين إذا كنا حريم ولا مش حريم» ص٧١

وتصبح التجارب العاطفية هي التنقلات النفسية والفكرية، والحيلة التى توظفها الكاتبة للوصول إلى ذروة الحدث والدلالة التى تعنيها من أكثر من مائتي صفحة مليئة بالأحداث. فها هي ذي تحب الجار كما كل المراهقات ولا تستطيع تفسير تلك المشاعر مع وعيها ورغبتها في التمرد. ثم تحب أستاذها بالجامعة وقد إنتقلت إلى مستوى أعلى من الدراسة والمشاركة الحياتية، لكنه حب عن النضج ولم ينجح.

وفقت الكاتبة أن جاء الحب الناضج من خلال الممارسة الحياتية لتحويل الشعارات إلى أفعال، أفعال من أجل تحرير الوطن. تتعرف على المهندس «حسين» الذي يحمل الفكر المتحمس والعلمي والناضج.. كما يحمل المشاعر الصادقة. ربما لأنه مؤمن بقضيتها دون إفتعال أو إدعاء،

فالحب الحقيقى عنده هو أن يمارسه المرء سواء الرجل أو المرأة على الأرض ومن خلال التعامل مع الناس، من أجل كل شىء جميل.

أخيرا تشعر «ليلى» بالحرية، وأنها فعلا حصلت عليها، لكنه الحبيب يرفض مقولتها: أنها أخيرا حصلت على حريتها، ذلك لأن «الحرية» بداية وليست نهاية، وتحرر الوطن مع تحرر ليلى.

«رجال وجبال ورصاص» للروائى «فؤاد حجازى».. (تجربة حرب اليمن)

قليلة هي الروايات التي تناولت أحداث الثورة اليمنية (في سبتمبر ١٩٦٢). وقد أبرزت الرواية بعض من ملامح تلك التجربة الحربية الخاصة، وقد أفادنا الروائي وعرفنا بالاتى:

.. وجود فئة مؤيدة للجمهوريين (الثورة) وفئة أخرى من القبائل مؤيدة للإمام البدر (الملكيين).

.. لم تكن مهمة الجيش المصري سهلة أو هينة، فالرجال والرصاص في صراع دائم على الجبال، وتتبادل الجنود وأهل القبائل السيطرة عليها.

.. ملامح التخلف العام تغلبت على ملامح البيئة وسلوك الأفراد أحيانا.

.. للكاتب موقف واضح ضد الملكية .

إستخدم الروائي تقنية «الفلاش باك» في أكثر من موقف، وهو بذلك أتاح فرصة سرد المعارك العسكرية هناك. وعلى الرغم وفرة عدد من الشخصيات، إلا أن الروائي أعطى إهتماما خاصا لبطله الأساسي (المجند الذي سافر إلى اليمن مع كتيبته إبان الثورة اليمنية)، وبه ربط به بين الواقع المعاش بمصر والواقع الحربي باليمن.

على الرغم من أن الرواية تتناول الكثير من تفاصيل المعارك والحياة في اليمن، إلا أنها تعد من الروايات التي تعنى بموضوع «عودة الجندي».

ففي تفاصيل مطولة نتعرف على حياة الجندي الذي ذهب وقاتل، ثم عاد بعد كل تلك المعارك المريرة كي يرجو حل مشكلته مع عمله، حيث يعمل بجمعية عمال الأحذية، إفراطا في السخرية والمفارقة.

كتب الروائي الروايات: «رجال وجبال ورصاص» عن تجربة حرب اليمن، ثم «الأسرى يقيمون المتاريس» حول تجربة أسر خلال معارك ٦٧، ثم رواية «المحاصرون» حول تجربة تجدد القتال بعد أن صمتت المدافع وظن العالم (الصديق قبل العدو) أن الشعب المصري لن ينهض ثانية، فكانت سنة ١٩٦٨ بداية الصحوة، أي خلال سنة دوت المدافع ثانية وكانت الصحوة وتجربة «المحاصرون». وبعد سنوات طالت، كانت روايته الجديدة «الرقص على طبول مصرية» والتي تعد أنضج الروايات فنيا وتقنيا.. بالإضافة إلى مجموعة «سلامات» القصصية.

تتسم تلك الأعمال بقدر وافر من صور الصمود والتصدى والكفاح للجندى المصرى، سواء كان أسيرا أو خلف صخرة فى الجبال أو فى مواجهة طائرات العدو الغاشم. كما يلاحظ القارىء بساطة التناول والمعالجة الفنية والاسلوب مما يجعلها من الاعمال المحببة والشيقة نظرا لتعدد صور البطولة والصعاب التى يجتازها الجندى المصرى، مما يجعلها شيقة وجاذبة.

إبداع بطولات التجربة الحربية فى معركة العبور (١٩٦٧ إلى ١٩٧٣م)

لن يدهش الراصد للإبداع الأدبي خلال معارك أكتوبر٧٣، أن بدأ الجندى المصرى الجهاد والمقاتلة بعد أيام قليلة من تمام إنسحاب كامل القوات البرية من سيناء، وإنهيار أغلب عناصر قواته الجوية.

لقد كانت معركة رأس العش ثم تدمير المدمرة «ايلات» بالقوارب الصاروخية، الأقل تسليحا والأصغر حجما، يعد الإنذار المبكر، ودليلا على جدية الإرادة والرغبة فى إستعادة الأرض.

وتكفل جيل بكامله من المبدعين بمهمة رصد تلك التجربة الحربية التى شغلت الفترة، بداية من الأيام القليلة بعد أحداث ٥يونيو حتى تمام معارك العبور فى أكتوبر٧٣، منهم: «فؤاد حجازي- يوسف القعيد- السيد نجم - جمال الغيطانى- إبراهيم عبد المجيد- فؤاد قنديل- قاسم مسعد عليوة - رجب سعد السيد- علاء مصطفى - محمد الراوي- فتحي إمبابى- سمير عبد الفتاح - مصطفى نصر - سعيد بكر- أحمد حميدة - قاسم مسعد عليوه - محمد عبد الله عيسى- سيد الوكيل- ربيع الصبروت- حسن نور، محمد السيد سالم.. وغيرهم.

★★★

البطل في الرواية الحربية:

إن جوهر شخصية الأمم، يبدو جليا فى أدبها، وما أحوجنا إلى تجاوز كل ما هو آني ويومي ومتغير للبحث عما هو جوهري ودائم. و البحث عن «البطل» في الرواية الحربية.

صحيح فكرة «البطل» قديمة قدم الأساطير والملاحم، وجنس الرواية.. وصحيح أيضا أن الرواية المعاصرة أصبحت «رواية بلا بطل»، ومحاولات قتل البطل مستمرة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، حتى أن «الآن روب جرييه» منظر الرواية الجديدة في كتابه «نحو رواية جديدة» أعلن موت البطل لأنه لم يعد للغرب الأوروبي حاجة إليه. وقال: «ينبغي بناء عالم أكثر صلابة ومباشرة بدلا من عالم الدلالات .. ولتفرض الأشياء والحركات التعبيرية نفسها..»

ومع ذلك لا يمكن إغفال «البطل».. إن كان بلا اسم، أو رقم، أو حتى شبح يشار إلى أفعاله ولا نعرف شكله وسمائه.. لا يمكن إغفاله إن تحقق وإنتصر وان زاغ وخبا بعيدا عن العالم في السحاب أو بين طيات النسيان.. إن كان فاعلا أو مفعولا به .. وحتى إن كان شيئا من الأشياء.

من هو البطل؟.. لأن التجربة الحربية عامة/ خاصة، فهي قادرة على إنتاج أبطالها. ولأنها لحظة تاريخية للشعوب والأفراد، فكل من يتجاوب معها ويتفاعل، فهو داخل التاريخ . المؤرخون وحدهم هم المسئولين عن تمجيد الاسكندر الأكبر ونابليون وحتى هتلر، أما المبدعون فهم المنوط بهم تمجيد البسطاء والفقراء والعامة، على شرط أن يكون داخل التاريخ فاعلا معطاء ويبذل الجهد والدم.

أنماط البطل في الرواية الحربية.. البطل الأسطوري، وهو الإيجابي والباحث عن المجهول.. البطل الملحمي، وهو الذي يتقدم الجماعة وينتصر.. البطل الشعبي، وهو الذي ينشأ في بيئة شعبية، ويتشبع بروح الجماعة، مع بروز البعد الديني والصياغة الشعبية للرواية.. البطل الدون كيشوتي (نسبة إلى دون كيشوت) الذي حمل قضيته في قلبه وخرج وهو يعلم مقدار المشقة وقلة الحيلة أمام الواقع الخارجي.. البطل المتأمل والمنسحب إلى الداخل.. البطل التعليمي، أو البطل الملتزم، وهو ما يحرص الروائي على إيصال المقولة قبل توفير أدوات إيصالها فنيا و تقنيا.. البطل المحوري، هو التجربة الحربية كلها، على الرغم من وجود الجماعة، وغالبا بتعمد من الروائي الاحتفاء ببطولاته.. البطل المهزوم، المحبط والمتشائم، وربما يصل إلى اللامنتمي.

أتاحت «التجربة الحربية» دروب وحيل للراوي لأن يقول، رفضا أو قبولا لتلك الحرب التي إشتعلت. ربما نشير في عجالة إلى حاجتها في الوطن العربي كله إلى «البطل» لا إلى «شخصية البطل»، نبغي الإنجاز والقدرة على التحمل، نريد الواعي والقادر على إعمال القرار، نريد من يفهم أن «الصراع» هو جوهر سر الحياة. أما ذاك البطل المحبط وقد انزوى في عتمة النكوص (ألالابطل) فلن نرفضه فنيا..لندع المبدع يقول ما عنده لعله يعلن عن رفض ما ونبؤه بمولد بطل آخر..عالم آخر، أكثر سلما وأكثر حرية .

«الأسرى يقيمـون المتاريـس» للروائـى «فـؤاد حجـازى» (تجربـة الأسر)

عـن تجربـة حقيقيـة داخـل معتقـل «عتليـت» الإسـرائيلى بعـد أسـر «حجـازى» في عـام ١٩٦٧م، تبـدأ المعانـاة بالإهانـة ثـم بالحرمـان مـن المـأكل والمشـرب والنـوم. في ظـل تلـك الأحـوال القاسـية، يبـدو المعتقلـون فـى ذروة روحهـم المقاوميـة، تلـك التـى بـدت فـى مظاهـر قـد تبـدو بسـيطة أو هينـة، إلا أنهـا دالـة ومعبرة عـن ذلـك البطـل الإنسـانى البسـيط مـن فلاحـى وصعايـدة مصـر.. الجنـدى المصـرى.

كمـا كانـت تدبـر الحيـل مـن السـجناء، برسـم «النجمـة الإسـرائيلية السداسـية» علـى قمصـان بيـض ثـم إحراقهـا. يكتـب الروائـى معبرا عـن أحوال الأسـرى يقـول: «بالأمـس وأنـا أنظـر إلى وجـوه لا أعرفهـا إعترانـي الحـزن.. كان أحدنـا جريحًـا في فخـذه يـداه طليقتـان تسـتطيعان الحركـة وهـو الوحيـد معنـا الـذي يحتفـظ ببندقيـة سـريعة الطلقـات قـام مـن فـوره، فـك لـي بنطالـي الخارجـي، وأنـزل لباسـي وتحاملـت عليـه، حتـى أفرغـت أمعائـي؛ لم يبـد أي ضيـق أو تأفـف ولم تنـمّ عنـه أي خلجـة تجـرح مشـاعري؛ في حـين كنـت أنـا متضايقًـا جـدًّا، وعندمـا لمـح ضيقـي، ضحـك مخففًـا عـني وناولـني ورقـة أنظـف بهـا نفسـي.. فعـل نفـس الشـيء مـع بقيـة الجرحـى، وقـدر لـي ألا أتمكـن مـن عمـل ذلـك ثانيـة إلا بعـد أيـام مـن وصولـي إلى إسـرائيل»

«كانـت أول مـرة نـرى فيهـا الإسـرائيليين عـن قـرب، أشـار لهـم أحدنـا أننـا جرحـى، هـم صديقُنـا الواقـف بجـوار البـاب بإطـلاق الرصـاص عليهـم تمنيـت في فـرارة نفسـي ألا يفعـل... ألقـى صاحبنـا بندقيتـه مـن فرجـة البـاب أطلقـوا علينـا النـار فـورًا أصـاب الرصـاص صاحـب البندقيـة فخـر جسـده فوقـي وتلقـى عـني رصاصهـم المنهمـر وكان أسـفي عظيمًـا علـى صاحـبي الـذي لم يطلـق النـار في محاولـة لإنقاذنـا نحـن الجرحـى وأحسسـت بوخـز لمـا تمنيتـه قبـلاً».

تتميز الرواية بالبساطة لدرجة الإثارة في تشريح آلام جنود و وطن في صراعه مع العدو، لقد حرم الأسرى من كل شيء، تضميد الجراح جرعة ماء، وجبات الطعام، الملابس النظيفة و الإستحمام، صابون التنظيف وحتى الخطابات القادمة من مصر و الهدايا المرسلة عن طريق الصليب الأحمر. وسط تلك الأحوال تم إصدار صحفا ومجلات حائط من ورق أكياس شكائر الإسمنت يكتبون فيها تحليلاتهم والنكات التى شاعت بينهم، ثم كوّنوا فرقًا موسيقية مسرحية لعرض روايات كثيرة ومنها اوبريت«ليلة مصرية» !

***

«اسكندرية ٦٧» للروائى «مصطفى نصر»(تجربة المقاومة الشعبية)

أحداث تلك الرواية خلال الفترة السابقة على أحداث نكسة ١٩٦٧م وما بعدها بقليل. والحدث الأساسي بها هو تسلل بعض من الضفادع البشرية من القوات الإسرائيلية والإختباء في دهاليز قلعة «قايتباى»، ثم فرارهم والإختفاء في عيادة الطبيب اليهودي «دكتور يوسف داود» بحي الأنفوشى، حتى تم القبض عليهم. حصر الروائي الأحداث في حي الجمرك والأنفوشى..

الدكتور احمد الدسوقى، قدم الى الاسكندرية من المانيا قبل النكسة، بعد أن إنتهى من دراساته العليا. وصل يحمل جملة الأفكار التي رفضها العامة من المحتشدين في المؤتمر العام الذي عقد قبل بداية المعارك بقليل، وقد عرض «الدسوقى» رأيه بعدم قدرة البلاد على مواجهة عسكرية مع إسرائيل.. وتنبأ بهزيمة مصر، وهو ما برره بأن الغرب يدفع بعبد الناصر إلى معركة غير معد لها، كما أن الإعلام في مصر هول من قوة مصر، بينما هون من قوة إسرائيل.. فما كان من المصريين الا أنهم ضربوه ضربا مبرحا.

كما أن الولد «حسن» الذي يتسم بالذكاء وحسن التصرف، فهو من نجح في إكتشاف المتسللين من رجال الضفادع البشرية الإسرائيلي بالإختباء داخل القلعة التاريخية. أبلغ سكان الحي ورجال الشرطة. وتوالت الأحداث التي شارك فيها الصبي النبيه.

ثم السياسين المنتفعين بالتنظيم السياسي «الإتحاد الاشتراكي»، لعبوا دورا زاعقا ومملا إلى حد أن سعوا إلى معاقبة الدكتور الدسوقى، وترتيد الشعارات التى راجت فى تلك الفترة، من أن مصر سوف تلقى باسرائيل فى البحر.

كما قدم الروائي مجموعة من اليهود المصريين المقيمين بالإسكندرية: دكتور داود وقد لعب دورا في إخفاء المتسللين داخل العيادة، الدكتورة «آمال» التي تعتقد أنها مصرية وان كانت يهودية وتشعر بالرغبة في البقاء بمصر أفضل لها من الهجرة إلى إسرائيل كما فعل غيرها. كما أن «فيكتور» اليهودي بقى بمصر وفتتح الكازينو الذي يعد بؤرة للبغاء وممارسة القمار.

تعد الرواية من روايات البطولة في التجربة الحربية، وان كانت في ميدان غير ميدان المعارك الصريحة بالرصاص والقنابل، بطولة شعبية.

«لا تبحثوا عن عنوان.. إنها الحرب. إنها الحرب» قصص «قاسم مسعد عليوة»

تتضمن المجموعة بعض تجارب حرب الإستنزاف تلك الحالات المتعددة للتجربة الحربية كما هى وكأنها كل الهم والواجب رعايته، هكذا كان يفكر القاص وهو يضع عنوانا لحوالى عشرين من القصص القصيرة كتبها (من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٤م) ونشرت المجموعة فى عام ١٩٩٩م. قصة «الإنفصال».. يفضل الجندى أن يقضى فترة الاجازة الميدانية بمدينة القاهرة، رغبة منه للترفيه عما يلاقيه من عنت وارهاق بالجبهة، ما حدث أن بان للجندى قدر الترفيه الذى تعيشه القاهرة، مما دفعه للعودة إلى وحدته على جبهة القتال غير نادم.

قصة «سهرة ماجنة».. تؤكد تلك القصة ما ذهبنا اليه من أن القاص وضع نصب أعينه الالتزام بكل ما هو حقيقى وصادق ومنتمى إلى جملة القيم المصرية، أولها فى تلك الفترة تحرير الأرض، وربما عنوان القصة يشى بجملة دلالة القصة والهدف من ورائها.

قصة «لا تبحثوا عن عنوان».. قصة لافتة، لعلها من أكثر القصص تعبيرا بالمشاعر الانسانية الفطرية، وهى التى سميت بها المجموعة القصصية. فقد اشتدت الحرب فى صورة قذف لا يهمد من طائرات العدو ثم بالمدافع حتى كانت محاولة الشاب العفى لانقاذ من يصاب فى تلك البناية الحكومية، وحدث أن شاركته إحداهن لا تقل عنه حماسا ورغبة فى رعاية المصابين.. روايدا تشاركا ورويدا تواصل كل منهما بالآخر، ورويدا تعانقا.. إنها الحياة، الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها من أجل البقاء. قصة «التوافق».. وهى ترى التجربة الحربية من زاوية أخرى حيث يرسم القاص صورة الحياة لأحد مصابى المعارك، وعلى قدر ما يعانية الشاب من جراء الإصابة، لا يلقى ما يستحقه من رعاية وإهتمام من المجتمع، ولا حتى من المقربين منه، فزادت المعاناة ولم يتحقق التوافق. قصة «ذات يوم حافل».. تعد القصة على وجهين الأول إنسانى إجتماعى، والآخر رمزى له دلالة خاصة مع التجربة الحربية.. فقد كان أنين المرأة لافتا بينما الشاب منشغلا بأمر ما، فلما إنتبه وذهب إلى مصدر الصوت، بان له أنه أمام سيدة تلد وعليه اتمام مهام القابلة، وبالفعل ساعدته المرأة حتى استقبل الوليد بين ذراعيه، ولنا القول بأن دلالة القصة ليست ميلاد الطفل، بل هى الحياة الباقية مقابل الموت الداهم بسبب الحروب.

«بشاير اليوسفي»..للروائي رضا البهات(تجربة المقاومة فى الجبهة وفى الداخل)

«حـرب» الإسـتنزاف ليسـت سـوى الفـترة التاليـة عـن معـارك ٦٧ إلى منتصـف عـام ١٩٧٠م، وقـد بـدأت القـوات المصريـة في إثبـات تواجدهـا والتمهيـد لمعركـة العبـور.. وهـو مـا دفـع الكاتـب إلى تسـجيلها في تلـك الروايـة. تقـع الروايـة في قسـمين: «بشـاير اليوسـفي» و«المبدلـون».

القسـم الأول، عـرض الـراوي لذكرياتـه بالجامعـة، ثـم التجنيـد، ثـم أحـداث حـرب الإسـتنزاف ثـم أحـداث أكتوبـر والعبـور.. بالإضافـة إلى وصفـة لمدينـة السـويس حيـث أحـوال المهجريـن بعـد ٦٧ وأحوالهـا صامـدة بعـد الثغـرة. كان وصـف المـكان شـائقا جذابـا، فالـراوي داخـل عربـة القطـار حيـث الطـلاب والعجـوز والجنـود.. وبائعـة اليوسـفي، ثـم ينتقـل بريشـم أسـرع إلى حـرب الإسـتنزاف والحصـار. تميـز الأسـلوب بقـدر مـن الحديـة والتوتـر بمـا يتـلاءم وتوتـر اللحظـة.

أمـا القسـم الثـاني، نـرى مـع الـراوي القاهـرة بـكل تناقضاتهـا، مـع الحلـول الفرديـة للبعـض بالسـفر للخـارج أو بالهجـرة الكاملـة.. وحتـى قريتـه قدمهـا لنـا بتناقـض وفـرة الأجهـزة العصريـة في البيـوت والعقليـة السـلفية في الـرؤوس. نعيـش مـع سـيدات القريـة أمـام الفـرن والإعـداد لإحتفالاتهـم الطقوسـية التقليديـة.. حيـث الحيـاة اليوميـة، إلا أنهـا لقطـات راصـدة تضيـف إلى البنـاء وليسـت مجانية.وفيـه نتعـرف علـى «خلـود» الحبيبـة الـتي تبـدو ممثلـة للفطريـة و يبقـى هـو المثقـف المحـارب.

ومـع القسـمين تتوحـد روابـط قـد تبـدو بعيـدة إلا أنهـا دالـة.. فالـراوي مشـترك. واليوسـفي لـه حكايـة بـين الفتيـان والفتيـات داخـل القطـار في القسـم الأول، ولليوسـفي مذاقـه الخـاص في زمـن الحصـار.. كان ممزوجـا بلسـعة مـن ملوحـة البحـر. كمـا أن وصـف الـراوي للنيـل أضـاف معنـى دلالـي وفيـه مـن

الترميز ما أضاف إلى العمل الروائي، وان غلبه التوتر فخاطب النيل قائلا: «أيها النيل المتراخي .../ لماذا أنت مطمئن؟/ أو قل.. ماذا تدبر لنا بعد؟»

وإذا كانت عربة القطار وحدت بين الناس، فالمعارك وحدت بين المقاتلين، والطقوس الحياتية وحدت بين النسوة، والنيل يجرى على أرض مصر.. إنها البطولة غير المفتعلة بطولة الحياة للجندى والمدنى المصرى معا.

«الرفاعى»..للروائي «جمال الغيطانى»(تجربة فدائى حرب الاستنزاف)

تقع الرواية في ثلاثة أقسام: «العد التنازلي» حيث زمن أحداث معارك أكتوبر٧٣. وقد قدم فيه الروائي صورة بانورامية لإنتصارات ومنجزات تلك المعارك، متضمنا الشخصية المحورية «الرفاعى»، وهو قائد مجموعات القوات الخاصة والتي عادة ما تكلف بمهام لا يعلن عنها، وقد تبقى لفترات طويلة غير معلنة، إلا أنها دوما للتمهيد أو للإعاقة.

القسم الثاني «التكوين» وهو إرتداد زمني سابق عن أكتوبر٧٣. بداية من هزيمة يونيو٦٧ ومرورا بجمع الشتات، والتدريب العنيف حيث الرفاعى يتجلى مخلصا لقضية الأرض ولمهمته، ثم العمليات البسيطة التي تم تنفيذها عبر شاطئ القناة، إلى معارك «حرب الإستنزاف» التي شهدت بطولات، ربما لم تسجل بكاملها حتى الآن. وان قدم «الغيطانى»بطله الرفاعى على قدر وافر من الحب والتقدير، وسجل له ولمجموعاته أعمالهم التي قد تبدو شبه معجزة .

القسم الثالث «النشور» حيث أستشهد الرفاعى، وتحول إلى حكاية أو أسطورة يردده البسطاء من الناس والخاصة. كيف لا يحدث ذلك وهو الذي استشهد من أجلهم. وكأنة أسطورة إيزيس وأوزوريس، فقد تولت الزوجة في هذا القسم مهمة الراوي (في أغلبه) وكذا رجاله من الضباط والجنود. فأصبح الرفاعى رمزا متجددا للبطولة .

وإن كان القسم الثالث فنيا وظف فن الحكاية الشعبية، والأسطورة، فحياة «الرفاعى» من الثراء بحيث أضافت وربما أوحت إلى الكاتب . فقد كانت شخصية الرفاعى فيها من العمق والصدق والأمانة العسكرية مع الرغبة في التضحية والفداء، ما جعلها مادة ثرية للراوى. فهو الذي اشترك في العمليات الفدائية الفلسطينية، ومع المجموعات الخاصة للقوات السورية. كما كان من النشاط والفاعلية بمصر بحيث نفذ عمليات صعبة وشبه مستحيلة في الصحارى والبحار، أعلى الجبال وفى جزر البحار. (نشر حول هذا البطل فى تحقيق صحفي، ثم كتب قصة قصيرة عنها «أجزاء من سيرة عبدالله القلعاوى».. ثم الرواية)

«أوراق مقاتل قديم» قصص للسيد نجم (تجربة بطولات صمود الجندى قبل العبور)

تضم المجموعة سبع قصص قصيرة: الطيور الفزعة- أوراق مقاتل قديم - الهدية - الصفر ليس آخر الأعداد- فريق متضمنش يتحدى- نقص عن الرقيب «عنتر»- دبلة زواج- عودة الغائب منذ فترة طويلة.. (صدرت عام١٩٨٨م)، عناية بالعالم العسكري، حيث ترصد حياة الجندى المنتظر لحظة الانطلاق أو العبور أو إعلان الحرب! ذلك الجندى يبدو إنسانا قويا صلبا يواجه الموت فى شجاعة، ولا يعلن البطولة، ولا يرى الملائكة إلى جواره تقاتل عنه، وليس فى بنيانه قوة خارقة، أو مزيج من الإلوهية مع البشرية، أو ادعاء لقوة بلا حدود، لكنه يواجه الموت.

«**الطيور الفزعة**»: تلك القصة التى تابعت المجند المستجد فى وحدته الجديدة على الجبهة، حيث رصد الفزع على العصافير فوق اسلاك الضغط العالى القادم من السد العالى الى مدينة السويس القريبة.. تعد القصة الوجه الاجتماعى لحياة الجنود تحت النيران خلال فترة حرب الاستنزاف، ولا تنتهى الا مع اعلان وقف اطلاق النيران فى عام ١٩٧٠م.

«**فريـق مـا تضمنـش يتحـدى**»: أما وقـد رصدت احـدى القصـص مرحلة مـا بعـد العبـور، لا شـك أن القـارئ سـوف ترقـد فـى ذاكرتـه صـورة ترسمهـا إحـدى القصـص لمجموعـة مـن المقاتليـن المحاصريـن بالعـدو وبالمـوت، ينظمـون دوريـا للكـرة الطائـرة الـتي لا يتقنـون فنونهـا، ويطلقـون علـى فريهـم بسـخرية عجيبـة «فريـق ماتضمنـش»، فهـم لا يضمنـون أفـوز فـى المبـاراة، ولا يضمنـون الفـوز فـى الحـرب، ولا يضمنـون الفـوز بالحيـاة فـى الصـراع مـع المـوت. لا شـيء مضمـون، والحيـاة نـوع مـن اللعـب الجـاد النبيـل فـى مواجهـة المـوت.

«**الهديـة**»: أمـا وقـد بـدأت المعـارك فـلا منـاص مـن متابعـة تلـك الاحـداث والمفارقـات، كمـا فـى تلك القصـة، حيـث وصل المصـاب الى المستشـفى الميدانى، وبلرغـم مـن كل مـا يعانيـه مـن أمـل بـدى معلقـا بلفافـة فـى يـدة وكلمـا حاولـوا أخذهـا منـه يرفض.. واخـيرا نطقها، انـها هديته الى خطيبتـه، انها قطعة ممزقة مـن علـم الاعـداء بعـد الاستيلاء علـى احـدى الحصـون علـى الضفـة الشـرقية.

«الحرب في بر مصر» للروائى «يوسف القعيد» (تجربة الحرب على فساد الداخل)

الحـرب هنـا ليسـت طلقـات الرصـاص وقذائـف المدافـع والطائـرات.. هـى صراعـات ومخالفـات وتزويـر فـى احـدى القـرى بسـطوة العمـدة، بينمـا الحرب المعروفـة فـى خلفيـة الاحـداث وبسـببها.

تـدور أحـداث «الحـرب في بـر مصـر» في قريـة مـن قـرى مصـر قبيـل حـرب ١٩٧٣، حيـث يقـوم عمـدة القريـة بسـلب ارض الخفـير الخـاص بـه بحكم قانون يلغـي أحـكام الإصـلاح الزراعي، ثم يقترح للخفير باسـتعادته لأرضه في مقابل ان يقـوم بإرسـال ابنـه «مصـري» المتفـوق في دراسـته، بدلا عـن ابن العمـدة للتجنيد.

بـرر العمـدة فعلتـه قائـلا: «ان والـدى يقـول لـو ذهـب أحد منـا إلى الجهادية لاهتزت شـجرة العائلة وتقوسـت وأقتربت من الأرض.. ولما كان عمر هذه الشجره يعـود الى زمـن المماليـك والأتـراك فـى مصـر فـلا يصبـح مـن حقـى العبـث بـه»

بينما أخبر كاتب مواليد البلد العمده بان الشاب الصغير «مصرى» ذهب الى مكتب بريد البلد يسأل عن إستمارة تطوع للجيش والالتحاق به. و علق العمده بارتياح قائلاً: «إن الخدمة فى الجيش هى الوسيلة الوحيدة للحصول على وظيفه مضمونه.. يوجد نظام فى القوات المسلحة ان من يخدم فيها يحصل على وظيفة ثابته بدرجة حكومية بمجرد انتهاء خدمته»

وتتوالى الاحداث بالتحاق «مصرى» باسم ابن العمدة بعد إستخراج أوراق رسمية تثبت الاسم الجديد لابن الفلاح «مصري» باسم ابن العمدة، ويوخذ منه كل ما قد يثبت هويته القديمة. يلتحق «مصرى» بالجيش وتبدأ الحرب الذى يستشهد بها ببسالة لكن الأوراق الرسمية تشير إلى أن ابن العمدة هو الذي أستشهد، و لذلك يضطرالعمدة إلى تقبل العزاء المصحوب بالثناء و التمجيد لبطولة ابنه! بينما الابن الحقيقي حي يرزق! يستمر ظلم العمدة بعدم تسليم الجثة إلى الوالد المكلوم، و تدفن خيوط اللعبة مع الشهيد. هكذا تبدو بطولة المصرى مع عدو الخارج والداخل.

«الرجل والموت» للروائي «محمد الراوي».. (تجربة ميتافيزيقية عن الموت والحرب)

ترى كيف يكون الحال عندما نفقد حريتنا؟ يقول الروائي «محمد الراوي» إنه الموت.. الحرية أو الموت، بل فقد الحرية يساوى الموت. خلال الصفحات الأولى، حيث الحصار والهلاك، يقول الراوي وهو يمر بين الأبنية المحطمة، والجثث المرئية وغير المرئية.. بين روائح العفن والمخلفات والدم المتخثر.. أما وقد أخذت الراوي سنة من النوم، فسمع من همس في أذنه: «قم..قم.. أيها الرجل وألا قضى عليك الموت، وأنت في مكانك، وأظن أنى أكلم نفسي، وأهمس حيث لا يسمعني أحد ومرة ثانية أتاني الصوت كالهسيس في أذني صوت غريب على.. لم لا تتحرك أبق في مكانك، ولا تقم أبدا حتى يأخذك الموت»

تعـد تلـك الروايـة «النوفيـلا» مـن الأعمـال التجريبيـة، ومـع خصوصيـة التجربـة الـتي غالبـا مـا تكـون الكتابـة حولهـا.. واقعيـة، ألا وهـى التجربـة الحربيـة، حيـث الحصـار أو قيـد الحريـة. إلا أن الروائـي إسـتخدم التوثيـق أو التسـجيل الفـني، وهـو القائـم علـى الرصـد الفـني. لكنـه – أي الروائـي – شـاء أن يسـتخدم تقنيـات السـينما والفنـون الأخـرى، بـلا إفتعـال.. وهـو مـا أضـاف إلى العمـل أهميـة خاصـة.

أمـا التنـاول الخـاص لمعنـى الحريـة، فهـو ملمـح أكيـد وهـام.. حيـث فقـد «الحريـة» مسـاويا «للمـوت» بالمعنـى المطلـق.. المـوت الفزيقـى، والميتافيزيقـي.

«الوسـام».. للكاتـب «عـادل النادي»..(تجربـة نـماذج بطوليـة)

هـو متواليـة قصصيـة للكاتـب، عالجـت التجربـة الحربيـة، وقـد كتـب في زمـن الحـرب، بـل في زمـن الواقائـع، يقول في خاتمـة كتابه: «أما هـذه الخاتمة فوجـدت نفسـي أجلـس دون أن أشـعر فـوق حطام مـن حطامات معـدات العدو، فـوق دبابـة أم٦٠ أمريكيـة الصنـع، وهـى أحدث مـا أنتجت المصانـع الأمريكية. لا بـل ليسـت دبابـة، فأنـا آسـف يـا عزيـزي، فأنـا جالـس فـوق أطـلال دبابة»

ولقـد قـدم فصـول كتابـه متفرقـة، كل فصـل كتبهـا في مكان محـدد ومختلف عمـا سـبقه.. وفـى المجمـوع تشـكل الأماكـن والفصـول التطـور الزمـني والواقعي للأحـداث.. أحـداث التجربـة الحربيـة الفعليـة في ميـدان المعـارك. هنـا التجربة مـن الداخـل، تفاصيـل مكانيـة مغايـرة ودلالات مختلفة.

فقـد كتـب وسـط حطـام طائـرة فانتـوم، وأخـرى داخـل حصـن مـن حصـون بارليـف الحصينـة الـتي قالـوا عنهـا أنهـا صامـدة أمـام كل التسـليح إلا القنبلـة الذريـة، وثالـث أمـام علـم مصـر مرفرفـا فـوق أرض سـيناء، وأخـرى فـوق حطام عربـة نصـف جنزيـر، وأخـرى فـوق حطـام دبابـة «باتـون» و«سـانتريون... وغيرهمـا. ثـم كانـت وقفـة الكاتـب فـوق أطـلال بـرج إسـتطلاع إسـرائيلي.

المتابع لتلك الوقفات، والذي عاش تجربة العبور لحظة بلحظة يتأكد أنه مع بداية الصفحة الأولى كانت بداية المعارك، ومع الخاتمة كانت النهاية.. والتي تحمل دلالة غير خفية، وربما مع قراءاتها بعد كل تلك السنوات تتعمق الدلالة وتتأكد.

يبدو الكاتب وكأنه في جلسة سمر يحكي ويقص.. المفردات العربية البسيطة، الحكاية الشيقة التي اكتسبت عنصر التشويق من الأحداث المثيرة التي تتناولها، وعن عمد من الكاتب، ما بين توظيف الأسلوب الاستنكاري والتقريري، مع الأسئلة والإجابات غير المتوقعة، مع الحوار والسرد، حتى بدت الاعمال متوالية قصصية حول أشكال البطولة.

«دوى الصمت» للروائي «علاء مصطفى»(تجربة الأسر)

يبدو عنوان تلك الرواية دال ويعد نافذة مضيئة عما تتضمنه من أحداث وشخصيات ورؤى، تلك التى يتبناها الكاتب من خلال شخوص الرواية. لعل ذاك التناقض بين كلمتي «دوى» و«الصمت» لا يمكن أن يكون إلا عندما يكون هذا الصمت ليس الموت التقليدي، ربما صمت «الشهيد»، ولعله «الشهيد الأسير»..الذي يبقى لفترات طويلة وعلى مدى التاريخ مدويا.

قد يصل الإستشهاد إلى درجة الرجاء في تحققه في زمن الحروب القذرة، وخصوصا مع تجربة الأسر، وهو بالضبط ما التقطه الكاتب مع إحدى الشخصيات المصابة داخل إحدى المستشفيات الإسرائيلية: «جرى إنتخاب عدد غير قليل من الأسرى وضمهم بعنبر نظيف مريح، حيث العناية والرعاية الطبية الفائقتين، ولأن الكرم من جهة العدو نذير سوء، دخلت ممرضتان إسرائيليتان إلى العنبر وإصطحبتا أسيرا مصابا في ساقه، وعلى منضدة العمليات وقبل أن يغيب وعيه أثر حقنة البنج المغروزة في عروقه، تلاعبت ابتسامة رقيقة على شفتي الطبيب وقال:

«إن أحـد أبنائنـا أصيبـت عينـاه أثنـاء الحـرب... وحتـى يبصـر سـأحتاج إلى أخـذ عينيـك!»

وكانت إبتسامة الطبيب آخر ما وقع عليه بصر الأسير إلى الأبد!»

قليلـة هـي الروايـات العربيـة الـتي تعـالج تجربـة الأسـر في التجربـة الحربيـة، ولـولا تلـك الروايـة «دوى الصمـت»، و«الأسـرى يقيمـون المتاريـس».. لخلـت المكتبـة العربيـة مـن تسـجيل تلـك التجربـة، علـى الأقـل في روايـة التجربـة الحربيـة المصريـة.

حكايـات الغريـب» قصـص للقـاص «جمـال الغيطانـى» (تجربـة ترميـز البطولـة)

قصـة «حكايـات الغريـب» واحـدة مـن سـت قصـص قصـيرة بالمجموعـة التـى تحمـل الاسـم نفسـه. تتنـاول القصـة حيـاة هـذا العامـل فـى احـدى الصحـف القوميـة، وعليـه الانتقـال مـع سيارة توزيـع الصحـق النتابعـة للـدار الى أماكـن مختلفـة مـن البـلاد.. ومواطننـا هنـا كان فـى مأموريـة لتسـليم الصحـف بمدينـة بورسعيد.لم تكـن حـرب ٧٣ ومـا تحقـق وقتهـا مـن انتصـار، إلا نتيجـة لحظـات متراكمـة مـن الهزائـم، حـاول الفيلـم تجسـيدها في هزائـم اجتماعيـة ونفسـية في الأسـاس، قبـل أن تتحـول إلى معركـة كبـيرة في الصحـراء. وهـي محاولـة لتجسـيد حـال المواطـن المصـري الـذي ظـن الجميـع أنـه تناسـي أرضـه المسـلوبة، وبصيغـة بلاغيـة، شـرفه الضائـع.

إن فقـد هـذا المواطـن البسـيط المجهـول جعلـه شـخصية هامـة ومحوريـة عنـد الجميـع : المسـؤلون، أهـالى المدينـة، الزمـلاء، بـل أصبـح خـبر وإهتمـام اعلامـى لافـت.. وهـو لم يكـن كذلـك مـع حضـوره الجسـدى! ومـع تلـك الحالـة مـن الغيـاب التـى تعـبر عـن غيـاب البسـطاء مـن المصريـين، لا يبـدو علـى صفـة واحـدة ولا خصلـة واحـدة فقـد تبـدى نموذجـا لافتـا: يذكرونـه بصفـات الشـجاعة والاخـلاص والمـرؤة، بـل والتضحيـة والفـداء.. فـى المقابـل

يبدو عند القارئ الحصيف معبرا عن حالة وصفات الشعب المصرى كله خلال تلك الفترة.. (قبل معارك اكتوبر٧٣)

تتواصل رحلات البحث، والسؤال عن صاحب الصورة «عبد الرحمن»، بينما يشتركون فى الوصف يختلفون فى اللقب أو الاسم (محمد- كمال- زخارى - خلف) المُلقب دوماً بالـ (الغريب).. وتبدأ الحكايات حوله بداية من كونه شجاع وبذل الجهد فى نقل المصابين والشهداء، بل وسحب السلاح وقاتل.. وبلغ الأمر بجعله أسطورة بطولية!

«يوميات على جدار الصمت» للقاص «محمد سالم»(تجربة معركة العبور)

وهى القصة التى سميت بها المجموعة التى نشرت فى عام١٩٨٧م عن سلسلة «أدب الحرب»، ترجع أهميتها إلى كونها رصدت اللحظات والأيام الأولى من بداية معركة العبور، ومن وجهة نظر المعتدى الاسرائيلى.. خلال أيام ٣، ٤، ٥، ٦، ٧ أكتوبر٧٣.. فكل شىء بارد فى سيناء، وفجأة جاء يوم الغفران، وبينما هو فى إنتظار برقية من زوجته (يائيل) لتخبره بميلاد إبنهما الأول.. المصريون يبدون له من بين فوهات حصن «بارليف» وهم يتحركون فى وداعة كعادته، كأنهم يسعون دوما لتشييد المقابر الضخمة. وكانت الأحاديث لمواجهة تلك الرتابة:

«الجنود الذين يقدرون على القتل يا مردخاى من الممكن أيضا أن يقتلوا»

«ذلك قدرنا يا يورى»

«عزيزى يورى.. انك لكى تعيش سعيدا أمنا يجب على الدوام أن تكون موهوبا قادرا»

أما فى اليوم ٤ اكتوبر، فقد نشطت وحدة المراقبة فى القطاع الاوسط المواجه لمدينة الاسماعيلية وقد أبلغت عن نشاط غير عادى على الضفة

المصريـة.. اتصـالات تليفونيـة بالقيـادة.. وحـدات المراقبـة علـى طـول الجبهـة صـارت جاحظـة العيـون.. نشـطت المطـارات.. ارتفعـت الخرائـط علـى الجدران وهمـس يـورى: «هـل حـان الوقـت لتسـليمى الى زوجتى وطفلى داخـل صندوق»

وفى يوم ٥ أكتوبر بدأ الإستعداد للإحتفال بيوم الغفران. نص الاشارة:

«... جنـود الملاحظـة المصريـون الذيـن لا هـم لهـم ولا شـاغل الا مراقبتنـا، وحسـاب خطواتنـا وعـد أنفسـنا انسـحبوا مـن مواقعهـم الاماميـة وتركـوا خلفهم سـتارا مـن الصمـت المريـب»

وفـى يـوم ٦ أكتوبـر وصلـت الرسـالة: (يائيـل أنجبـت طفلـة جميلـة) وفـى ٦أكتوبـر بـدأ الاسـتعداد للغـداء، وانتظـار بطاقـات العيـد مـن الاهـالى فـى كافة المـدن والمسـتعمرات.. اليـوم هو السـبت وحـرام عليهم العمـل الا بأوامر الحاخام الاكـبر.. فجـأة وصـل تقريـر جديـد .. «قابلنـاه بأسـتهانة، فقـد تعودنـا علـى تلـك التقاريـر التـى لا تعـرف إلا التهويـل.. «إنهـم يعـبرون ويهبطـون كالجـان بصواريـخ مضـادة للدبابـات علـى ضفتنـا».. مزيـد مـن القـوارب تعـبر.. وتعـبر.. الجنـود المصريـون يفترشـون حولنـا.. انهـم يرفعـون علمهـم علـى ضفتنـا.

وفـى يـوم ٧اكتوبـر تعـرض الحصـن للهجـوم مـرة واحـدة، عـبر أجهـزة الإتصـالات وصلـت الأنبـاء مرتعشـة عـن إصابـة أحـد ضبـاط القيـادة. صـرخ يـورى: «حولنـا جهنـم دمـوى.. هـل سـتتركونا هكـذا»

«السمان يهاجر شرقا» للروائى «السيد نجم»(تجربة الحصار والأحتفاظ بالأرض)

تبـدأ الروايـة: «التففنـا حـول الترانزيسـتور لسـماع بيـان المفتـى، علـت صرخـة بـين أرجـاء الوحـدة «المستشـفى الجراحـي تحـت الأرض رقـم٥».. غـدا الأول مـن شـهر رمضـان، تبادلنـا التهنئـة، داعـين الله بصـدق: «ربنـا لا يعـوده علينـا ونحـن هنـا»

وتنتهى الرواية : «اليوم سوف ينتهي الحصار إعتبارا من ساعة حضورهم»..إنشغل الجندي في حذائه، أخرج مسمارا منها بأسنانه ..حفر هذه الجملة : »بعد مضى ١٣٤ يوما انتهى الحصار في كبريت....الضفة الشرقية لقناة السويس».. في الأول من مارس ١٩٧٤م.»

بتلك الفقرتين تبدأ وتنتهى الرواية. تلك التي بدأت مع أيام قليلة قبل السادس من أكتوبر ١٩٧٣حتى انقضاء بضعة شهور قليلة لا أكثر.

تعبر الرواية عن «تجربة الحصار»، ذاك الذي كان وعبر عنه الجنود حول حالتهم النفسية طوال السنوات السابقة عن بداية المعارك. أو الحصار الفعلي، بعدما إنتقل جنود كتيبة المشاة وعبروا منطقة نقطة دشمة كبريت الحصينة على الضفة الشرقية للقناة. تقع الرواية في عدة فصول: «العصفور لا يغرد ولا يبكى»، «الطيور الفزعة»، «السمان يهاجر مرتين»، «الثيران تلتهم التورتة»، «الجمل يجتر ما في جوفه»، «ذكر النحل يموت في أنثاه»، «الطيور لا تأكل عشها»...

وتحت دلالة تلك العناوين، عايش القارئ تفاصيل التجربة.. الملل والضيق النفسي الذي يعانيه الجنود.. بداية رفع درجة الإستعداد مع إستدعاء الجنود الأجازات.. التأهب لإستقبال الأطباء المدنيين المكلفين للعمل بالوحدات الطبية العسكرية، ومنه المستشفى الخامس (وهى أول وحدة طبية عسكرية بعد خط القناة).. مفارقات الحياة اليومية للجنود حتى بداية المعارك على غير توقع من الجميع.. لم يشعر أفراد الوحدة الطبية بالمعارك إلا بعد إنقضاء ثلاثة أيام وحيث بدأت معارك الدبابات.. مع كل مصاب خطوة من خطوات المعارك على أرض سيناء.

أما وقد التحق «طارق» الطبيب المجند على إحدى وحدات المشاة والتي لم تعبر خلال الأيام الأولى من بداية المعارك، أصبح أحد أفرادها.. فور التحاقه صدرت الأوامر بالعبور.. تم العبور وبدأت المعركة بين الجنود المصرية وأفراد حصن كبريت الإسرائيلي.. نجح الجنود في السيطرة على

الحصـن وأسـر الجنـود الإسـرائيلي.. وبـدأ الحصـار أيضـا، فقـد أحاطـت القـوات الإسـرائيلية بحـدود الحصـن والمنطقـة القريبـة منـه، لانتهـاز أقـرب الفـرص للانفصـاد علـى المصريـين، واسـترداد الحصـن. وبـدأت مفارقـات وبطـولات الحصـار.. إنـه حصـار قاتـل، حيـث دانـات المدافـع والغـارات الجويـة، والهجمـات بالأسـلحة الخفيفـة ليـلا. كمـا أنـه الحصـار الـذي بـلا مـاء ولا طعـام.. ومـع ذلـك نجـح الجنـدي محمـود مـن إبتـكار جهـاز تحليـل ميـاه القنـاة المالحـة، ونجـح الضابـط «أسـامة» أو «الذئـب» في الهجـوم علـى أفـراد نقـاط المراقبـة الإسـرائيلي، والاسـتيلاء علـى المـواد الغذائيـة بموقعهـم، ونجـح الضابـط «سـامح» في نقـل المصابـين ليـلا إلى أقـرب وحـدة عسـكرية مصريـة وهـى مهمـة قاتلـة وخطـرة.

نجـح الـكل في الصمـود وتحـدى الحصـار.. علـى الرغـم مـن المعـارك المتجـددة يوميـا، وعلـى الرغـم مـن استشـهاد واصابـة العديـد مـن الجنـود، لعـل لحظـات إستشـهاد العقيـد «إبراهيـم عبـد التـواب» مـن أكثـر اللحظـات تأثـيرا علـى القـاري.. فقـد صلـى ركعتـين في إحـدى المواقـع، وأشـار إلى موقـع سـجوده وقـال لأحـد أفـراد وحدتـه: إن استشـهدت أدفـن هنـا».. وقـد كـان.. وبقـى صمـود الجنـود بطولـة حقيقيـة.

«أنشودة الأيام الآتية» للروائى «محمد عبدالله الهادى» (تجربة سرد ما بعد الحرب)

تقـع الروايـة فـى أثنـى عشـر فصـلا، لعـل اللافـت فـى تلـك الروايـة أن الكاتـب تنـاول شـخصيات ودلالات الحـرب بعيـدا عـن أحـداث أرض المعركـة والمعـارك. فقـد تذكـر الـراوى طفولتـه مـع صديقـه بالمدرسـة الابتدائيـة، فلمـا مـرت الأيـام وأستشـهد الصديـق، تذكـره فـى صـورة ابنـه التلميـذ الجديـد فـى المدرسـة التـى يعمـل فيهـا الـراوى (صديـق الأب) مدرسـا.. وبالفعـل هـو ابـن صديقـه الحميـم.. هـو الوليـد الـذى ولـد فـى يـوم أستشـهاد الأب (صديـق الـراوى).. فـكان إمتـداد الايـام لصديقـه معـه.. لم ينتظـر طويـلا، يصاحـب

التلميذ ويرعاه، وينتهي الفصل الأخير بزيارة «جزيرة مطاوع» حيث أستشهد الأب (الصديق).

يلاحظ القارئ أن بيئة المعارك أو الجبهة لم يتابعها الكاتب إلا فى الفصل الثامن، وهو بعنوان «الميلاد» حيث تلد زوجة صديقه «النجار» ولدها «فتحى» يوم إستشهاده.. وهى دلالة فنية طرحها الكاتب ببساطة وبفنية غير مفتعلة أو مقحمة.

يبدو الكاتب حرص على مزج الحرب على الحدود مع فكرة الحرب الداخلية، وهو ما تناوله من خلال شخصية صهره «المعلم أبوالفتوح» الذى تمثله من رجال الأعمال المستفدين مما كان وتم خلال فترة الانفتاح الاقتصادى بعد معركة العبور فى اكتوبر ٧٣، حيث رفض الراوى أن يتعامل مع صهره، ما يعنى رفضه للواقع الإقتصادى الجديد. تعد الرواية مما يوصف برواية الشخصيات، فقد توقف الكاتب مع شخصيات متعددة، ربما تصل الى ٣٢شخصية، كل شخصية منهم لها دورها وصورتها الاجتماعية.. بداية من البسطاء حتى الكبار أو المسئولين والأثرياء: المعلم أبوالفتوح- أحمد أبوعيسى- إبراهيم النجار- فتحى إبراهيم النجار- سناء ابوالفتوح- فوزية.. وغيرهم ممن يشكلون ويشاركون فى معارك الجبهة الداخلية أثناء فترة الحرب (يونيو٦٧ حتى ما بعد أكتوبر٧٣).. هنا بطولة خاصة لا تغفل.

«مراعى القتل» للروائى «فتحى امبابى» (تجربة عودة الجندى من المعركة)

كانوا ثلاثة أصدقاء، جمعتهم «قروانة» الوحدة العسكرية، ومعارك الاستنزاف(ما بين عامى٦٧حتى١٩٧٠)، ثم معارك أكتوبر٧٣. ضاقت بهم سبل العيش (كما أغلب شباب مصر في تلك الفترة) بعد تسريحهم من الجيش. سافروا إلى «ليبيا» حيث الأمل في مصدر رزق جديد في مكان

جديـد. فكانـت الروايـة التـى تلخـص شـكوى الاسـتلاب والتهديـد بالمـوت حتـى مـن أبسـط حقـوق الإنسـان في لقمـة تسـد الرمـق وفـى صباح هـادئ جديد.

..عـالج الروائـي فكرتـه مـن خـلال التـوازي والإسـترجاع، فلـم تكـن الحيـاة قبـل التسـريح مـن الجيـش أقـل أو أكثر مـن الحياة بعـده..في كل منهمـا التهديد بقنـص الحيـاة، ربمـا يبـدو ذلـك مـبررا وواضحـا لمثـل هـؤلاء المعرضـون لغـدر عـدو لا يبعـد عـن وحدتهـم العسـكرية سـوى عـرض المجـرى المائـي لقنـاة السـويس. غـير المـبرر هـو أن يبقـى الإحسـاس نفسـه، علـى الرغـم مـن غـور ملاجـئ الأعـداء إلى أغـوار سـيناء البعيـدة (قبـل التحريـر الكامـل لسـيناء).

إسـتعان الروائـي بحيلـة فنيـة أضافـت بعـدا جماليـا إلى سـخونة الموضـوع وأهميتـه. إسـتعان بأحـد النصـوص الشـفهية (المعاصـرة) لتغريبـة بنـى هـلال الشـهيرة. وهـذا الاسـتحضار التراثـي أضـاف إلى الحالـة بعـدا فكريـا يسـتثير العقـل للتأمـل أيضـا، قـال: «كنـت في جلـدي زي بعـدى عـن ملاحـي/ وأوثـق صدهـم قلـبي جراحـي/ فسـرت مـن الهـوى قـدرا وصـاح/ ألا يـا ليـل .. هـل لـك مـن صبـاح..؟»

في البدايـة نلحـظ تكـرار الجملة: »الزمـن قطـر غشـيم لا يرجـع للـوراء». وهـى إسـقاطه لمعنـى مـا يريـد الروائـي تبليغـه للقـارئ، مـع التكـرار نتعاطـف ونسـأل: هـل يعنـى القطـار حقـا أم الزمـن؟؟.

أمـا وقـد بـدأت الرحلـة الغامضـة، فـلا حيلـة إلا اعتـلاء الذكـرى والتذكـر. لم يكـن «التذكـر» عنـا حيلـة فنيـة مقحمـة ومفتعلـة، كان ضـرورة فنية..أمـا أن يقـف «عبـدالله» ورفقائـه لسـؤال المرشـد مـن قبيلـة «أولاد علـى» عـن طريـق اخـتراق السـلك أو الحـدود الرسميـة بـين ليبيـا ومصـر، فيقـول لهـم بتعـال وغـرور غـير مـبرر: «كنـك يـا تيـس يـا عـرس.. راع تنطـق بكلمـة ولا نضربـك بالنـار، عهـد الله بنـترك فيـك هـون للديابـة»

وفـى لحظـات الغـروب تـزداد مشـاعر الاغـتراب، فليـس في لـون الميـاه الزرقـاء البعيـدة جمـال، ولا في غـروب الشـمس وشـروقها علـى أرض الأفـق

والصحراء. ويتذكر الجميع أحداث مظاهرات الجامعة بعد النكسة حيث جندي الأمن المركزي يقاتل الطلبة بكل جدية ونشاط!. ولا يبقى أمام القارئ سوى الربط الخفي/ الظاهر بين قهر ومأساة المقاتلة على خط النار مع العدو الإسرائيلي، وعدو آخر على خط نار آخر.

ومثلما كانت مشاهد القتلى والجرحى على أرض المعارك هناك، كانت المشاهد نفسها على أرض أخرى وعدو آخر..لكنه هذه المرة ليس إسرائيليا.. وهو ما يعد تفسيرا ومبررا للعنوان الأصلي للرواية «مراعى القتل».

كتب في ص٤٧: «إستيقظوا واحدا بعد الآخر، وأمامهم كانت تسبح سبع جثث من المتسللين المصريين الذين جرفتهم سيول الأمس بينما كانوا عائدين، تسد مدخل مخر السيل».

تتواصل فصول الرواية..ما بين إعادة حوارات وأحداث ما كان بعد معركة ٦٧ وحتى ٧٣، وما هو كائن وممارس فعليا في طريقهم البرى إلى أعماق ليبيا.

وصلوا حدود طبرق، ما زال الغموض يكتنف المصير، فيأتي الليل.. الليل الحقيقي ويأتي معه الليل النفسي المليء بالخوف من صباح جديد، فيقول أحدهم: «ألا يا ليل ..هل لك من صباح؟»

وتعد الرواية من الروايات القليلة التى تناولت موضوع مصير الجندي العائد من الحرب، بالإضافة إلى كونها كتبت بقلم أحد المحاربين، كما أنها كتبت بعد فترة مناسبة من انتهاء المعارك، وهو ما تجلى في وضوح البعد الجمالي الفنى، الذي انعكس وعبر عن نفسه بتلك التقنيات الفنية المستخدمة، وبما يمكن أن نطلق عليه «النفس الهادئ» في التناول والصياغة، وهو ما أكسبها مذاقا خاصا.

«خوذه ونورس واحد» قصص ل«سمير الفيل» (تجارب ما بعد المعركة)

قسم القاص قصص المجموعة تحت عنوانين منفصلين.. الأول «تنويعات عسكرية» يتضمن القصص: «إجراءات– حبهان على مستكة – صورته – دفعة– عزومة – عريس السرية – لدغة عقرب – بلديات – جندي مؤهلات – مسعد بنزين – خلع الجذور – خوذة ونورس وحيد».. أما القسم الآخر قصص تقليدية قصيرة. سجل القاص: (قصص كتبت من سنة ١٩٧٤ إلى سنة ١٩٨٥م)

* **قصة «جلسة إجراءات»**.. تعالج تجربة رفيق الكاتب الذي شارك فى حرب أكتوبر، بينما يشكو من إصابة أثناء المعارك (يعرج) وان كان فى البداية لم يكن ممن يصلحون للخدمة العسكرية! وطالت إجراءات الرفت من الخدمة، فلما جاء يوم خروجه، احتفل به زملائه أيما احتفال.

* **قصة «عزومة»**.. بعد أيام المعارك، استمرت الجنود على حالة التدريب ومعايشة أجواء الحرب.. خلال مناورة تدريبية، تقرر استخدام الوجبات الجافة طوال أيام المناورة.. لكن الجنود نجحوا فى إقامة (عزومة) على وجبة ساخنة طازجة.. بعيدا عن عين الصول.

* **قصة «لدغة عقرب»**.. تبدأ أحداث القصة بعد أن انتهت المعارك. كان ضمن وحدته فى مهمة تدريب.. وما أن هدأ التدريب للراحة، نتبه على مشهد هيكل الدبابة الإسرائيلية المحطمة هناك. ذهب واقترب بشدة منها، زاد فضوله واعتلى الدبابة، وما أن اطل من البرج – برج الدبابة – لدغه عقرب. صرخ وصاح بأعلى صوته كي ينقذونه.. استقبل الصول الحالة والخبر باعتياد من مارس الحرب وكم من العقارب لدغت غيره.

التفوا حول زميلهم، أحدهم مص الدم الفاسد بفمه، وأحاطوا مكان اللدغة بأربطة شديدة، ثم شرب الشاي لساخن وارتاح حتى شفى.. لم

يبق إلا التحذير من العقرب.. في دبابة الأعداء!

* قصة «**خلع الجذور**».. قد يفعل الزمان أفاعيله.. ومن ضمنها أن ننسى بعض الأحداث والأخبار. لكن في تلك القصة نسى فيها أحدهم أشياء صديقه الشهيد.. وخرج للبحث عنها كي يعيدها الى أسرته وذويه.. سعى بكل إخلاص أن يجدها، ولم يجدها.

* قصة «**خوذة.. ونورس وحيد**».. فور انتهاء المعارك، وبدأت دورة جديدة للحياة العسكرية.. حدث أن عاد الجندي إلى موقع تذكره، وتأمل كل شبر فيه.. حتى مكان ما قبر فيه أحد الشهداء رفقاء المعارك.. لم يجد ما يعلق به، انشغل أكثر بذلك النورس الوحيد (بينما طائر النورس دائما في أسراب)!

بمطالعة قص الحروب يمكن التأكيد على عدد من الحقائق:

: إن التجربة الحربية لها تأثيرها الفاعل والدائم على جنس السرد النثرى في مصر.

: لا إنفصال ل «التجربة الحربية» سواء كانت في مصر أو في البلدان العربية.

: لم تكن زاوية الرصد للكاتب مكتفية بالجانب المباشر، بل ما تتسم بالفنية والتقنية العالية.

: بروز تقنية جديدة لم تستخدم من قبل في الرواية العربية.. وهي التوثيق والتسجيل.

ولا يبقى إلا التأكيد على أن التجربة الحربية إرتبطت بالحياة على الأرض المصرية، بالذل والعطاء من أبنائها، وتحت رايتها سواء من مجندين أو حتى المدنيين لخدمتهم.



* المصادر والمراجع (الترتيب حسب سنة النشر)

- الحرب في القصة العراقية – عمر محمد الطالب –دار الحرية للطباعة –بغداد ١٩٨٣م
- الخيال.. مفهوماته ووظائفه – عاطف جودة نصر –هيئة الكتاب المصرية ١٩٨٤ م
- فقه السنة – السيد سابق – دار الريان للتراث ١٩٨٧م
- تكنولوجيا السلوك الإنساني– ب.ف.سكينر–ترجمة: وجيه سمعان– سلسلة١٠٠٠ كتاب– هيئة الكتاب عام ١٩٨٨م.
- الإنسان بين الجوهر والمظهر–اريك فروم–ت: سعد زهران «عالم المعرفة–الكويت» ١٩٩٤
- الاتجاه القومي في الرواية – مصطفى عبد الغنى–عالم المعرفة ١٩٩٤م
- الحرب: الفكرة–التجربة–الإبداع – السيد نجم – هيئة الكتاب ١٩٩٥ م
- سيكولوجية التطرف والإرهاب–عزت سيد إسماعيل– حوليات آداب الكويت ١٩٩٨م
- الكتابة والحرية –د.فوزي فهمي– هيئة الكتاب ١٩٩٩م.
- عن الحرية –جون ستيوارت مل– ترجمة»عبد الكريم أحمد«– هيئة الكتاب ٢٠٠٠م.
- الإبداع والحرية –رمضان بسطويسى –هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٢م
- المقاومة والحرب فى الرواية العربية– السيد نجم– دار التعاون (جريدة الجمهورية)–عام٢٠٠٦م
- أدب المقاومة.. قضايا ومفاهيم– السيد نجم– دار الهلال ٢٠١٣م

الدوريات

١. مجلة الفكر – عدد خاص – تونس – العدد٣ ديسمبر ١٩٧٧م

٢. مجلة عالم الفكر– الكويت – العدد٤ (المجلد العاشر) ١٩٨٠م

٣. مجلة الثقافة الأجنبية – عددان خاصان – العراق ١٩٨٥م

٤. مجلة عالم الفكر – الكويت – المجلد الرابع والعشرون – يناير١٩٩٦م

الجيش فى السينما المصرية

ثلاث رؤى متقاربة

محمود قاسم

حين تنتصر الجيوش تزدهر الشعوب:

حدث هذا منذ نصف قرن بالكامل فى عام ١٩٦٣ فى احدى القصص المرسومة التى كانت تنشر سلسلة فى مجلة « سمير « أن حاول مخبر صحفى معرفة سر «الشبح» الذى يعيش فى الأدغال وفكر الشبح ان يأمن فضول هذا الشاب فأسند اليه مهمة، وقام بتجنيده، ونجح فى أن يجعله واحدا منه ..

نعم إنه التجنيد، الذى يجعل المرء يشعر بالولاء الشديد لهذه الأيام التى قضاها فى الجيش، أو كما يسمى المجندون تلك التجربة أنها .. «القروانة» التى جمعت امجندين معا. فى السراء والضراء .. لم يحس بهذه المتعة سوى من قضى بالجيش فترة أبرز ما يقال أنها الأنتماء ..

الذين عرفوا أهميةالتجنيد، هم الذين يستعيدون أيامهم هناك حينما يشاهدون الافلام التى تتحدث عن الحياة العسكرية، وقد بدأذلك فى مسند مختصر، لكنه يحمل المزيد من المعانى فى فيلم . سواق الأتوبيس . لعاطف الطيب عام ١٩٨٤، حين التقى أصدقاء «القراونة» بعد نهاية الحياة العسكرية بسنوات قليلة فى منطقة الهرم على خلفية موسيقية عسكرية

قبل ثورة يوليو١٩٥٢، لم تكن هناك أفلام ذات أهمية، تتكلم عن الحياة العسكرية، أو عن رجال القوات المسلحة هناك أفلام مثل قلبى وسيفى، و «تحت السلاح» و «فتاة من فلسطين» لكن ما ان قامت الثورة، حتى امتلأت الشاشات بقصص البطولات لرجال القوات المسلحة، فى البداية شاهدنا العديد من الأفلام حول حرب فلسطين، وفى عام ١٩٥٥، رأينا قصة الثورة كاملة، وبشل متخيل فى فيلم «الله معنا» لأحمد بدر خان، وهو ايضا فيلم رأينا فيه كيف عانى رجال الجيش المصرى ما حدث فى مايو ١٩٤٨ على جبهة القتال بين الجيش المصرى وجيش الصهاينة ..

فى هذه الأفلام بدأت السينما تبرر الهزيمة التى لحقت بالجيوش العربية، خاصة فى مصر، وذلك من خلال الحديث حول الاسلحة الفاسدة

هـذه القضيـة، كمـا قبـل، كانـت سـببا للهزيمة، على المستوى الحربـى وكانت مـن الأسـباب المباشـرة لقيـام ثـورة يوليـو، بإعتبـار أن جمـال عبـد العناصـر، ورفاقـه كانـوا مـن المشـاركين فـى حـرب فلسـطين، لذابـدأت أحـداث مايـو ١٩٤٨ حدثـا رئيسـيا فـى كافـة الأفـلام التـى تناولـت قيـام الثـورة، ومـن هـذه الأفـلام .. «أرض الأبطـال» نيـازى مصطفـى ١٩٥٣، و «الله معانـا» لبدرخـان ١٩٥٥ و «رد قلبـى» لعـز الديـن ذو الفقـار ١٩٥٨ و «نهـر الحـب للمخـرج نفسـه عـام ١٩٦٠» و «طريـق الابطـال» «لمحمـود اسماعيل»١٩٦٠ و «مـن أحـب» إخراج ماجـدة عـام ١٩٦٥، و «الأقـدار الداميـة» لخـيرى بشـارة عـام ١٩٨١ بالاضافـة إلى أفـلام عديـدة عـن فلسـطين مثـل «أرض السـلام» لكمـال الشـيخ ١٩٥٧

كل هـذه الافـلام دارت أحداثهـا فـى الجيـش المصرى، وحاولـت تنزيـه هذا الجيـش مـن الهزيمـة فـى حـرب فلسـطين . ففيلـم «أرض الأبطـال» تم إنتاجـه فـور قيـام الثـورة، وتقـوم فكرتـه الأساسـية حـول رجـل مرمـوق قـام بتوريـد الأسـلحة الفاسـدة إلى الجيـش، وكان الثمـن أن ابنـه قـد أصيـب فـى الحـرب مـن الأسـلحة نفسـها . وهـذه الفكـرة سـوف تتكـرر بعـد ذلـك فـى بقيـة الأفـلام المذكـورة، فالضابـط الشـاب، (جمـال فـارس) مؤمـن بقضية وطنيـة، بينما الأب «عبـاس فـارس» رجـل سياسـى وفاسـه، وفـى مدينـة غـزة يلتقـى الابـن المجنـد مـع فتـاة فلسـطينية «كـوك» ويتحابـان، وفـى الوقـت نفسـه يقـوم الأب بتوريـد الأسـلحة الفاسـدة الى الجيـش، تكـون سـببا فـى إصابـة الابـن الـذى يفقـد بصـره، وتقـف الفتـاة الفلسـطينية إلى جـوار جديهـا، ويعلـم الأب بمـا فعلتـه الأسـلحة الفاسـدة ويصـاب بالحـزن، ويقـرر الأنتحـار ى انتقامـا لمـا ارتكبـه

الفيلـم هنـا يـبرئ، ويـبرر هزيمـة ١٩٤٨ التـى بهـا الجيـش، وليسـت هنـاك اشـارة الى أى نـوع مـن فسـاد الأسحلة قـد حـدث، وإن كان التاكيـد أن السـلاح بـدلا مـن أن ينطلـق فـى صـدور العـدو فانـه ينفجـر فـى حاملـه، وسـبب العمـى لهـذا المحـارب، مثلمـا سـوف يبـتر يـد الضابـط فـى فيلـم الله معنـا ويقتـل «خالـد» فـى شـهر الحـب ..

نعم، لقد فقد الضابط ذراعه أثناء الحرب، بسبب السلاح الفاسد فى «الله معنا»، هذا الضابط أحمد يعرف أن عمه الباشا هو الذى بتوريد السلاح إلى الجيش، لذا، فإنه يطلب من ابنة العم نادية أن تبحث فى أوراق أبيها عن دليل يؤكد قساوة هذا الضابط هو واحد من الضباط الأحرار الذين يصنعون الثورة، وقد تكرر الموضوع نفسه فى فيلم «رد قلبى» الذى تدور أحداثه بين عامى ١٩٣٦ ،١٩٥٢، وقد تم تصويره فى ثكنات الجيش بين عدة مواقع، حول الضابط «على» منذ أن التحق بالكلية الحربية، وحتى شارك فى الثورة، وهذا التاريخ هو أيضا الذى دارت فيه أحداث الجزء الأول من فيلم «جمال عبد الناصر» إخراج أنور قوادرى عام ١٩٩٧. ففى هذه الأفلام رأينا كيف يعيش الضباط وكيف يعتنقون الأفكار، وتكون لهم رؤى سياسية، وإذا كان عبد الناصر قد عرفنا سيرته العسكرية فى فيلم قوادرى، فإن أحمد فى «الله معنا» هو صورة من عبد الناصر، خاصة فى الشكل الخارجى ..

والجيش فى فيلم «رد قلبى» لعب دورا عسكريا فى حرب فلسطين، ثم قام بدور سياسي حين قامت الثورة، والغريب أنه فى هذه الأفلام لم نر الطرف الآخر الذى يحاربه الجيش المصرى، وكأنما الضباط والجنود يقاتلون الأسلحة الفاسدة ..

على جانب آخر فإن ثصص الأفلام المصرية، أعطت للضباط، والجنود معنى انسانيا فهناك وراء قصة كل جندى يذهب إلى الحرب، توجد ظروف عائلية، أو عاطفية . ففى عام ١٩٥٤، عرض فيلم «الحياة الحب» ليوسف شاهين الذى يدور حول ضابط (يحيى شاهين) أصيب فى الحرب وفى المستشفى العسكرى يتعرف على الممرضة التى تتولى رعايته، وبعد أن يتم شفاؤه يعود إلى الجبهة لإستكمال القتال، كى يعود من جديد بأصابة، وتقرر ليلى الوقوف الى جانب الضابط الذى أصيب مرتيين عند أداء الواجب، وقد شغف عز الدين ذو الفقار، الذى كان ضابطا ذات يوم، دفعه جمال عبد الناصر، بقصص بطولات

العسكريين فى الحروب، مثلما رأينا فى «رد قلبى» و نهر الحب»

وايضا «بور سعيد» الذى شارك رجال المقاومة الشعبية رجال الجيش فى التصدى للعدوان الثلاثى أما فيلم «طريق الأبطال» فتبدأ أحداثه فى حفل تكريم الشهداء، ووسط مدرجات الكلية الحربية تجلس فتاة (هند رستم)، تشاهد الضباط الجدد فى العرض العسكرى، وتتذكر حبيبها القديم . الذى كان أدبيا، وتم تجنيده كضابط فى الجيش، ويواجه المتاعب مع أسرته بسبب رغبته فى الزواج من حبيبته، وعندما تندلع الحرب، يذهب الشاب مع القوات، وإلى الجيش ايضا تطوع الفتاة فى مجال التمريض، وفى إحدى المعارك مع الصهاينة، يهم الشاب برفع علم النصر، لكن أحد جنود العدو يطلق عليه الرصاصة فيسقط شهيدا وأهمية هذا الفيلم أنه حاول إعطاء الإيحاء بأن الحرب كادوا أن ينتصروا فى حرب فلسطين لولا رصاصة انطلقت من اسرائيلى أى أن السينما حاولت أن ترى النصر حديثا للجيش، ومن الحرب نفسها أيضا دار شخصية فيلم «وداع فى الفجر» و «شياطين الجو»

على جانب آخر، نقد فيلم «جمال عبد الناصر» بمثابة رحلة محارب مصرى، منذ أن التحق بالكلية الحربية، حتى يوم رحيله، فهو الذى شارك فى حصار الفالوجا أثناء حرب فلسطين، وهو الذى شهد نكسة ١٩٦٧ – وحاول استجماع قوى الجيش مرة أخرى، والتصدى للعدو أثناء حرب الاستنزاف قبل رحيله

الافلام التى تناولت عدوان ١٩٥٦ كانت تمجيدا لرجال المقاومة الذين وقفوا الى جوار الجيش، ومن الأفلام التى أبرزت بطولات المقاومة فيلم «بور سعيد» لعز الدين ذو الفقار ١٩٥٧ «وسجين أبو زعبل» لنيازى مصطفى ١٩٥٧ و «وحب من نار» لحسن الإمام ١٩٥٨، إلا أن فيلم «عمالقة البحار» إخراج السيد بدير، يصور الدور الأرضى، وأداء الواجب الذى قام به الجيش (خاصة القوات البحرية) أثناء ما سمى بمعركة، حيث

ستدور أغلب الأحداث داخل وحدات الأسطول، سواء عند الأسكندرية برأس التين وفوق البوارج . والفيلم الذى عرض فى نهاية عام ١٩٦٠، جاء ليتوج الوحدة السياسية بين مصر روسوريا، وليؤكد أن الوحدة تمت قبل حدوثها السياسى فى فبراير ١٩٥٨ بعام ونصف حيث استوعبت البحرية المصرية طلابا دارسين قادمين من العالم العربى خاصة السورى جول جمال الذى سيدفع حياته فى عملية تخص البحرية المصرية، والفيلم يحاول تمجيد أسماء الشهداء الذين قتلوا فى المعركة أكثر من محاولة لتمجيد حرب، أو نصر، ففى نهاية الفيلم تستعرض الكاميرا وجوه أسر الشهداء، ابتداء من أسرة قائد العملية جلال الدسوقى، ثم بقية العائلات. حيث يذهب مندوبي من القوات المسلحة ليخبر كل منهم بخبر رحيل الشهيد وفى الاذقية فإن خطيبة جول جمال أدت الدور نادية لطفى. وأدى دور جمال شقيقه الشبيه به عادل جمال، تذهب إلى الشاطئ سعيدة، لكن الخبر الحزين يأتيها، بينما تردد زوجة أحد الشهداء المصريين بدلا من البكاء

عملية البرمس، دارت إبان عدوان ١٩٥٦، حيث يصدر الأمر لجول جمال لقيادة قاذفة طوربين ومعه زملاء آخرين بينما يوكل لجلال الدسوقى مهمة استطلاع موقع القوات المعادية، وتتم المهمة بنجاح ولكن العودة إلى الوحدة البحرية يحدث إشتباك بين الرجال، وبحرية العدو . فى أغلب أفلام تلك المرحلة كان الجيش موجودا فى أفلام كثيرة، فأبناء الوطن المجندين، يذهبون إلى الحرب للدفاع عن وطنهم ,مثلما رأينا الأخ الأكبر فى لا تطفئ الشمس ..لصلاح أبو سيف ١٩٦٠، و «غدا يوم آخر لألبير نجيب ١٩٦١»

الغريب أن العسكرية المصرية لم تظهر فى السينما المصرية . من خلال ما حدث فى عدوان يونيو ١٩٧٦ وما بعدها إلا بعد عشرات السنين من نصر أكتوبر، فقد سخر الناس من هزيمة جيشهم، ولا يمكن إظهار الجيش قد انتصر وقد بدأ ذلك واضحا فى أحداث فيلم « أغنية على الممر» لعلى عبد الخالق المأخوذة عن مسرحية لعلى سالم ١٩٧١ الذى تحول فيما

بعد اكبر مشجع للتطبيع مع العدو .. فى هذا الفيلم نحن أمام خمسة جنود وجدوا أنفسهم محاصرين فى أحد الممرات الحيوية فى سيناء بعد ان مات كل افراد الفصيلة أثناء المعارك . أكبرهم سنا ورتبة هو الجاويش محمد . الفلاح الذى يود ان يصبح مطربا مشهورا فشل فى قصة حب، ووجد فى سلاحه الطمأنينة، أما شوقى فانه مثالى فى سلوكه، وهناك مسعد النجار الذى ينوى الزواج . لقد ترك خطيبته، ودع امه فى دمياط، وذهب إلى الحرب سعيدا يتسم بخفة ملحوظة، وهؤلاء يمثلون الشباب المصرى فى الستينات، يعانون وهم فى الممر، حيث تقوم القوات الإسرائلية بالهجوم على الممر، ويدفعون حيواتهم فداء لأوطانهم الواحد تلو الآخر

حول لحظات النصر فى حرب الإستنزاف، فقدمت السنما المصرية نوعين من الأفلام، الأول لعمليات حربية لتدمير مواقع مصرية، خاصة المدمرة إيلات فى فيلم «يوم الكرامة» لعلى عبد الخالق ٢٠٠٤، الذى يصور كيف نجح ضباط البحرية السباب فى إغراق المدمرة الإسرائلية إلات بواسطة الجنود الذين قاموا بالعملية قد دفع بعضهم حياته لتمتزج دماء الأقباط مع المسلمين من أجل رفعة الوطن

اما النوع الثانى من الأفلام التى أنتجت هذه الفترة فإنها تشير إلى أنه إذا كان الجيش قد انهزم فى سيناء سواء عن طريق إكتشاف جواسيس يلعبون لصالح العدو أو عن طريق عمليات إستخبارية ناجحة ماخوذ أغلبها من الملفات، بما يعنى ان الجيش الخلفى، قد فعل ما عليه، وأنتصر فى مهامه، مثلما رأينا فى «الصعود إلى الهاوية» لكمال الشيخ ١٩٧٨، و «بئرالخيانة» و «مهمة فى تل أبيب» لقادر جلال ١٩٩٢ و لعلى عبد الخالق الذى أخرج كما لا بأس به من الافلام الوطنية، التى فيها تحية واجبة للجيش وهو الذى قدم فيلما من مفاوضات الكيلو١٠١ باسم «وضاع حبى هناك» عام ١٩٨١

تباطئت السينما المصرية فى إنتاج افلام عن هزيمة ١٩٦٧، لكن

القوات المسلحة سرعان ما قدمت تسهيلات عديدة لصناع الافلام لتصدير كيف انتصرت العسكرية المصرية فى أكتوبر ١٩٧٣، وبعد عام واحد كمن الحرب، وفى الذكرى للعبور عرضت أربعة أفلام حول إنتصار العسكرية المصرية وهى الرصاصة لاتزال فى جيبى .. لحسام الدين مصطفى، و «بدور» لنادر جلال، و «الوفاء العظيم» لحلمى رفلة، و «وأبناء الصمت» لمحمد راضى الذى كان أكثلر من إهتم بعمل أفلام عن إنتصارات أكتوبر منها «العمر لحظة» ١٩٧٨، و «نسور المجد» عام ١٩٩٩ وهو الفيلم الذى لم يعرض تجاريا حتى الأن كما قدمت السينما أفلاما أخرى منها «حتى آخر العمر» لأشرف فهمى عام ١٩٧٥، وكانت أنتصارات الجيش موجودة دوما فى افلام مثل «أمهات فى المنفى» لمحمد راضى ١٩٨٣، و «سواق الاتوبيس» لعاطف الطيب ١٩٨٤، و «أيام السادات» لمحمد خان عام ٢٠٠٢ وأيضا المواطن مصرى لصلاح أبو سيف هى أفلام ذات طابع عسكرى، ترى ان العسكرية المصرية هى التى حققت النصر باعتبار أن هناك أفلاما تم إنتاجها على فترت زمنية متباعدة تؤكد أن رجال السياسة كانوا السبب فى الهزائم التى لحقت بالوطن . عشنا فى هذه الأفلام مع رجال الجيش الذين أدوا الواجب على خير ما يكون، وعبروا من الهزيمة النفسية والعسكرية إلى النصر الإجتماعى والسياسى .. العسكرى

والغريب أنه فى كل هذه الأفلام من الناحية أى إشارة إلى بعض القادة العسكرين فى فيلم يوم الكرامة ... ولعل أهم هذه الأفلام من الناحية الحربية هو «الرصاصة لاتزال فى جيبى ..» يليه «العمر لحظة» وهى مأخوذات عن نصوص أدبية كتبت أبان حرب الإستنزاف وقد نشرت أقصوصة «رصاصة واحدة فى جيبى» لإحساس عبد القدوس فى عام ١٩٦٩ وبعد حرب أكتوبر، أعاد المؤلف نشرها بعنوان .. الرصاصة لا تزال فى جيبى .. والنص بمثابة رسالة يرسلها الجندى محمد إلى صديق له . روى فيها قصته مع السلاح . قبل وبعد النكسة .

وأهمية الفيلم أنه مر مع بطلة محمد المغاورى من وقائع سنوات



الهزيمة الى النصر أى أن الزمن الدرامى للفيلم . تضم وقائع يونيه ١٩٦٧، وأكتوبر ١٩٧٣، باعتبار أن البطل، المجند هنا عاش نوعين من الحروب، حربا خاصة به حين أغتصب عباس بك ابنة عمه، حبيبته فاطمة، وأيضا حرب خاصة بالوطن الذى إنتهكته العدوان . فكان أقرب إلى الإغتصاب وبدأ الوطن المهزوم أشبه بفاطمة المغتصبة، كلاهما ذليل، ضعيف، يود أن يخرج من دائرة الإهانة إلى دائرة الكرامة وليس هناك فارقا عباس واسرائيل . فالاول سعى إلى السيطرة على البلد التى جاءها من الخارج وأمكنه بكل مكر أن يتحكم فى الأرض، وأصحابها، وأن يغرى الفلاحين واستطاع فى النهاية أن يفتقد فاطمة بكارتها .

وقد صار أمامه ثأران .الثأر من عباس، ومن أعداء الوطن، ففى عام ١٩٦٧ كان أحد الجنود الذين هربوا، بعد أن أبادت الكتائب الإسرائيلية أفراد فرقته .. وكاد أن يتم أسره، لولا أن نجح وعاد من طريق مساعدة بعض بدو سيناء الى الوطن . والفيلم ملىء بالرمزية، رمز الرصاصة، ورمز لعباس، ولكن من الناحية العسكرية فالفيلم واقعى، وحسب ما جاء على لسان الناقد مجدى فهمى أن الجيش المصرى حارب من جديد خصيصا من أجل هذا الفيلم، فقد وضعت القوات المسلحة أفرادها وضباطها وأسلحتها وخبراتها فى خدمة هذا الفيلم، حتى جاءت الحرب على الشاشة صورة حية من الحرب الأصيلة

كما أجمع النقاد ان أقوى ما فى الفيلم معاركه الحربية، وهو بالطبع أول فيلم عربى يقدم معارك حربية حديثة على مستوى، وقام بإخراج المعارك الحربية كل من بالإضافة إلى المخرج خليل شوقى ..

وقد بدأ الإهتمام بعمل أفلام جديدة عن انتصارات الجيش يقل عبر السنوات بشكل ملحوظ . وصار النقاد يشكون أن الحدث كان أكبر من إهتمام الناس بالنصر، وتم تحويل المؤسسة العسكرية إلى ما يشبه الحياة المدنية، والإهتمام بالنوادى التى تطورها القوات المسلحة ,إلى أن أثبت

العسكرية المصرية أنها لاتزال تحمل نفس البريق القديم، وقام خالد يوسف بتصوير الجيش المصرى وهو ينتصر مع الخلفاء، فى معركة تحرير الكويت وذلك من خلال فيلمه «العاصفة» الذى واجه فيه الجيش المصرى، وايضا السورى، جيش صدام، وكان من بين المتحاربين شقيقان، دفعت الظروف كل منتهى كل منهما ينضم لاحد الطرفين المتحارربين .

الجيش فى السينما :

نحن جيل عرفنا مقعد التجنيد، رغم خشونته وقسوته حين صار لكل أسرة مصرية تقريبا جندى أو اكثر على الجبهة، لمواجهة العدو الأسرائيلى. وقد تباينت سنوات التجنيد لكن لاشك أن وجود شباب هذه المرحلة فى مصهرة التجنيد، هل غيرتهم الى الافضل، وقد تسألت وأنا . شاهد شباب العباسية عن موقفهم من التجنيد، هل ذاقوا لذته، وخشونته، فلو أن التجنيد قد طال الكثير منهم لتغيرت مواقفهم، فى الوقت الذى أعلم أن ريادات مصرية عديدة لهؤلاء الشباب كانوا يوما ما فى الجيش ..

هذا هو ما انتاب مشاعرى على الأقل، فأنا واحد من الذين رأوا أن الجيش حائط من قوى للغاية مرتبط بالمهابة والقدسية والعديد من الرموز المثالية، خاصة أن هناك عدوا قويا مسلحا نوويا يقف عن حدودنا، قام الجيش المصرى بمجابهته فى أربعة حروب، بصرف النظر عن الانكسار الذى أصابتا فى ثلاثة من هذه الحروب ..

فى السينما المصرية كان الجيش دوما هو تهذيب، وتأديب، وإصلاح، وتربية وطنية وتحول إلى الأفضل، وقد كانت هذه هما صورة الجيش عند المصريين منذ عام ١٩٣٥، حتى الأن وفى الوقت الذى تعرضت فيه صورة الشرطة إلى الأهتزاز كثيرا فى الأفلام. فأن الجيش ظلت له مكانته فى قصص الأفلام . بإعتبار أن الخطر يحوط مصر فى السلم والحرب، وأنه لا منفذ من الخطر من خلال الجيش ..

ولا شك أن هذه الصورة تعاظمت بعد أن صار حكام مصر منذ يوليو١٩٥٢ هم من رجال الجيش وانتقل الى الحياة المدنية الفنية الكثيرون من رجال الجيش، فى مجالات متعددة، منها الإخراج والتمثيل، وكتابة الأفلام، والإنتاج، نساعد هذا على تحسين صورة الجيش .. ورأينا الكثير من القصص تدور أحداثها داخل الثكنات، سواء لمجابهة العدو الاسرائيلى فى حرب ١٩٤٨ أو عدوان ١٩٥٦، وقد ساعد على ذلك الضباط الذين حكموا مصر بعد يوليو، ومن أبرز هؤلاء الفنانين العسكريين : عز الدين ذو الفقار، وأحمد مظهر، ووجيه أباظة، ويوسف السباعى والأسماء كثيرة

والغريب فى هذا الأمر أن السنما المصرية بدت كأنها تعلن أن الجيش المصرى، ولد فقط مساء الإثنين والعشرين من شهر يوليو ١٩٥٢ . ولم يعد الناس يعرفون أى صورة رأها الناس للجيش فى الأفلام التى تم إنتاجها قبل التاريخ . سوف نقتصر حديتنا هنا عن منظور السينما المصرية للجيش قبل يوليو ١٩٥٢، وذلك لعدة إعتبارات منها كشف الصورة المقدسة للجيش لدى المصريين، حيث وضعوه فى مكانة عالية مقدسة وغنوا له، ورأوه فى المقام الأول تربية، وتهذيبا، وإصلاحا، وأيضا رمزا لقوة الوطن ..كما أننا سنتلافى بهذا الحديث ما قد نشوب أفلام الخمسينات والستينات وما بعدها من «عمد» لتقديم الجيش المصرى فى الصورة المثالية، وأيضا نحن بذلك نحاول أن نقدم صفحات مجهولة يجب أن يعرفها الناس عن علاقة الجيش بالوطن، وعلاقة الناس به فالعسكريون هم أبناء الوطن المجندين والعاملين، ولم يكن جيش مصر فى القرن العشرين، للمرتزقة أو الأجانب، وهذه الفترة بالذات، كانت مصر تحت الإحتلال البريطانى، لكن الجيش كما صورته الأفلام سيظل مصريا، رغم وجوه الأورنس فى بعض المناطق، لكن هوية جيشنا كانت مصرية ..

تبعا لعدم وجود كافة النسخ من أفلام العشرينات والثلاثينات، ثمن الصعب تحديد أول فيلم مصرى، كان بطله ضابط جيش، إلا أن الأمر سهل بالنسبة للشرطة من خلال فيلم « الضحايا « لبهيجة حافظ عام ١٩٣٢،

وتشير الوثائق التى لدى أن الأمر كان أكثر وضوحا عام ١٩٤٠ من خلال فيلم مصرى صميم هو، تحت السلاح .. إخراج وسيناريو فؤاد الجزايرلى، أما الجوار فقد كتبه بديع خيرى وزكى صالح، واستيفان روستى . عن قصة لزكى صالح، والفيلم من تمثيل أحمد علام وزينب شكيب وعباس فارس، ومن إنتاج شركة الأفلام الشرقية بالاسكندرية .. وهو أحد أفلام الضائعة من أرشيف السينما المصرية من أرشيف السنيما المصرية، لكن قصة الفيلم يشير بقوة أن أحداثه محلها تدور فى الجيش، والحروب التى خاضتها مصر، وأغلب أن ان لم يكن كل، هؤلاء العسكرين فى الفيلم من المصريين، وقد جاء فى الدفتر أن الفيلم تم عمله. بالإشتراك مع وحدات الجيش المصرى وسوف تنقل هنا بعضا ما جاء فى الدفتر يتعلق بالجيش: استديو ألفيزى يتقدم بوافر الشكر إلى وحدات الجيش المصرى وسلاح الطيران الملكى المصرى لما قدماه من مساعدة وتسهيلا فى إخراج فيلم «تحت السلاح» فأوجد للفيلم جوا حربيا ينطق بما لمصر من رقية ومجد ....

وفى إطار عرض قصة الفيلم، فإن البطل الرئيسى اليوزباشى خالد السعيد (أحمد علام) هو أركان حرب الأسلحة الميكانيكية يعيش من أجل الجندية ولا يعرف فى الحياة إلا الجيش وأنظمته، وبينما كانت الدنيا تستعد للحرب (المقصود الحرب العالمية الثانية) كانت مصر بتحميها من الاستعداد للدفاع، فأتجه جيشها إلى الحدود متربصا العدو ..» وذلك دون الاشارة إلى هاوية العدو، واتجاه الحدود. ويستكمل الدفتر حديثه عن ابطاله من رجال الجيش أن الملازم أول عادل دينا، يقع فريسة الحمى فيدخل مستشفى الميدان فى حالة خطرة فتحضر أمينة بالطيارة لزيارته، وهناك يلتقى بها اليوزباشى خالد فيبهره جمالها»

وقد انتقلت كاميرا الفيلم الى داخل الثكنات العسكرية كما ذهبت الى الحدود، حيث نرى ضابطا فى زوجته أثناء غيابه عنها ..

ورغم ان أغلب احداث الفيلم تدور فى الثكنات، فان دفتر الفيلم، ليلي بنت الفقراء إخراج وإنتاج أنور وجدى عام ١٩٤٥ أكد .. أول فيلم تدور حوادثه بين صفوف الجيش المصرى «كأنما هنا سباق بين الفنانين لنيل الشرف أن تكون أفلامهم هى «الأولى» فى تصوير ما يدورؤ فى ثكنات الجيش المصضرى، والطريق أن .. ليلى بنت الفقراء «يظل بالنسبة للناس عملا غنائيا عاطفيا ليست له علاقة بالجيش، وذلك لان الحكام العسكر الذين جاءوا بعد يوليو ١٩٥٢ قد عز عليهم أن يرتبط وجود الجيش المصرى فى هذا الفيلم، من خلال أنشودة عسكرية تحمل عنوان «عاش الملك» من نظم أحمد رامى، وتلحين الصاغ عبد الحميد عبد الرحمن، والسبب قد تغنت باسم الفاروق، ونتيجة لان هذا المشهد الاستعراضى العسكرى قد تم حزفه، ولا نعرف مصيره أبدا، فإن سننقل كلماته هنا

سلاح المشاه :

في ظل فاروق رفعنا العلا   رمز الولاء للمليك والوطن
أروحنا فدى له وللحمى   عزت به أيامنا على الزمن
يا من روينا روحنا من منهلك   تحيا لنا عاش الملك عاش الملك

سلاح الفرسان:

على ظهور الخيل نجرى كالرياح   إلى سبيل النصر بين الفاتحين
فى تغنا سمر العوالى والرماح   تهوى بها كالبرق فى ساح المنون
فاروق يا فخر الزمن   تحيا لنا على عاش الملك عاش الملك

سلاح الطيران :

فى عنان الجـو تسرى كالشهـاب   نشق صدر الريح كالسيف السليل
لنا بساط طائر بين السحاب   نخص به للعز فى كل سبيل
فاروق كنز المنى   تحيا لنا عاش الملك عاش الملك

سلاح المدفعية:

وفى لهيب النار نقضى عمرنا   حديثنا على لسان المدفع
نذود بالارواح عن ديارنا   ونلتقى حول المليك الا رفع

الجميع:

فاروق يا حامى اللواء   تحيا لنا على المدى معززا مؤيدا
تحيا لنا   عاش الملك عاش الملك

وهكذا تغنت أغلب وحدات الجيش المصرى بأمجادها، وعليلها، وقد ظهر أنور وجدى فى هذا الفيلم كطيار شاب، وسط وحدات الجيش، كما بدت هذه الوحدات، أو رموزا منها، لكن كل هذه المشاهد أختفت تماما. مثلما إختفى فيلم .. قلبى وسيفى .. أحد أشهر الأفلام عن الجيش المصرى، وهو من أخراج جمال مدكور الذى لا نعرف مصيره، ولا أين أصوله، فهو من إنتاج المطرب محمد البكار الذى قام بالبطولة أمام صباح عام ١٩٤٧ وكان هناك ايضا دولت أبيض، وسليمان نجيب وبشارة واكيم واحمد علام، والفيلم من تاليف مصطفى السيد

وفـى المقدمـة دفـت الفيلـم، قـام المنتـج والممثـل محمـد بـكار بتوجيـه كلمـة إلى «مـولاى صاحـب الجلالـة» أهـدى اليـه بـكل تواضـع أفلامى قلبى وسـيفى.. وقـال أنـه نقـل صـورة مشـرقة فـى أجمـل اطـار للجيـش المصـرى الباسـل ..

تاريـخ انتـاج هـذا الفيلـم . لم يتحقـق أحـداث سياسـية وجـد الجيـش المصرى نفسـه يخوضهـا، فليسـت هنـاك حروبـا بالمـرة، مثلمـا سـيحدث بعـد سـنة واحـدة مـن انتـاج هـذا الفيلـم، وقصـة الفيلـم، كمـا جـاءت فـى الدفـتر، عـن طلعـت بـك المهنـدس والمقـال الكبـير، مـن ذوى الأمـلاك، وصديـق حميـم لجـاره جـلال بـك قائـد سـلاح الفرسـان .

انعقـدت النيـة فيمـا بينهمـا علـى خطوبـة الأنسـة سميحـة بنـت جـلال بـك إلى منـير نجـل صديقـه طلعـت بـك .. ولكننـا نـرى منـير يهمـل دراسـته الجامعيـة وينسـاق وراء تيـار اللهـو والعبـث مـع خالـه المسـتهتر بهجـت أفنـدى، ثـم يضبـط وهـو يغـش فـى الإمتحـان فيرفـت مـن الجامعـة

وفـى أثنـاء ذلـك يكـون مطلوبـا للخدمـة العسـكرية . فـيرى والـده أن الجنديـة خـير وسـيلة لتهذيـب نفسـه وابعـاده عـن ال والضـلال

وتقـوم الحـرب فيطلـب آلاى السيارات الـذى الحـق بـه منـير للاشـتراك فـى الدفـاع عـن القتـال . وهنـا تظهـر المجهـودات العظيمـة . وفـى احـدى هـذه المواقـع يصـاب الجاويـش منـير برصاصـة فـى ذراعـه أثنـاء مطاردتـه لإحـدى طائـرات العـدو، ولكنـه يسـتمر علـى الرغـم مـن هـذه الإصابـه يضـرب الطائـرة حتـى تسـقط، ثـم ينقـل مـع أثـر ذلـك الى المستشـفى حيـث يمضـى مـدة علاجـه، ثـم يرقـى الى رتبـة باشـجاويش تقديـر لبطولتـه

«جـلال بـك قائـد سـلاح الفرسـان، ووالـد خطيبتـه سميحـة لشـجاعة منـير فيلحـق برعايتـه ويشـركه فـى أعمالـه وهكـذا أخلقـت حيـاة الجنديـة مـن منـير بطـلا شـجاعا أوقـف حياتـه لخدمـة الجيـش والدفـاع عـن الوطـن ..

وقد نقلنا أغلب ما جاء فى هذا النص كى تؤكد أن هذه القصة، كانت فاتحة لانتاج أفلام كثيرة عن مسالة أن الجيش هو تهذيب، وتأديب، وإصلاح، وهى مجموعة كبيرة، كان آخر فيلم «عبور على الحدود» لشريف عرفه عام ١٩٩٩.

وفى هذا الفيلم هناك أكبر عدد من الاغنيات التى تغنى أبطالها بالجيش، ومنها نشيد الجيش من نظم أحمد رامى . تلحين وغناء محمد البكار وننقل هنا بعضا ما جاء فى هذا النشيد :

منير وكورس:

يا رجال الجيش يا روح الوطن — مجدكم تاج على رأس الزمن
رفرفت أعلامكم فوق الحمى — خافقات بالأمانى والمحن
صفحة التاريخ زانت — ذكركم فى الخادين
وربوع النيل صانت — رسمكم فى الفاتحين

كورس:

نحن للوادى وللعرش الغدا — نذكر الماضى ولا ننسى غدا
مصرنا وتكم اليها — ومضيمتم طائعين
وانقضى الدهر عليها — وبقيتم صابرين

أما الأغنية الثانية، تحمل إسم «أغنية الجهادية» من تأليف صالح جودت، تلحين وغناء محمد البكار أيضا وننقلها هنا كاملة:

عا الجهادية عا الجهادية رمز الإخلاص والوطنية
عا الجهادية عا الجهادية
ياللى بتهربوا من الجندية فين الهمة والرجولية
لو كنتوا عرفتوا إيه هى ما كنتوا دفعتوا البدلية
عا الجهادية عا الجهادية
لما البدرى علينا ينادى نوهب روحنا للوادى
وفداكى الدنيا يا بلادى يا بلاد النور والمدينة
عا الجهادية عا الجهادية
أرواحنا للنيل وهوانا مكتوب لبلادنا ومولانا
وفاروق يهدينا ويرعانا وتعيش الأمة المصرية
عا الجهادية عا الجهادية

وقد لوحظ ان الأشخاص من هنا هم الذين ينتجون الأفلام . وأن الجيش يقدم تسهيلات للتصوير، فى فترة كان من السهل دفع البدلية لعدم دخول الجيش، أى أن الدور الإجتماعى لهذه الأفلام كان واضحا، وهو أن الوطنية مرتبطة بوجود جيش قوى سليم . وأطراف ما فى دفت الفيلم النوتة الموسيقية: نشيد الجيش التى وضعها عزيز صادق

مع بداية الصراع العربى الفلسطينى، وحدوث المواجهة العسكرية، انتبهت السينما المصرية الى أهمية التلاحم مع الجيش، وقد بدأ ذلك واضحا من خلال . فتاة من فلسطين .. إخراج محمود ذو الفقار .. الذى عرض فى ول نوفمبر عام ١٩٤٨، اما بعد هزيمة الجيوش العربية بفترة قصيرة جدا وقد إمتلأ الفيلم بحماس وطنى محظوظ، وحسب دفتر الفيلم، فإن عادل عشق الجندية، ووهبها حياته، ولم تعد تستهويه المتع

التـى تستهوى الشباب . حـب واحـد يمـلأ قلبـه حـب لواجبـه . وفخـر واحـد يقيـم عليـه جوانحـه هـو فخـره بأنـه مـن ضبـاط جلالـة الملـك . وحلـم واحـد يساوره بـين النـوم واليقظـة : أن يشـترى بدمـه وسـام المجـد ويهديـه لبـلاده .

وكأنمـا الوطـن القديـم الكريـم علـى حلـم هـذا الابـن البـار مـن أبنائـه ويسـتجيب لـه مـن دعـوه للجهـاد .ز أن فلسـطين فـى محنـة ... وهـى عضو فى جسـد الام العربيـة .. أن تـألم أحسـن الألم بقيـة الأعضـاء مـع رأسـها مصـر ..

والآنصـار الحلـم حقيقـة، أن عـادل يلحـق بطائرتـه فـى سمـاء الأعـداء . فـوق رؤسـهم جحيمـا تندلـع نـاره وتلتهـم الظالمـين.

هـذا الـكلام مكتـوب عـام ١٩٤٨ وقـد جـاء فـى دفتر الفيلـم أيضا عزيـزة أمير تديـن بالشـكر العظيـم لمعـالى الوزيـر الدفـاع الوطنى ورجـال الجيـش وضباطه من مختلـف الاسـلحة علـى كريـم معاونتهم ومسـاعدتهم الصادقة التـى كان لها أبلغ الأمـر فـى تنفيـذ فيلم فتاة من فلسـطين وإظهاره بالصورة الرائعـة التى ظهر بها .

وتعتـبر أغنيـة سـعاد محمـد التـى تغنـت بهـا فـى الفيلـم «يـا مجاهـد فـى سـبيل الله»

واحـدة مـن أشـهر الأغنيـات الوطنيـة التـى تعرفهـا الأجيـال المتلاحقـة حتـى الآن. الطريـف أن الشـاعر بـبرم التونسـى الـذى كتـب الأغنيـة كان يعيـش فـى الماضـى، وليـس مثـل بطـل فيلـم تحـت السـلاح، القائـد فـى الأسـلحة الميكانيكيـة حيـث يقـول

طولى يا بطل ما معانا سـيوف الدنيا يا ما بكره تشوف

إحنـا عـرب اسمنا معـروف مـن الحب احنـا بدعناه

بمـا يعـن أن الجيـش المصـرى يحـارب بالسـيوف، وهـذا يعنـى أن لا يـزال يحـارب بالسـيوف . كعـادة الشـعراء فـى نظرهـم أن الحيـاة لم تتحـرك منـذ قـرون طويلـة . وقـد حـاول الزوجـان عزيـزة أمـير ومحمـود ذو الفقـار أن يقدمـا عمـلا آخـر هـو «ناديـة» عـام ١٩٤٩ مـن اخـراج عطيـة عبـد الوهـاب ..قـد

خفت فيه درجة ظهور حرب فلسطين، إلا أننا لازلنا أمام ضابط جيش يشارك فى هذه الحرب، والمرأة فى هذا الفيلم تناصر قضية وطنها، هى ممرضة تصدم أن حبيبها الضابط واقع فى غرام أختها الصغرى أنها القصة نفسها التى رأيناها بعد خمسة عشر عاما فى فيلم «الراهبة» لكنها مغموسة بأجواء العسكرية والحرب

وفى السنوات القليلة التى أعقبت حرب فلسطين، لم يعد هناك حديث فى السنما عن الجيش بالقوة نفسها التى عرفناها فيما قبل، إلى أن جاء يوليو ١٩٥٢، وكتب أحمد بدر خان فى دفتر فيلمه مصطفى كامل «قائلا» شكرا لثورة الجيش هدمت الطغاة. ونصرت الأحرار وشجعت على نشر أرائهم فأزاحت عن مؤلف قصة فيلم مصطفى كامل «الاستاذ فتحى رضوان، وعن فيلم مصطفى كامل نفسه ويكون بدرخان بذلك من أوائل السينمائين الذين على ما حدث فى يوليوا ١٩٥٢ إنها ثورة الجيش وقد كان ذلك فاتحة لعشرات الأفلام التى أنتجت فى عقود متتالية عن الجيش وثورة يوليو، فأعطت المزيد من حالة التقديس للجيش، حتى يناير ٢٠١١، بدأت ألية التعامل مع الجيش تتغير، كى تصل الأمور إلى ما حدث فى العباسية ولا كيف ستكون الصورة فى الأفلام السينمائية التى سيتم إنتاجها فى العقود التالية

الجيش فى السنيما المصريه:

هكذا كنا في الفترة بين اكتوبر ١٩٧٢ ويوليو ١٩٧٥

جندى مجند فلان الفلانى مؤهل عليا سلاح الاشارة

يعنى هذا ان تخرج من بيتك وان تصبح فردا من القوات المسلحه طوال فتره تجبيدك هى المسئوليه عن اسمك . وملابسك . وطعامك . وبيتك . وصحتك . وهى التى تتولى تدريبك كى تصبح مواطنا صالحا

. يـذداد احساسـك بقيمـه وطنـك. تقـف حراسـه سـت سـاعات عنـد حـدود المعسـكر وسـط الليالـي البـارده. المظلمـه . هـدف واحـد .. ان ينتصـر وطنـك وتحلـم بـان تمـر الايـام كـى يمنحـوك اجـازه تذهـب خلالهـا الـي مدينتـك مسموح لـك ان ترتـدى الـزى المدنـى لكـن قصة الشـعر دليـل انـك ضمـن افـراد الجيـش .. جنـدى مجنـد .. ربمـا يتـم ترقيتـك إلى عريـق

الان بعـد اربعـه عقـود مـن التاريـخ لايـزال الاحسـاس بانـك كنـت جنديـا بلازمـك وكلمـا رايـت فيلمـا مصريـا تـدور احداثـه داخـل ثكنـات الجيـش مشـاعر الجنـدى صحيـح ان الحيـاه المدينـه تتدفـع مـع عقيـده الحريـه التـى قرانـا عنهـا فـى الاداب العالميـه وخاصـه اعمـال الوجـود وبـين لكـن حيـث يصـير الوطـن فـى مجمـه يكـون الجيـش هـو مـن يفعـل المعجـزه فلابـد ان تفخـر انـك كنـت يومـا هنـاك

ظلـت السـنيما المصريـه فخـورا بخيشـها منـذ فيلمهـا الاول عـام ١٩٢٧ . ايـا كان النظـام السياسـي الـذى يحكـم مصـر صحيـح ان الجيـش وضباطـه قـد تواجـدوا فـى قصـص الافـلام بشـكل مكثـف عقـب قيـام ثـوره يوليـو لكـن كـم مـن افـلام انتجهـا المصريـون عـن بطـولات الجيـش والحسـن الـوفي الـذي يتملـك المجنديـن الذيـن يتحقـون بالقـوات المسلحه وكـم مـن الافـلام انتجهـا المصريـون عـن بطـولات الجيـش والحسـن الوطنـى الـذى يتملـك المجنديـن الذيـن يلتحقـون بالقـوات المسـلحه وكـم مـن قصـص وقفـت عنـد قمـه الشـعور بالوطنيـه وهـى تتحـدث مـن الحيـاة فـى اطـار الجنـدى وكـم الافـلام باتاشـيد واغنيـات لتمجيـه الحيـاه العسـكريه والطريـف وهـذا ليـس غريبـا ان الكثـير مـن هـذه الاغنيـات الفهـا ضبـاط مـن الجيـش مـن مواقـع تجاربهـم الحيائيه من الصعـب ان ترصـد او حتـى نلحـف صـوره الجيـش وافـراده فـى القصـص الافلام المصريـه فالموضـوع يحتـاج الى مـا لايقـل عـن الـف صفحـه ولعلـه سـيكون مـاده كتابـى القـادم لكـن الطريـق ان تتعـرف علـى كيـف قامـت السـينيما المصريـه بالغنـاء لجيشـها وكيـف احدفـت بـه فـى قصـص هـذه الافلاموهـذا الموضـوع ايضـا يحتـاج إلى مقدمـه فـى كتـاب اخـر فالغريـب ان هـذه الاغنيـات قـد

تاهت من ذاكرة الناس باعتبار ان الاغنيات العاطفيه اكثر فى الذاكرة لذا .فاننا لن نوفي الموضوع حقه في ذلك هي الصفحات المفتوحة للكتابة .

لعل أول فيلم حفل بالغناء للجيش هو تحت السلاح الذي أخرجه فؤاد الجزاولي عام ١٩٤٠م والذي يتضمن أكثر من أغنية مرتبطة بالجيش .وهي تسمى بلغة أصل الغناء « اناشيد « مثل انشودة التي كتبها عن عزت صقر ولحنها وغناها حسن مختار وقد

كانت كلما كالتالي

الجيش ضمان للحريو فخر ١٤ مديريه

الجيش املنا في جهادنا الجيش عماد الاستقلالنا

الجيش حياتنا ووجودنا والجيش ضمان للحريه

الجيش واطوال رقبتنا زان مصر وزين سمعتنا

صان مجده وصاين كرامتنا ده الجيش ضمان الحريه

على غيري اتعاجب واتباهى واتخايل فى الاورطه اياها

وبلادى عمري ماانساها دى بلادى بلاد الحريه

وباعتبارات الجيش كائن ثابت ومعنى ورمز فان كلمات لانشوده يمكن ان تتغنى فى اي وقت وقد تضمن الفيلم مايسمى نشيد العلم ومن غناء المجموعه تاليف عبد الله عفيفي بك وتلحين عبد الحميد عبد الرحمن ومكتوب في دفتر الفيلم النشيد قد صرح به من وزارة الدفاع وهو تحيه للعلم المصري على لسان الجيش اي ان هذا الاخر هو الذي يتكلم ويخاطب المصريين ان يرفعوا الرؤوس ويحيوا العلم وهو ختال فى افق السماء وقد جاء فى هذا النشيد علي لسان الجيش مايعبر عن العلاقه الوطنيه بين الطرفين

ارتفع لا تخشـن احداث الزمـان   انت من دنياك فى اعلى مكان

قرتـى تحميـك فى الحرب العـوان   قوه اكـــــنار ان جد الطهان

وفـى فليـم الشـديد لـبركات عـام ١٩٤٢ جـاء كـم الجيـش لابشـكل عابـر مـن خـلال عاشـق مجنـد يتذكـر جديـد وهـو فـى الخدمـه ويـرور

فاتي فى غرامى صاحب الالم

امـا النشـيد الاكثـر اكتمـالا فقـد ظهـر فـى فيلـم ..ليلي بنـت الفقـراء .. لانور وجـدى عـام ١٩٤٥ والـذى جسـد فيـه شـخصيه ضابـط فـى سـلاح الطـيران بينهـم غرامـا بفتـاه فقـيره والنشـيد احمـد رامـى ولحنـه الصـاغ عبـد الحميـد عبـد الرحمـن الـذي سـبق ولحـن بالنشـيد العلـم وهـو يحمـل عنـوان عـاش الملك وتلاسـف فـان هـذا النشـيد قـد قطـع مـن الفيلـم عقـب ثـورة يوليـو ولا تعـرف ابـين هـو الان وهـل هـو موجـود فـى الاصلـى الـذى يبـع للقنـوات الفضائيـه

اهميـه عهـذا النشـيد ان كافـه اسـلحه الجيـش معلـق ولائهـا للملـك فـاروق رمـزا اللولاءمـن هـذه السـلحه الفرسـان. الطـيران. المدفعيـه. حيـث يتكلـم ضباط سـلاح الطـيران علـى سـبيل المثـال

وفى عنـاق السـماء نـسري كالشـباب   نشـق صدر الريح كالسـيف السـليل

لنـا بسـاط طتئـر بـين السـحاب   نخـــضى بـه للعزقـى كل سـبيل

فـــاروق ياكـــتر المـــــنى تحيـا لنـا الملـك عـاش الملـك

امـا الفليـم الاكثـر حقـاء بالجيـش فـى التاريـخ السـينما المريـه فهـو قلبـى وسـبقي لجمـال مذكـور عـام ١٩٤٧ بطولـه محمـد البـكار فهـو اول فيلـم فـى التاريـخ هـذه السـنيما يتحـدث عـن قـدره الجيـش علـى تحويـل الشـباب النـزق الى اشـخاص زوى مسـئوليه تمكنهـم الدفـاع عـن اوطانهـم منـذ فـى هـذا الفيلـم عليـه ان يتـزوج مـن سميحـه ابنـه جـلال قائـد سـلاح الفرسـان الا انـه ايهـل دراسـه وسـياق وراء اللـواء وبضبـط وهـو يغـش فـى الامتحـان يـرى ابـوه

ان صلاح حاله بعد بناتى الا بادخاله الجيش ويتحول هناك من شباب مستهتر الى كائن ملتزم من خلال الكيان الذى انتمى اليه ويشارك فى الدفاع عن قناه السويس ويصاب برصاصه وينزف على سميحه التى تساعد اكثر فى نغيير سلوكه الى الافضل وفى الفيلم هناك اغنيات قام بتلحينها والغناء محمد البكار والفيلم من انتاجه وهوه لبناتى الاغنيه الاولى كتبها احمد رامى تحت عنوان النشيد الجيش ويقول فى مطلعها

يا رجال الجيش ياروح الوطن

مجدكم تاج على راسى الزمن

ونزفت اعلامكم فوق الحمى

خانقات بالامانى والمنه

صفحه التاريخ زانت ذكركم فى الخالدين

الا ان صوره الجيش صارت اكثر مع بدايه حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وبدا الضبات فيكون عرش القصص الحب والبطولات والوطنيه فى السينما تجسدت حاله عامه من الشخصيه الوطنى من نتقصارات ووجد المحللون تدريبه للهزيمه ان الجيش قد فعل فالديه وان الهزيمه جاءت من طرق من طرق اخر خاصه الاسلحه الفاسده وفى فتاه من فلسطين لمحمود ذو الفقار ١٩٤٨ كتب بيرم التونسي كلمات اغنيه يا مجاهدى سبيل الله التى غنتها سعاد محمد من الحان السنباطى وهى الاغنيه التى تخاطب المحارب الذى ذهب إلى الحرب والغريب ان المؤلف قد تصور ان الجيش المصري قد حارب الصهاينه بالسيوف وهو يقول

طول يابطل ما معا ناسيون الدنيا ياما بكره تشوف

احنا عرق اسمنا معروف من الحرب احنا برعناه

وتقول الاغنيه فى مقطع اخر

يـوم الحـرب وهيـوم افراح مـــوهب اعـز الارواح

يـوم الحـرب ويـوم افـراح نوهـب لـه اعـز الارواح

نوهـب بضميـر مرتـــاح سـافر يـالا في حفـظ الله

وتـدور احـداث الفيلـم حـول الظبـاط الـذىن يشـتركون في حـرب فلسـطين، وهنـاك تحـدث قصـه حـب بـين ظابـط مصرنياتـي وفتـاه فلسـطينيه، وفـى هـذه الفـتره الافـلام بقصـص البطولـه، وايضـا الاغنيـات الوطنيـه ومتـدت هـذه الظاهـره حـتي بعـد قيـام ثـوره يوليـو حيـث صـارت قضيـه فلسـطين والجيـش المصري الـذى يدافـع عنـه بمثابـت الهاجـس الدائـم فـى قصـص الافـلام ومـن ناحيـه اخـرى بـدات شـخصيه الظابـط تتواجـد فـى الكثـير مـن قصـص الافـلام منهـا الظبـاط الاحـرار فـى الله معنـا (احمـد بدرخـان ١٩٥٥) و (رد قلـبي لعـز الديـن ذو الفقـار ١٩٥٧) وايضـا وداعـا في الفجر لحسـن الامـام ١٩٥٦ وفـى كروسـات العديـد مـن الافـلام وجـه المنتجـون الشـكر للقـوات المسـلحه علـى المعاونـه الصادقـه التـى قدمتهـا مـن مسـاعدات فنيـه واداريـه وقـد قـراء فطـين عبـد الوهـاب هـذه المرحلـه بـذكاء شـديد فبـدا يقـدم سلسـله افلامـه حـول اسماعيـل ياسـين فـى مؤسسـات القـوات المسـلحه والشـرطه وكانـت اولا اسماعيـل يـا سـين فـى الجيـش عـام ١٩٥٥ مـن تاليـف الظابـط الشـاعر عبـد المنعـم السـباعى وقـد كتـب المنتـج بطـرس زال فـى الكـورس الدعائـي للفيلـم انه فيلـم مصرى يدخـل مثلـوه وفنيـه فـى عمـل متواصـل لينقلـو الى الشاشـه حيـاه الجيـش بـكل عظمتهـا وبهجتهـا وانـى اذ اذكـر مجهـود هـؤلاء الزمـلاء بتقديـر لا يفوتـي ان اتقـدم بعظيـم الشـكر الى اداره الشـؤون العامـه للقـوات المسـلحه والى جميـع السـاده الظبـاط وجنـود الجيـش الـذىن اشـتركوا فـى هـذا الفيلـم وقـد عـادت الاغنيـات التـى تمتـدح الجيـش مـره اخـرى في هـذا الفيلـم مـن خـلال اغنيتـين كتبهمـا فتحـى قـوره هـى حفـل ترفيـه التـى تصـور الوجـه المبهـج للحيـاه العسـكريه ففـى قاعـه ضخمـه يملاهـا الجنـود يغنـى اسماعيـل مـرارا

اه يا سلام لو اغمض عين   وافتح عينى الاقينى لوا

وحاجه التانيه الحفلات   عشان الترفيه ضروريه

افتحلها دوغرى اعتمادات   وبامرى تكون للصبحيه

راقص وتفاريح يبسطنا صحيح

اما الاغنيه الثانيه (سلم علاي) فهى ايضا من اللون الكوميدى وفيها يتبادل كل من اسماعيل ياسين والنابلسى وعبد الغنى النجدي الحوار على طريق

اهلا بحبيبنا اللي وحشنا   وانت ابن حلال جوى يا شاوشنا

بنحبك يا منورجشنا   الله فرحتنا لما قالو جاى

ومع عدوان ١٩٥٦ اتقل اهتمام السينما الى المقاومه الشعبيه ورجالها فى بورسعيد لكن فطين عبد الوهاب استكمل مشروعه بان ذهب ببطله اسماعيل ياسين الى الطيران والبوليس الحربي والاسطول وساندت القوات المسلحه المؤسسات التى تنتج الافلام لنقل قصص واقعيه فى تاريخ الجيش المصري وفى عام ١٩٦٠ قدم السيد بدير فيلم (عمالقة البحار) حول معركه البروليس التى شاركه فيها القوات البحريه عام ١٩٥٦ ودفعت شهداء لها من مصر وسوريا وفى الفيلم هناك ينشد القوات البحريه الذى كتبة عبدالله ابو رداش الذى لقب بشاعر الاسطول ولحن النشيد عبدالحميد عبد الرحمن الذى لحن اغنيات الجيش فى سينما كما سبقت الاشاره والنشيد تؤدية المجموعه على خلفيه حزينه وبوارج الاسطول تقدم استعراضه فى مياه البحر المتوسط ومن بين ابيات هذا النشيد

رعينا العبود لكل الوجود   وصنا السلام

ففى السلام نامل   وفى الحرب نبذل لتحيا

جحافل :

وقد جاءت كلمه المنتج لتشكر المشير عبد الحكيم عامر القائد العام لقوات المسلحه على تفضلة بالموافقة على اشتراك القوات البحريه والجويه فى تصوير فيلم (عمالقه البحار)

وفى بدايه الستينات تقلص الغناء في السينما وظهر بعض الافلام التى على غرار (قلب وسيفى) حول الشباب الذى يتغير سلوكه نحو الافضل بالاضمان الى الجيش، الان هذه الاعمال بدت باهته قياسا الى افلام فطين عبد الوهاب مثل(فيلم المقامرون الثلاثه) ١٩٦٥ وبدا كان اسماعيل يس لم يترك لاحد من بعده ان يكون له ظل مثلة وقد صيغت هذه الافلام فى اطار كوميدى والغريب ان سنيما الستينات كانت تمجد نجمات من الرقص الشرقي على حساب ابطال الجيش حسن الامام مثلا قام بسرد سيرت حياه شفيقه القبطيه وامتثال ذكى ومنيره المهديه وبديعه مسبجى بينما عدوان يونيه كى تاتى بنتائج عكسيه ولم تستطيع السنيما قط انتقاد الجيش الا فى الثمنيات حين قدم نادر جلال فيلمه ملف ساميه شعراوى ١٩٨٨ الذى اظهر فى شخصيه القائد العام للقوات المسلحه بدون اسمه الحقيقى وهوه يسهر حتى ساعات الفجر ليله العدوان على مصر فى حفل زواج احد ظباطه المقربين اليه وعبرت الافلام المنتجه بين عامي ١٩٦٧ ١٩٧٣ عن هزائم ومنها على سبيل المثال اغنيه على الممر لعلى عبد الخالق ١٩٧٢ الذى يعبر عن المقاومه البائسة واليائسه لخمس من الجنود عند احد ممرات سيناء وينتهي الفيلم بمقتل العديد منه إلى ان الصوره تغيرت بل انقلبت عقب انتصار اكتوبر ١٩٧٣ سرعان ما دارت الكاميرات لتصوير كيف عبر رجال الجيش نحو الضفه الشرقيه لقناه السويس وعبروا ايضا ببلاديم من النكسه إلى النصر وشاهد الناس

افلاما تعبر عن البطولات ماخوذة من نصوص ادبية لم تكتب لتعبر عن انتصار اكتوبر بل عن هزيمه يونية ومنها ابناء الصمت عن (والرصاصة لا تزال فى جيبى) عن احسان عبد القدوس و (حتى اخر العمر) لكاتبه السوريه نينا رحبانى وفيما بعد فيلم (العمر لحظه) عن يوسف السباعى ثم قدمت السينما قصصا عن بطولات المخابرات العامه بعد ان تسبب جواسيس مصريون فى اصابه او تدمير قواعد عسكريه مصريه وهذا نوع اخر من بطولات مثل القبض على الجاسوسه عبله كامل فى (الصعود الى الهاويه) عن قصه قصيره لصالح مرسي حيث كانت الجاسوسه سببا فى تدمير العدد من القواعد العسكريه المصريه وايضا حكايه جاسوس ارسل معلومات الى المساد عن وصول بارجتين الى الاسكندريه فى فيلم (بئر الخيانه عن روايه لبراهيم مسعود والغريب . انه حتى الان وفى هذه المرحله وحدها تم تمجيد رجولين على مستواه العسكرى هما السادات من خلال الفيلم المذكور وكثر الحديث عن عمل فيلم حول صاحب اضربه الجويه وكان اخر افلام عن العسكريه المصريه وانتصاراتها هوه (يوم الكرامه ل على عبد الخالق ٢٠٠٥ وبقية الاحداث معروف لكن هذه هى ثوره الشباب الجديده يوم ٣٠ يونية تعيد الرونق الى صوره الجيش وتتم المقارنه بين الرئيس السيسي وجمال عبد الناصر ليؤكد اننا فى مرحله جديده غيرت من منظور متراكم وحتى الان فان السينما لم تقترب بعد من الصوره الجديدة للقوات المسلحه وقد تحتاج هذا الى المزيد من الوقت لكن لا شك ان المصريين يحتفلون دون بنتصار اكتوبر وقد لعب الجيش دورا وطنيه حماسيه وكانما الجيش قد حقق نصرا على المستوي الداخلى مثلاما حقق نصر اكتوبر منذ اربع عقود ميلاديه.

الفهرس

على خط النار بقلم محمد الشافعى

الجيش المصرى فى الأدب والفن بقلم د. خالد أبو الليل

الجيش المصري فى عيون الشعراء بقلم أحمد سويلم

بطولات الجندى المصرى فى قص التجربة الحربية بقلم: السيد نجم

الجيش فى السينما المصرية ثلاث رؤى متقاربة محمود قاسم